

محمد عبد المنعم خفاجي

الحياة الأدبية في مصر العصر المملوكي والعثماني

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

الناشر

مكتبة المكتبات الأزهرية

مبنى محمد بايوت وأخوه محمد

٩ من الصناديق - الأزهر - القاهرة

اهداء من
احمد رزقي
نسألكم الدعاء
صدقة جارية عنه وعن والديه

1946

1946

1946

1946

1946

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

11

12

13

14

15

16

17

تقديم

يحتوى هذا الكتاب على دراسات واسعة عن تاريخ الآداب العربية منذ سقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ ، حتى بدء العصر الحديث عام ١٢٢٠ هـ ، وهذه فترة طويلة تمتد نحو ستة قرون في تاريخ الحياة العقلية والأدبية في العالم العربي .

ونحن إذ نكتب تاريخ الحركة الأدبية في هذه الفترة الطويلة ، نشعر بالظلام الذى يحيط بها من كل جانب من جوانبها ، ونحاول أن نفنى الأنوار وسط الظلام ، لنهتدى بها في فهم هذه العصور السياسية وثقافيا وأدبيا .

ونسأل الله التوفيق والسداد بفضله وتوفيقه ، وما توفيقى إلا بآله . .
المؤلف

تمهيد

بين عهدين :

سبحانك اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتجزئ من تشاء ، وتذل من تشاء .

وهكذا شئت إرادة الله ، ولا راد لمشيئته . أن تسقط بغداد عاصمة الخلافة العباسية في أيدي الغول (التتار) عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م ، وأن ينتهي عهد العباسيين وسلطانهم ، ويذهب إلى الأبد حكمهم وعرشهم ، وأن يورث دولتهم التي شادوها بالسياسة والقوة والذخاء الوارثون ، ويخلفهم في حكم العالم الإسلامي من كتب الله لهم أن يحكموه .. وبقي العباسيون ودولتهم ذكرى مرودة ، وتاريخاً مرويّاً ، وعبراً ماثلة ، وأحداث ماثورة . يذكرها السلفون بالقوة والعبرة وبالنيطة والحسرة ، وبالأسف العميق ، لذهاب دولة إسلامية كبرى ، كان لها من النفوذ الروحي والسياسي في كل بقاع الإسلام ، ما ألفت القلوب حولها ، وأبقى على الزمان مجدها وجلالها ، والله يرث الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

ويؤرخ سقوط بغداد عهداً جديداً في تاريخ الأمة العربية ، فقد سقطت دولة الخلافة العباسية ، وفقدت الحضارة الإسلامية ركنها كبيرا من أركانها ، وانقسم الشرق العربي إلى قسمين : قسمه الشرق وهو العراق الذي فقد استقلاله وغدا ولاية مغولية ، وقسمه الغرب ، ويتألف من مصر وسوريا (الشام) ، وقد احتفظ باستقلاله ، ودافع عنه دفاع السعيت الناضل ، وإن

كان الحكم فيه قد أصبح في أيدي طوائف الأجناد من المالك ، وهم من أصول شق ، ولكنهم ليسوا عربا ، وإن كانوا قد تعربوا على التدريج ، واعتنقوا الإسلام وأصبحوا من أكبر حماة والمدافعين عنه .

ووقف الجانبان أحدهما من الآخر موقف المداة والتحفز ، يحاول المغول فتح مصر وسوريا عيسى المالك ارد عدوان المغول ، وقد كان الفوز حليفهم ، ولم لهم النصر بعد جهود كبيرة ، وأخذوا يحاولون فتح بغداد ، ولكنهم فشلوا ، وتقطعت بين العرب أسباب التبادل التجاري والتفافي ، وضعت قوتهم ، وخربت مدتهم . وبسيطرة هذه الدول الأجنبية على الأمة العربية ، من مغول وغزن و ترك ومالك ، فقد العرب عزم وسلطانهم ، وزحزحوا عن مكان المبادرة وانتقلت من أيديهم زعامة العالم الإسلامي ، إلى شعوب أخرى .

كيف سقطت بغداد :

كانت الخلافة العباسية على عهد آخر خلفائها المستعصم بالله (٤٠٠-٤٠٦هـ) تحكم العراق ، وتتمتع باحترام كبير من المسلمين في شق أنحاء العالم الإسلامي ، وكان يشاركونها في حكم الشعوب الإسلامية : الدولة السلجوقية في فارس ، والطورازمية في خوارزم ، والاسماعيلية في اصبهان ، والروم البهلجقة في أرمينية ، والأتابكية في الموصل ، والأيوبيه في مصر والشام .

وكان خطر المغول الوثنيين الممجين قد استفحل آنذاك في شرق العالم الإسلامي ، وكانوا قد أنشأوا من موطنهم الأصلي في منغوليا إلى غرب آسيا ، مهاجروا بقيادة جنكيز خان الإمبراطورية الطورازمية وقضوا عليها . ثم أخذوا يتقدمون نحو أملاك الخلافة العباسية ويهددونها تهديداً خطيراً . وفي عام ٦٥٤ هـ ، قاد هولاكو جيشاً ضخماً ورحل به على بغداد حتى وصل شرقها في

الحادى عشر من المحرم عام ٦٥٦ هـ ، وبعد أربعة أيام دخل بغداد الغربية بخيانة الوزير ابن الملقى ، الذى كان يشجع هولاء على غزو العراق والاستيلاء على بغداد خوفاً من ضياع سلطانه (١) ، وفى يوم الأحد الرابع من صفر عام ٦٥٦ هـ (١٠ فبراير ١٢٥٨ م) خرج الخليفة وأولاده الثلاثة وعشرة آلاف من كبار رجال الدولة ، وأعلنوا الاستسلام أمام هولاء كرو وجيشه ، وسلمت بغداد ، وجمع السلاح من أهلها ثم انتفض عليها جيش هولاء فقتلوا أهلها ، وخربوا مساجدها وقصورها ، ونهبوا كل ما وقعت عليهم أيديهم من أموال وتجارات وتحف وكثوز ، وأبادوا تراثها العلمى ، نهبوا المكتبات والندارس ، وأحرقوا الكتب أو ذموا بها فى دجلة ، وقدر للثورخون عدد القتل نهبوا مليونين . . . وبعد خمسة أيام من استسلام الخليفة ذهب هولاء وأمرؤ جيشه إلى قصر الخلافة فنهبوه وأذلوا سيده ، وقتلوا الكثيرين من سكانه ، واستولوا على تحفه وكثوزه ، وفى الرابع عشر من صفر ٦٥٦ هـ (٢٠ فبراير عام ١٢٥٨ م) قتل هولاء الخليفة المستعصم وولده الأكبر . ثم أصدر أمره بقتل أمراء الأسرة العباسية وقتلهم جميعاً ، ولم ينج إلا أصغر أبنائه الخليفة الذى أبقته زوجة هولاء ، وأمنه مبارك شاه ، وقد أرسل إلى مرقند وتزوج من منقولية ، وأسرت إحدى بنات الخليفة وماتت فى مرقند .

وفى مصرع بغداد والخلافة العباسية يقول شمس الدين الكوفى :

قف فى ديار الظاعنين وفادها يا دار ما فعلت بك الأيام ؟
يا دار أين الساكنون وأين ذباك البها ، وذلك الأعظام ؟

(١) قيل إنه كان يريد نقل الخلافة إلى العلويين . وقيل إنه غضب البذائع التى نزلت بالشية عام ٦٥٥ هـ ، وقيل إن المستعصم قدم عليه الدفتر دار الصغير فغضب منه بعد أن كانت فى قبضته جميع السيفيات .

يأدار أين زمان ربك موقفاً وشعارك الإجلال والإكرام ؟
يأدار منذ أنلت نجومك عنفاً والله من بعد الضياء ظلام
فليعدم قرب الردى ولتقدم فقد الهدى وتزلزل الإسلام
فتى قبلت من الأعادي ساكناً بعد الأحبة لاستكاث غلام
ويقول أيضاً في قصيدة أخرى :

ما للنازل أصبحت لا أهلها أحلى ولا جيرانها جيرانى

ولقد أتى هولاءكو ابن الملقى وزيراً ، واجتمع العلماء في بغداد في
اللدسة المستنصرية حيث طرح عليهم هولاءكو هذا السؤال : أيهما أفضل :
السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر ؟ وأفتوا بأن الكافر العادل
يجب أن يفضل على المسلم العادل ، وكان هذا هو حكم القوة لا حكم الدين
طبعاً . . . وتم فتح العراق وخضوعه لسلطان الفول الوثنيين . وكان زوال
إخلافة العباسية نهاية لتاريخ مجيد حافل ، وخاتمة للحضارة الإسلامية التي
ازدهرت في ظلها الآداب والفنون ، والعلوم والمعارف ، وانتهت مدنية
كانت في القرون الوسطى مصدر نور وهداية وخير للإنسانية جمعاء ، وللعالم
كافة ، وللأمم العربية وغير العربية قاطبة ، وصارت بغداد التي كانت قلب
للإسلام النابض أطلالا هراسمة ، وضمت فيها الألسنة ، وخرست الأفواه ،
ومانت الحركة العلمية والأدبية بتدمير مدارسها ومكتباتها ، وإحراق
مخطوطاتها وكفوزها العلمية ، وقتل الآلاف من أديانها وعلمائها ، وتشريد
ما بقيهم في أنحاء الوطن الإسلامي غربي العراق وبذلك تخلت بغداد عن مركز
الصدارة الأدبية والعلمية ، كما تخلت عن زعامتها الدينية والروحية (١) .

(١) راجع : ابن الأثير ، والذهبي ، والخميس للديار بكرى ، وتاريخ

وظل المغول أمدا طويلا يتولون حكم العراق وفارس وشرق العالم الاسلامي .
 وهم على وئنتهم وجهاتهم ، لا يستقيم لهم أمر ولا يطرد لهم نظام . وسعت
 للمسيحية مملكة في بابوات أوروبا وفي ملوكها إلى هولاندا وخلفائه يرضون
 عليهم اشتباك دين المسيح ويشرحون لهم تعاليمه ، ولكن غازان أعلن في الرابع
 من شعبان ٦٩٤ هـ - ١٩ يونيو ١٢٩٥ م اعتناقه للإسلام ، وأسلم بإسلامه نحو
 مائة ألف من أتباعه (١) ، واعتنق خلفاؤه الإسلام ، وبإسلامهم أخذت
 العلوم الدينية والعربية تنيق من سباتها ، وظهر الأدب الصوفي في إيران ،
 وأخذوا يشجعون العلوم والطب ، ويرفعون عن كاهل الشعب للظالم ، يكفرون
 بذلك عما قدموا من سيئات في حق الإسلام وشعبه .

انقصار مصر في مركزها مع التتار :

١ — بسقوط الخلافة العباسية مد المغول سلطاتهم السياسية إلى مشارف
 الشام وأصبحوا يحكمون شرق العالم الاسلامي والعراق كله ، ويهددون الشام
 ومصر تهديدا خطيرا . . وكانت مصر وسوريا إبان ذلك قد انتمى منها
 حكم الأيوبيين ، وتسلمت أمورها دولة جديدة ، هي دولة المماليك ، ويرجع تاريخ
 أصل المماليك إلى الفارات التي كان يشنها المسلمون على آسيا الصغرى ، فقد كان
 أمراهم من الشركس وغيرهم يباعون في الأسواق ، ويتخذون عبيدا ، فاشترى
 الأيوبيون منهم أكثر من اثني عشر ألفا ، واتخذوا منهم حرسا لهم ، وما لبثوا
 أن زاد نفوذهم في الدولة الأيوبية ، واهتموا بخطرهم ، فقتلوا الملك العظيم

== الخلفاء السيوطي ، وتاريخ ابن خلدون ، وابن خلكان ، والقوافل .
 لابن شاكر ، والمختصر لأبي الفدا ، والساوك للقريري : ورحمة الاسلام الكبرى .
 لمصطفى طه بدر ، وسواها من المراجع

(١) من ١٦ مغول إيران بين المسيحية والإسلام - مصطفى طه بدر .

تؤران شاه عام ١٢٤٨ هـ - ١٢٥٠ م . وانقضت تسع سنوات بعد ذلك تنازع فيها الأيوبيون والمماليك العرش ، حتى خلع أخيرا قطز عام ١٢٥٧ هـ ١٢٥٩ م ، وكان من قبل نائب الملك النصور . وبعد قطز المؤسس الحقيقي لدولة المماليك ، وفي أول حكمه كان القطار قد استولوا على الموصل ، ثم غزوا الشام ، فاستولوا على حلب ، وتقدم هولاءكو ففتح دمشق وسواحل الشام البحرية ، وتقدم إلى مصر ، وبعث بنشور إلى قطز يقول فيه : « يا أهل مصر أنتم قوم ضعاف ، فصوروا دماكم متى ولا تقاتلوا أبدا فتدمروا » ، وسخط قطز من هولاءكو ، وسار من القاهرة بجيش ضخم للاقاة بجيش هولاءكو والتحم الجيشان في معركة (عين جالوت) على أرض فلسطين ، وفي يوم الجمعة ٢٥ من رمضان ١٢٥٨ هـ - ١٢٦٠ م انتصر الجيش المصري بانتصارا باعرا ، وسحق الغزاة الذين كانوا يريدون أن يدنسوا أرض الوطن بأقدامهم ، وعاد قطز وأكالييل المجيد فوق رأسه إلا أن يبيرس فائده اغتاله في الطريق وتولى عرش مصر بعده عام ١٢٥٨ هـ .

٢ - وهذا النصر المؤزر انتهى إلى الأبد خطر المغول على العالم العربي ، وسحق قواهم العسكرية ، وأبانت الخرافة القائلة بأنهم لا يقبلون ، وتسلت مصر زعامة العالم الاسلامي ، وأصبحت هي المدامة من مجد المسلمين وكيانهم .

انحياز الآداب العربية إلى مصر :

١ - في وسط هذه الزعازع الموح ، والأعاصير السود ، والجن القائمة ، التي أصابت بغداد وخلافتها ، انشق الفجر من جديد يؤذن فيه للمؤمنين بهلالة الوطن العربي الاسلامي ، ويهتفون مصر وقادتها بماقصارهم للمؤزر ، وتلفت

العالم الإسلامي ليلقى بمقاليده زعامته إلى الأبطال لليامين ، والأشواش الصييد من أبناء مصر . . . ووقف العلماء والأدباء ، والمفسرون ورجال القنون وسط الاضطرابات النائرة التي أصابت العراق وأهله وخلال موجة الإرهاب والحكم القاسم الجاهل ، والنزو الذير المبير ، وقفوا يتطلعون إلى بغداد التي كانت منابة لهم ، قرأوا السيف مصلتا ، والدمار يصف بكل عزيز ونفيس من تراث المسلمين وأقارم التي كانت مفخرة للعروب الإسلامية جميعها ، بل للإنسانية كافة ، وشاهدوا كفور علومهم وآدابهم يتدف بها فذا في نهر دجلة ، ويحرق ما تبقى منها أو يمزق بالأيدي ويداس عليه بالنتال ، وتلفتوا فوجدوا الحرمات مهدورة ، والأرواح مسفوكة ، والحرمات منهوكة ، والأفواه مكعكة ، والألسنة خرساء . . . حيث أخذوا يحاولون القرار بكل وسيلة من العراق وسفاحيها الأشرار ، وتطلعون بأبصارهم فلم يجدوا مأمنا يلوذون به ، وينصرون بالأمن والسلامة والحرية فيه غير مصر والشام ، فأجهوا إليهما ، وهم في حيالة حاكم معبر قطز ، وفي حراسة جندعها الجواسل . . . أجهوا إليها ليقيموا دولة عربية للعلم والأدب ، وللدن ولنة العرب .

وتماوى خطر القنول على الشام فأخذ من بقي فيها في المنيرة إلى القاهرة ، ثم كانت معركة عيني جالوت القاصلة ، فأمن الخلاقون ، وبعداً للفرعون ، وسكن الخائرون ، وصارت القاهرة مقصد الناس ومنجى العلماء من كل مكان ، وزاد من شأنها أن سلطانها بيبرس (٦٥٨ - ٦٨٨ هـ) أحيا فيها الخلافة المملوكية من جديد ، فلما أخذ أبناء الخلفاء المماليك ، الذين فروا من حولا كوا ، وأحمد بن الخليفة الظاهر العباسي ، وأبىه بالخلافة ، ولفى بالمعاصر بالله ، وأصبحت القاهرة من جديد مقر الخلفاء المماليك ، وصار لهم العورة الوحيدة

على جميع بلاد الإسلام ، وإن كان السلطان الشهابي في بيداء بيزنس وخلفائه
من الماليك .

نزل العلماء والأدباء مصر التي احتلت مكانة العراق ، وأقاموا في القاهرة
التي احتلت مكانة بغداد ، وبها يؤمّد عند ضحكهم من المدارس والمعاهد
ومجالس العلم ، وبها ماشاء الله من المكتبات ونفائس آثار الإسلام . نزلوا فيها
فوجدوها حرماً آمناً ، وموطناً كريماً ، ولا قوانينها أبناء عمومتهم ، ولقوا في
إقامتهم من عطف الماليك ما يجب إليهم البقاء ، فانبسطت قلوبهم ، وادخلت
قلوبهم ، وطلاب لهم المقام ، وأخذوا يكتبون ويؤلفون ، وينثرون وينظّمون .

وقد هاجر إلى القاهرة في غضون هذه الفترة عدد لا يحصى من علماء الشرق
الإسلامي والعراق والشام ، وعدد آخر غير قليل من الأندلس وأديانها ،
فأرى من وجه الأسيان المصممين ، الذين استقروا على الدين الإسلامي في
الأندلس من أيدي «مرتد» . وثقوا المسلمين هناك سوء العذاب ، وساموهم
الزوال والتكال الشديدة .

وكانت مصر آنذاك قد سقطت في أيديهم ، وأقاموا فيها
دولتهم الناشئة الفتية ، يوم قوم أشيلاء من ناربه والجزوب والفروسية ، وإعدادوا
بالخشونة وبغداد الكثير منهم عن التفرغ ، فأخذوا يصيرون ملكهم بصفة
وفقية . إذ لا حسب ليس لهم ، ولا ما يفي بعبقير ملكهم ، ولا تاريخ يؤيد
بما هم موصوفون حتى لهم في حكم العالم الإسلامي ، فأقبلوا على بناء المدارس والمساجد
بوتقريب العلماء ، والإغراق على الأدياء وإقامة الملاهي ، والبيمارستانات .
وعنيس المسال الرفيع ، على نخاريج الخليل والبر ، ودفنوا العلماء إلى شهر العلم
بالتدريس والتأليف . وكان لهم من ذلك ومن انتصاراتهم على القبايل وعلى

الصليبيين في أرض الشام مفاخر وما أمر لا تمل . وزاد من عظمة أوجهم في حيون المسلمين أنهم أصبحوا حاة الخلافة الإسلامية المكلومة . وملاذ الأمم العربية الهزيمة ، ومقصد الأحرار والعلماء من كل مكان .

ولولا عواصف الحروب . وزهازع الخلافات التي كانت تنور بين قواد المماليك الفنية بعد الفنية وتسكيات الأمراض والأوبئة العامة والسنين الجديدة لتغير وجه التاريخ . ولما كان للأدب واللغة العرب شأن آخر وأى شأن . فإن الآداب والفنون لا تزدهر إلا في ظل السلام والأمن والهدوء والرخاء والزمانية ، فلا يمكن لشاعر أن يرد والسيوف مشرقة ، كالألماس لا يمكن للبلبل أن يغندخ والسهام مضمرة تحرة .

هجرة وعجزة :

كانت هجرة العلماء والأدباء إلى القاهرة إثر سقوط بغداد شبيهة من بعض نواحيها بهجرة علماء اليونان إلى إيطاليا بعد سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣ هـ ، إذ أحيا هؤلاء نهضة العلوم ، وبثروا في أوروبا حركة جديدة ، وحياة علمية مستعذدة ، بدراساتهم اللغوية ، وترجمتهم من جديد لأثارها وفلسفتها . وقد غيرت هجرتهم هذه الكثير من توجه الحياة الأوروبية ، ودفع الناس إلى التخلص من أشغال القرون الوسطى وأوزارها ، وإلى التفكير في إصلاح معيشتهم ، وطرائق حياتهم ، وألوان علومهم وفنونهم ومذاهب دينهم .

وهجرة علماء المسلمين إلى القاهرة دفعت كذلك بأيدي العلوم والآداب والفنون ، فأخذت النهضة الأدبية والعلمية يطرد سهرها ، ويسرع خطوها ، ويعظم شأنها ، ولكننا مع ذلك لم نغير كما الهجرة السابقة شيئا من معالم

الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة في العالم الاسلامي ، ولم تنبذ آثارها الأدبية والفكرية إلى غير معسر والشام ، وحسبها أنها أحدثت نهضة دينية وعلمية وأدبية ، وفق ما كانت تدير فيه من سلطة مرسومة أو شبه مرسومة . ومقلعة ابن خلدون - تزيل معسر في أيام السلطان برقوق - التي أودعها خلاصة ثمنارية ومبرات تفكيره والكثير من الآراء الاجتماعية والسياسية ووسائل إنباض الشعوب لإصلاح طرائق التعليم ، لم تنفذ إلى نفس غيره من علماء عصره ، ولم يظفر لدعوته هذه أثر في الفكر الاسلامي العربي ، ولا في الحياة المصرية ، لأن النزعة إلى الإصلاح لم تكن عامة ، والرأي العام لم يكن قد استكمل وسائل الفهوض والتضوج ، ولأن الشعوب بالحاجة إلى الإصلاح لم يوجد بعد . ولا شك أن الحركة العلمية والأدبية كان من عواملها هذا التشجيع الرسمي الذي ذكرناه ، ثم الشعور الديني القوي الذي بحث في العلماء روح الانقياد والنزوع والتضحية والعمل من أجل استعادة مجد الثقافة العربية الاسلامية وانتشر صيت مصر والقاهرة ، وأزهرها المعبد في كل مكان ، حتى ليقتف عالم سوداني من غربي الأحرار في - غار ليقتح أحد ملوك التروج ، وهو السلطان باي أبردين فيقول :

يا راجيا يسرى على متن ضامر

إلى صاحب العليا والجود والبر

ويطوى إليه شقة البعد والنوى

ويقتحم الأوصار في النهمة القفر

ويتنفس من مجمر وشاطئ نيلها

وأزهرها للصور بالعلم والذكر

لك الخير إن واثقت (سند) آتت بها
وقدوف محب وانتهز فرصة الدهر
وألقى عصا التسيار في صرح أفتها
تجد كل ما تهوى النفوس من البشر

لقد شجع ممالك مصر النهضة الدينية والعلمية على أن تدير بخطى واسعة
في سبيل استكمال حاجات المجتمع العربي الروحية والثقافية ، ودفعوا العلماء إلى
التأليف بما يذوق لهم من مال وجاه ، وأسندوا إليهم من مناصب ، فانتقلت
خزائن الكتب ودورها بنفائس المؤلفات ، وجلبوا الآثر ، وزاد اهتمامهم
بالعربية لجمالها لغة رسمية ، وأحاطوا بديوان الإنشاء برعايتهم واهتمامهم ،
ثم أنشأوا المدارس والمساجد وحلقات العلم التي أمها الصليون من كل مكان ،
وأصبحت تزخر بالطلاب يقصدونها من جميع الممالك الإسلامية ، ينهلون من
معيها العذب ، ويرتفعون من ينابيعها الثرة ، ورتبت لهم المرتبات والحوافز ،
وحبست عليهم الأوقاف ، وأصبحت مدن القاهرة والإسكندرية وقوص
والفيوم ، ثم دمشق وجلب وحماة وحمص ، تمثل مكانة بغداد وقرطبة وجرجان
وأصفهان وبخارى وسواها .

وقد ساعدت هذه النهضة على أن تدير مصر بخطى واسعة في سبيل استكمال حاجات المجتمع العربي الروحية والثقافية ، ودفعوا العلماء إلى التأليف بما يذوق لهم من مال وجاه ، وأسندوا إليهم من مناصب ، فانتقلت خزائن الكتب ودورها بنفائس المؤلفات ، وجلبوا الآثر ، وزاد اهتمامهم بالعربية لجمالها لغة رسمية ، وأحاطوا بديوان الإنشاء برعايتهم واهتمامهم ، ثم أنشأوا المدارس والمساجد وحلقات العلم التي أمها الصليون من كل مكان ، وأصبحت تزخر بالطلاب يقصدونها من جميع الممالك الإسلامية ، ينهلون من معيها العذب ، ويرتفعون من ينابيعها الثرة ، ورتبت لهم المرتبات والحوافز ، وحبست عليهم الأوقاف ، وأصبحت مدن القاهرة والإسكندرية وقوص والفيوم ، ثم دمشق وجلب وحماة وحمص ، تمثل مكانة بغداد وقرطبة وجرجان وأصفهان وبخارى وسواها .

(م — ٢ الحياة الأندلسية في مصر)

الحياة الأدبية في مصر والشام بعد سقوط بغداد

في عصر المماليك

٦٥٧ - ٩٢٣ هـ : ١٢٥٩ - ١٥١٧ م

الحياة الأدبية في هذا العصر :

ينقسم العصر المملوكي في مصر إلى عصرين أو دولتين :

١ — دولة المماليك البحرية ، وتنتهى عام ٧٨٤ هـ - ١٣٨٢ م ، وملوكها في الأصل من الترك ، وهم مماليك الصالح نجم الدين أيوب ، أكثر من شرأئهم . وجعلهم أمراء دولته وقوادعها وحرسه الخاص ، وأسكنهم معه في قلعة الروضة وسهام البحرية ، وأول من نازع الأيوبيين منهم الملك هو عز الدين أيبك عام ٦٤٨ هـ ، ثم استقر الأمر فيهم لقطز كما أسلفنا ، ومن ملوكها بيبرس والأشرف خليل الذي قضى على إمارات الصليبيين بالشام عام ٦٩١ هـ ، والناسر قلاوون وقد عنى بنشر العلوم والمعارف وبناء المساجد والمباني الفخمة .

٢ — دولة المماليك الشراكسة أو البرجية وتنتهى عام ٩٣٣ هـ - ١٥١٧ م ومعظمهم من الشراكسة . . وعدد ملوكها ثلاثة وعشرون ، وأولهم وأشهرهم برفوق ، ونلاه فرج بن برفوق ، ومنهم الزيد ، والأشرف برسباي ، وقايتباي ، والفوري ، وقد خطب باسم برفوق في بعض بلاد المعجم وفي الموصل وشمال العراق ، وضربت السكة باسمه في كل هذه البقاع ، وكافراً يسمون بالبرجية لأنهم سكة أربع قلعة القطم .

وقد كان لدولتي الماليك أثر ضخم في العالم الإسلامي بفتحهم على
خطر التتار ، وقضائهم على إمارات الصليبيين في سواحل الشام ، وبإحيائهم
للخلافة الإسلامية ، وقد نشروا نفوذهم وسلطانهم في كل مكان ، وكانت
تخضع لهم بلاد الحجاز واليمن وشرق إفريقيا وليبيا وبعض جزر البحر الأبيض
والشام وكثير من أراضي العراق وبلاد النوبة وشمال السودان .
وكانت مصر خاضعة اسمياً للخلفاء العباسيين ، وكان نفوذهم الذي
هو الروحي كبيراً ، أما السلطان الحقيقي فقد كان بأيدي الماليك .

الحياة الاجتماعية :

كان المجتمع المصري في عصر الماليك طبقات : منها الفلاحون والعمال
والتجار والصناع والوظائف ، ثم طبقة الأغنياء والوجهاء ، ثم طبقة الماليك
وكان لهم النفوذ والهيمنة على مصائر البلاد .

وكان حكم الماليك في مجموعه حكم قومي ودعائس فوشن داخلية، وكانوا
محتسمين شيعاً وأحراباً ، ينتسبون إلى قوادهم وسلاطينهم ، منهم الأشرفيون
والظاهريةون والمزيدون .

وكانت الحكومة على جانب كبير من القوة والسلطان والثراء ، وذلك
تقبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ ، وكانت مرادها
من الضرائب والمكوس المفروضة على التجارة ، التي تمر بالبحر الأحمر والسويس ،
على طريقها بين الشرق وجنوة والبنادقية في حوض البحر الأبيض المتوسط .

ولم يكن للماليك بوزارة ولا عمارة ، فوفقت حركة العمران ، واختل
الأمن ، واضطربت الأمور ، وتناقص عدد السكان ، وضعفت موارد البلاد .

الحياة الثقافية :

١ - قامت في عصر الماليك حركة علمية كان من مظهرها كثرة العلماء في كل فرع من فروع الثقافة الإسلامية العربية ، وضخامة ما كتبه هؤلاء العلماء من مؤلفات ، ومن تبع في هذا العصر : الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط م ٨١٧ هـ ، والقلتشندي صاحب صبح الأعشى م ٨٢١ هـ ، والنويري صاحب نهاية الأدب م ٧٣٣ هـ ، والحوي صاحب خزائن الأدب : وصلاح الدين الصفدي م ٧٦٤ هـ ، وصفي الدين الحلبي م ٧٥٠ هـ : وابن نباتة م ٧٦٨ هـ ، والبوصيري م ٦٩٥ هـ ، وابن الوردي م ٦٩٩ هـ ، وابن دقاق م ٨٠٩ هـ مؤرخ مصر ، والقريزي م ٨٤٥ هـ ، ومحمد جمال الدين الوطواط م ٨٧١ هـ ، والدميري صاحب حياة الحيوان م ٨٠٨ هـ .

ومن مشهورى العلماء : ابن مكرم صاحب لسان العرب ، وأبو حيان ، والرضي ، والسيرطي ، والسبكي والبلقيني والبيهي والسيوطي ، وسواهم .
٢ - وكثرت المدارس كثرة ملحوظة في هذا العصر ، ومن أشهرها : المدرسة المنصورة ، والمدرسة الناصرية التي بناها القاصر ، والمدرسة الظاهرية ، ومدرسة السلطان حسن ، والمدرسة المؤيدية ، وذلك عدا الأزهر وجامع عمرو ، وكان لهذه المدارس أثر كبير في نهضة العلم وازدهار الثقافة وكثرة العلماء ، وكان في كثير من المدارس خزائن حافلة بالكتب الثمينة في مختلف العلوم والمعارف ، فكان في المدرسة الفاضلية خزائن كتب تحتوي على مائة ألف مجلد ، وكذلك كان بالمدرسة المحمودية (١) .

(١) أنشئت المدرسة المحمودية عام ٧٩٧ هـ ، ويقول المقريري في خزائن كتبها : ولا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلاً ولا يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون في المدرسة ، وبها كتب الإسلام من كل فن :

٣ — وكانت المؤلفات في هذا العصر ، طابعها الجمع والرواية والتحقيق
العلمي ، وكان يقصد بها سد الفراغ الذي حدث في ميدان الثقافة الإسلامية
والعربية بتأثير نسكية بغداد (١) وانتهاء حكم العرب في أسبانيا ، وهي أشبه
بالوسوعات والجاميع .

٤ — ومن مصادر الثقافة الأدبية في هذا العصر : نهاية الأرب في فنون
الأدب للزويري ، وهو سفر كبير في ثلاثين مجلدا ، وصحيح الأعرشى في صناعة
الانشاء لقله شندی ، وقد كان مؤلفه يكتب مائة في صناعة الانشاء وأصولها
وقوانينها لما خلق يدور ان الانشاء ، ثم سئل أن يشرحها فكان شرحها هذا
الكتاب ، ومما لك الأبحار لابن فضل الله العمري م ٧٤٩ هـ ويقع في بضعة
وعشرين مجلداً ، وقد ولد العمري بدمشق عام ٥٧٠ هـ ، ولسان العرب لابن منظور
م ٧١١ هـ وهو معجم لغوي كبير يقع في عشرين جزءاً ، ومقدمة ابن خلدون
م ٨٠٨ هـ ، وحياة الحيوان للهميري ، وللسطرف للأبشيهي م ٨٤٧ هـ ، وحسن
المحاضرة والاتقان والمزهر للسيوطي م ٩١١ هـ ، وحلية السكيت للتواني
م ٨٥٩ هـ ، وخطط القرطبي ، وخزانة الأدب لابن حجة الجوزي ، وسراجا .

٥ — ومواطن الثقافة في هذا العصر كانت هي : مصر ، والاسكندرية
وقوص ، وقفط ، ودمشق ، وحلب ، وحص ، وحما ، وبيت المقدس ، وسواها
الحياة الأدبية في عصر المماليك :

١ — من البدهي أن كلامنا هنا على الأدب في عصر المماليك لا يقتصر

(١) يقول السيوطي : وقد ذهبت جل الكتب في الفن الكاتبة بين اثنين
وغيرهم بحيث إن الكتب الموجودة الآن في اللغة لا تجمي . حمل جمل واحد
(١ : ٤٩ المزهر) .

على مصر وحدها ، إنما يشمل مواطنين كثيرين من مواطني العروبة هما ، مصر والشام ، فقد كانت مصر والشام آنذاك تكونان وحدة أساسية واحدة ، وكانتا يحضمان الظروف المشابهة أو وحدة : سياسية واجتماعية وثقافية وأدبية .

٢ — ولا شك أن الثقافة الإسلامية والعربية التي ازدهرت في عصر المماليك ، قد كان لها أثر كبير في رقي الذوق الأدبي ، وفي استعارة الحركة الأدبية ، بيد أن المماليك لم تسكن في عروبته أصيلة ، ولم يكونوا يفهمون قيمة الأدب ، ولا يدركون خطره ، ولا يهتمون به ، اهتمامهم بالعلم ، فقد كانوا رغبة في الظهور بالمظاهر الدينية الصحيح يشجعون الحركة العلمية لأنها تنجيه إلى خدمة الإسلام ودولته ، وهم يحبون أن يظهروا بظهور حجة الدين والمدائن عنده . . أما الأدب فلم يكونوا يدركون أن له صلة بالإنسان الإسلامي ، ولا أنه هو المعين على فهم القرآن وعلوم الإسلام ، فلم يولوه كبير عنايتهم ، ولا جيل اهتمامهم ، ومع ذلك فإن هذا لم يمنع بعضهم من التنافس على تشجيع الأدباء ، تنافسهم على تشجيع العلماء . . وعلى أية حال فإننا نجد الحركة الأدبية تسير في الغالب بعيدة عن قصور السلاطين ، وتظهر في مظهرين كثيرين هما : الكتابة الفنية ، والشعر .

ويميز أدب العصر المملوكي بعدة ميزات ظاهرة ، منها :

١ — شيوع العاطفة الدينية ، وقد أشعل نازعا الحروب للنفسة ضد الصليبيين والتمتار . ، لذلك وجدنا في هذا العصر أدبا تضاليا قويا متقدما يدعو إلى الكفاح والجهاد في سبيل الله ، والانتصار لدينه ، والدفاع عن الإسلام ضد خصومه وأعدائه . .

ولقد كان للمماليك فضل تطهير البلاد الإسلامية تطهيراً تاماً من الصليبيين
قال هذا الشرف الكبير الملك الأشرف بن قلاوون ، عام ٦٩١ هـ ، إذ فتح
هذا الساطان مدينة عكا وخربها ، ولم يدع في بقية الساحل أحداً من الفرنج ،
وقد هذا يقول محي الدين بن عبيد الظاهر :

يا بني الأصغر قد حل بكم نقمة الله التي لا تنفصل
زُلَّ الأشرف في ساحتكم أبشروا منه بصفع متصل
ويقول شهاب الدين محمود الحلبي كاتب ديوان الإنشاء في عكا :

مررت بعد تحريب سورها وزند أوار النار في وسطها وارى
وعايتها بعد التنصر قد غدت محوسية الأبراج تسجد للثار

وقد كان من أثر شيوخ العاطفة البدئية : نشأة فن المذائح النبوية في
الادب المملوكي ، وقد نبع هذا الفن في عصر المماليك وأخذ ينزله في صدر
فنون الادب . ومن أشهر أعلامه البرصيري م ٦٩٥ هـ

٢ — شيوخ البديع في أدب هذا العصر ، وكانت مدرسة البديع تؤثر
الاغراق في المحسنات البديعية ، وكان زعيمها هو القاضي الفاضل ، ونشأت
طليقة من تلاميذه عرفوا بالبديع عناية فائقة ، ومنهم : ابن سناء الملك
وابن الفارض وابن النبيه قبيل عصر المماليك ، ثم محي الدين بن الظاهر
وابن كنيانة في العصر المملوكي .

وكان إلى جانب هذه المدرسة مدرسة أخرى تعنى بالأغنى قبل عنايتها
بالتحسين البديعي ، ومنها : السراج الوراق ، ونصير الدين الحماي وسواهما .
وأعلام هذه المدرسة لم يسرفوا في البيع إسراف المدرسة الفاضلية .

اللغة العربية وحالتها في عصر المماليك

تمهيد :

زهاء ثلاثة قرون مرت على العالم الإسلامي ، من سقوط بغداد إلى الفتح
للغمامي ، وهو مهدد تهديدا خطيرا في لغته ودينه وفي حياته .

فالتغول والصليبيون ، الأولون في شرق العالم الإسلامي إلى حدود سوريا ،
والآخرون في سواحل الشام ، ثم الآسيانيون في الأندلس ، كل هؤلاء كانوا
عوامل تهديد وإنتقال لكل مقومات الشعوب الإسلامية ؛ ثم الأتراك التتاريون
في آسيا الصغرى يهددون تهديدا خطيرا العالم العربي في حريته وكيانه ومقوماته ؛
ثم البرتغاليون ، وقد أخذوا يسيرون البحار فكشفوا رأس الرجاء الصالح ،
ووصلوا إلى الهند ، واحتكروا تجارة الشرق وانتزعوها من أيدي العرب ،
وحطموا قوتهم وتجارهم في البحار الشرقية ، وسعوا إلى نشر نفوذهم في
البحر الأحمر تهديدا للنزول في الحجاز وانتهاك حرمة مقدساته ، بالتصالح مع
الحيطة ، ولكن الله سلم فنهضت مصر الملوكية للعمل ضد البرتغاليين في البحار
الشرقية ، فبشروا بالأساطيل إلى البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وبالبليوش
فتفتح اليمن ، ولكن زمام التجارة الدولية والسيادة البحرية أفلت من أيديهم ،
وجذب الرخاء الذي كانت مصر تنعم به من موارد التجارة .

وكانت اللغات السائدة في العالم الإسلامي آنذاك هي التركية والفارسية
والفارسية ، وكانت هذه لغات مخاطب ، وهي لسان الحكومات الرسمية ، وسادت

اللغة البربرية في شمال أفريقيا مع خليط غير مفهوم في العربية . . . وكان حكام المسلمين من عناصر غير عربية ، كالغول والفرس والترك والماليك ، ومع ذلك دعى الله الإسلام بإسلام للغول والترك ، ودعى اللغة العربية فبقيت لغة التأليف والأدب في أغلب بلاد الإسلام ، بفضل القرآن الكريم ، وبفضل معسر وجهود علمائها ومدارسها ومبانيها ، وخاصة الأزهر الشريف .

شأن العربية في مصر والشام :

ومع كل ما ذكرناه سابقا ، ومع أن حكام مصر والشام كانوا غير عرب ، ومع التمييز الامة العربية في كثير من بقاع الاسلام ، فقد حفظ الله العربية وآدابها في مصر والشام ، بل إن العربية ازدهرت فيهما ازدهارا كبيرا ، في عصر الماليك سادة العالم العربي والاسلام آنذاك ، ويرجع أسباب ازدهارها إلى مايلي :

١ — عناية للماليك باللغة العربية ورعايتهم لها : لانهم نشأوا في موطنها مصر والشام ، ولأن شعوبهم كانت تعز بالعبدية وتمتعص بها ، ولأنهم أرادوا أن يظهروا بمظهر ديني نبيل يحجب الشعب فيهم وليس أرفع في هذا المضمار من خدمة الدين وعلومه .

٢ — الاكثار من إقامة المدارس والمساجد وخزائن الكتب في هذا العصر .

٣ — تشجيع حركة التأليف وكثرة المؤلفين ، فقد حثت الماليك العلماء على أن يؤلفوا ، ويصدروا مؤلفاتهم بأسمائهم .

٤ — تعصب العرب وعلمائهم لعربية بلدهم أن فقدت كل مقوماتها في شرق العالم الاسلامي .

العوامل التي أثرت في ازدهار العربية في هذا العصر

١ — المدارس

كثرت دور العلم في مصر والشام في عهد المماليك من مدارس وخوانق * وكانت لسلطين هذه الدولة عناية كبرى بهذه الدور ، وأعانهم على ذلك الثراء الذي بلغتته مصر في أيامهم ، وزاد في حماسهم لإنشائها الخراب الذي أصاب به التقارب بلاد الإسلام والعروبة ، ومن أشهر هذه المدارس مايلي :

١ — المدرسة الظاهرية القديمة ، أنشأها الظاهر بيبرس البندقدارى . عام ٦٦٢ هـ ، ونظم بها دروسا لفقهاء المذهب الشافعى والحنفى ، وللحديث وعلوم القراءات ، وألحق بها خزانة كتب كبيرة ، ومن أشهر أساتذتها : الحافظ شرف الدين الديناوى ، وكانت خزانة كتبها تشتمل على عشرات الألوف من المخطوطات :

٢ — المدرسة الظاهرية الجديدة أنشأها الظاهر برقوق ، وفرغ من بنائها عام ٧٨٨ هـ ، فأقبل الشعراء ، على السلطان الملك الظاهر بهيئته بها ، وكان من ذلك قول بعضهم :

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| الظاهر الملك السلطان همته | كادت لرفعتها تسمو على زحل |
| وبعض خدامه طوعا لخدمته | يدعوا لجال فتأتيه على عجل |

وفي كلمة عجل تورية لطيفة . ، فهي بمعنى السرعة ، أو بمعنى آخر مقصود هو العجالات ، إشارة إلى ما كان يتميز به بناء هذه المدرسة ، إذ كانت تعمل

أحدثها الضخمة على عجلات ، وقد عين السلطان فيها مدرسين لفقته على
الذاهب الأربعة والحديث والقراءات ، فلم يكن منهم من هو فائق
في فقه على الآخرين في فقرتهم (١) . وكان من أشهر أسانئها الشيخ
سراج الدين البلقيني .

٣ — مدرسة السلطان حسن ، ولا تزال باقية إلى اليوم ، وقد بناها
السلطان حسن بن قلاوون عام ٧٦٢ هـ ، ولا يعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد
المسلمين يمكن هذه المدرسة في ضخامة شكلها (٢) ، وكانت حلقات الذاهب
الأربعة بها كبيرة جليلة الأهمية .

٤ — المدرسة للزيدية أنشأها الملك المؤيد عام ٧٦٠ هـ ، وهي باقية إلى
اليوم فيما يسمى « جامع المؤيد » بالقرب من « بوابة التولى » التي كانت
تسمى قبلًا باب زويلة .

٥ — هذا ما عدا مدارس أخرى عديدة مثل : المدرسة للنصورية التي
بناها المنصور قلاوون ، وكان يدرس الطب بها عدا العلوم الإسلامية ؛ ومنزل
المدرسة الناصرية ، والمدرسة الساجية البهاية وكان بها خزانة كتب جليلة ،
ومثل المدرسة الممودة ، وقد أنشئت بها خزانة كتب فيها المقرئى :
« ولا يعرف اليوم بذياب مصر والشام مثلها » وبها كتب الإسلام من كل
علم وفن » ، ومدرسة الأمير جمال الدين التي أنشئت عام ٧٦٠ هـ ، وكان بها
خزانة حافلة بالمصاحف الثمينة ، والكتب النفيسة .

(١) ٣ : ١٤٦ حسن المحاضرة للسيوطي .

(٢) ٢ : ١٤٦ حسن المحاضرة نقلا عن غلط المقرئى .

٦ - هذا عدا ما أنشئ من مدارس في الأقاليم مثل : الإسكندرية
وقطقط وقوص وقنا وأستا .
وعدا المدارس التي أنشئت في دمشق وحلب وحماة وحمص وبيت
القدس ، وسواها .

* * *

وقد أنشأ المالوك بجانب هذه المدارس الكثيرة ، بيادستانات عدة
لعلاج المرضى ودراسة الطب ، وكان يدرس في خاقاه شيخو الطب والعلوم
الشرعية ، وقد أنشأ الظاهر سيف الدين شيخو .

* * *

وكانت الثقافة الدينية والعربية ودراسة الطب شائعة في هذا العصر ،
وكان « الأدب » يدرس ويولى عناية كبيرة ، وللأدب قيمة كبرى في تلك
العصور لأنه يعين على فهم الدين ويساعد على تكوين ذوق لغوي مستقيم ،
ولا تكاد نعرف علما من علماء مصر والشام في هذا العصر إلا وله إلمام
بالأدب وذوق كبير فيه ، فإن دقيق العيد كان يحفظ في الأدب « زهر
الأدب » (١) ، وكثير من علماء هذا العصر كانوا ينظمون الشعر الجيد
وينشرون الرسائل البليغة .

أما علوم الهندسة والرياضة والكيمياء ، فكانت تدرس في حلقات
خاصة في المنازل لا في المساجد ، وأما الفلسفة والمنطق والعلوم العقلية فقد
كانت مكروهة ، وبمثل ذلك نفى ابن الصلاح (- ٦٤٣ هـ) بحدودها ، يقول
جولد زيهر : وليست فتوى ابن الصلاح هذه إلا تعبيراً عن الرأي السائد في

(١) ٢١٠ الفلاح السعيد للأدب .

البيئات النشئة في مناطق واسعة من العالم الاسلامي في ذلك العصر (١) ، ويروي الأدق في كتابه « الطالع السعيد » أنه لم يصل على قريب له لأنه كان يقرأ الفلسفة وكتبها (٢) .

الأزهر الشريف وأثره في اللغة والأدب :

كان للأزهر الشريف — جامعة الاسلام الكبرى — أثره الكبير في هذا العصر في اللغة والأدب وعلومها ، فضلا عن أثره الديني والروحي فقد كانت تدرس في حلقاته علوم اللغة والبلاغة والأدب ، وقد أعاد السلطان الظاهر بيبرس الدراسة به عام ٦٦٥ هـ ، بعد أن كانت معطلة فيه أيام الأيوبيين نحواً من مائة عام ، ولزدهرت فيه البيئة الجامعية العلمية في عصر المماليك ازدهاراً كبيراً ، فقصده الطلاب من كل مكان في العالم الاسلامي ، وانقطعوا في حلقاته لطلب العلم والتمسك في علوم الدين والأدب واللغة ، وكانوا يمدون الرعاية والعون والتشجيع من المماليك ، وأنشئ لكل إقليم إسلامي رواق خاص بأبنائه حول الأزهر الشريف ، وكان من الطلاب أفواج كثيرة من الحجاز واليمن والشام وبلاد الترك والفرس والمغربي والسوداني وشرقي إفريقيا وغيرها من شعوب الإسلام ، الذين أقبِلوا على حلقات الدراسة بعزم قوي وحمية شماء ، وتخرجوا منه وهم متمسكون في الدين ، راسخون في علوم العربية وآدابها ، ورحلوا إلى بلادهم ينشرون هذه الثقافة الاسلامية العربية بين أممهم ، وينفخون بدكر مصر وأزهرها وحلقات العلم فيها ، وكانت مصر في هذا الزمن تعد مصدر الثقافة والنور والعرفان ، ومركز علوم الاسلام ومعارفه .

(١) ١٥٨ - ١٦٢ التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية .

(٢) ٧٥ الطالع السعيد .

وكان من علماء الأزهر الشريف في هذا العصر طائفة من الأعلام المشهورين ،
الذين بنوا للثقافة الإسلامية والعربية مجداً لا يبلى .

من تاريخ الأزهر :

أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقلي قائد الخليفة الفاطمي للمزدين الله
بعد فتحه مصر بنحو عام ، وقد شرع في بنائه يوم السبت لست بقين من شهر
جوادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ - ٩٧٠ م ، ويدكر بعض المؤرخين أنه شرع في بنائه
في يوم السبت الرابع من شهر رمضان في العام نفسه . وقد كفل بناؤه لسبع
خلافون من شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ - ٩٧٢ م وكان الغرض
من إنشائه أن يكون رمزاً للسيادة الروحية للدولة الفاطمية - ومتمجراً للدعوة
التي حملتها هذه الدولة الجديدة إلى مصر .

وقد أطلق على هذا المسجد اسم الأزهر نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء
التي ينسب إليها الفاطميون ، أو لأنه كان يحيط به قصور نخبة تسمى
بالقصور الزهراء ، أو لأنه كان يظن أن هذا الجامع أكثر الجوامع فخامة
ورواء ، أو للتفاؤل بأنه سيكون أعظم المساجد ضياءً وقوراً . . وقد احتفل
بافتتاحه في أول جمعة من رمضان سنة ٣٦١ هـ .

وأصبح هذا الجامع مسجد الدولة الرسمي ، وقد حرص وزير المعز يعقوب
ابن كلس على أن يقيم حلقة علمية في الأزهر ، حيث كان يقرأ على الناس فيه
في مجلس خاص يوم الجمعة مصنفاته في الفقه الناطقى ، كما كان يجتمع يوم
الثلاثاء بالنقهاء وجماعة المتكلمين وأهل الجدل ، وحرص الخليفة كذلك على
تشكيل كبار العلماء بإقامة حلقات علمية في أروقة الأزهر لتدريس الفقه

الناظمي ، وكان يتمتع مرتبات شهوية . . ولهذا صار الأزهر جامعة علمية مستقرة ، وذلك عام ٣٧٨ هـ - ٩٨٨ م حينما استأذن ابن كلس الخليفة المرز بالله في أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس في كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ، وكان عددهم ٣٧ فقيهاً .

وفي عام ٣٨٠ هـ - ٩٩٠ م رتب المتصدرون لقراءة العلم بالأزهر . وبذلك صار الأزهر معهداً جامعياً للعلم والتعليم والدراسة . ومن هذا التاريخ يبدأ الأزهر حياته العلمية الجامعية الصحيحة .

وقد استمرت الحركة العلمية والدينية في الأزهر قوية مزدهرة في عهد الفاطميين الذين وقفوا عليه الوقوف وأحاطوه بالرعاية ، وكان في مقدمة الأساتذة المدرسين في الأزهر بنو النعمان قضاة مصر .

ولما قامت الدولة الأيوبية في مصر عام ٥٩٧ هـ . على يدي مؤسسها الأول السلطان صلاح الدين الأيوبي ، محامن مصر المذهب الناطلي وأحل محله المذهب السني ، وغالى الأيوبيون في النضاء على كل أثر للشيعه وأفتوا بإبطال إقامة الجامعة في الأزهر . . فلبثت معطلة فيه هي وحلقات الدراسة نحو مائة عام ، تقضى الأزهر هذه المدة في ركود طويل .

وفي عام ٦٦٥ هـ أعيد افتتاح الأزهر لصلاة الجامعة في عهد بيبرس الذي شجع العلم فيه هو والأمراء والنواد ، ووقفوا عليه الأوقاف العائلة . . واستمر الأزهر يؤدي واجبه الديني والعلمي في عهد المماليك وعهد الدولة العثمانية وعهد النهضة المصرية الحديثة .

وأول شيخ تولى مشيخة الأزهر كما يدعنا التاريخ هو الشيخ انحرشي للمسكي

المشرف عام ١١٠١ هـ . وتولى بعده السكاكير من «شايخ الأزهر» حتى بلغوا اليوم ٤٥ شيخاً آخرهم شيخ الأزهر الحالي الشيخ جاد الحق .

ثم جاء عهد محمد علي وأسرته فانتقصت أوقاف الأزهر وحقوقه ، ولكنه ظل يؤدي واجبه العلمي والديني بنشاط كبير . ومن الأزهر كان طلبة البعث الذين بعث بهم محمد علي إلى أوروبا وعادوا إلى مصر ينشرون العلم والمعرفة والنهضة في كل مكان . وكانت كل المدارس التي أنشأها محمد علي تأخذ طلبةا من طلبة الأزهر الشريف . ولما أنشئت دار العلوم عام ١٨٧١ م ومدرسة القضاء الشرعي عام ١٩٠٧ م استمدتا طلبةا من الأزهر . وكان مدرسو الدين واللغة العربية في جميع مدارس الدولة ومعاهدها من خريجي الأزهر الشريف . وكذلك كان طلبة مدرسة الحلين الأولية وأساتذتها .

وتدقأم الأزهر بنشاط كبير . وأسهم بتضيق ضخيم من الجهاد الوطني في جميع المواقف القومية الوطنية فهو الذي قاوم الاحتلال الفرنسي لمصر وهو الذي غدى ثورة عام ١٩١٩ م . وله في كل موقف وطني جهاد مذكور . مشكور .

ومنذ آخر القرن التاسع عشر إلى عصرنا وضعت قوانين منقظمة لشئون الأزهر . ومن أشهر هذه القوانين قانون عام ١٩٣٠ م بإصلاح الأزهر الشريف وآخر هذه القوانين قانون عام ١٩٣٦ الذي يدير الأزهر عليه اليوم في نقابته الجامعي والعلمي . وفي تقسيمه إلى معاهد وكليات .

فضل الأزهر على العلوم والآداب :

عمل الأزهر لواء المعرفة في مصر وفي الشرق الإسلامي قرونًا متعلة وحفظ

التراث الإسلامي في الدين واللغة، والعلوم، ونشره على الأفاق حيلة ألف سنة أو يزيد، وقد تخرج فيه أنماج من العلماء خلال عصور التاريخ ممن انتشروا في بقاع الأرض وحملوا معهم مشاعل المعرفة والثقافة التي تزودوا بها في الأزهر، فأضاءوا الأرض علما ونورا ورشادا، كما تخرج منه الأدباء والكتاب والشعراء والمعلماء في كل عصر وكل جيل.

والأزهر هو الذي حفظ العلوم الإسلامية واللغة العربية من الضياع والاندثار، وهو الذي حفظ للأدب العربي، في شتى بلاد العروبة، رونقه وبهاءه. وما يزال حتى اليوم كعبة العلوم والآداب، ومعدن آمال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

أثر الأزهر في التوجيه الديني :

والأزهر منذ أنشئ حتى اليوم هو الذي يقوِّي قيادة الحركة الدينية في العالم الإسلامي، وآراء شيوخه هي الحجة القوية التي يقابلها السلفيون في شتى بقاع الأرض بالطاعة والامتثال والقبول، وقد خرج الأزهر الكثير من رجال الدين منذ أنشئ إلى اليوم، وخريجوه هم الذين تولوا قيادة الحركة الدينية في كل مكان من بلاد العالم الإسلامي.

مكانة الأزهر في العالم الإسلامي

ولقد ورث الأزهر الحديث ميراثا روحيا وثقافيا ضخمًا جليلًا عن الأزهر القديم، تورث عنه الرسالة الدينية التي قام منذ أن أنشئ لحل أمانتها، والتي أخذها بكتابته يديه ليؤفيها إلى العالم شعلة مضيئة هادية، ومثلًا إنسانيًا رفيعًا،

ومذهبا فكريا قادرا على قيادة الحياة والبشرية جميعا إلى السلام والإخاء والأمن والرفاهية .

وورث عنه الرسالة الثقافية ، التي جهاد من أجلها أجيالا طويلا ، والتي قامت عليها أدوقته ومحاربه وقبائه ومكذاته الشتم ، ودأبت على السكتاج في سبيلها حلقاته الطاعرة ، التي تجمع فيها شباب المسلمين - من شتى الأنفطاز والشعوب - على كلمة الحق والتقوى والمعرفة ، استجابة لأمر الله ، وتحقيقا لفكرة الإسلام ، وسعيا وراء الحقيقة التي هي أكبر محرر للأمم ، والجماعات والأفراد ، من أغلال الجهل والجهود والتأخر .

وعاشت حلقات الأزهر الجليلية طويلا خلال الأجيال الماضية ويومئذ تحمل من العالم الإسلامي رسالة الإسلام الروحية والدينية والثقافية ، وتؤديها ناصحة بيضاء كخيوط الفجر ، مشرقة «أدبة كضوء الشمس» ، ومن هذه الحلقات تخرج زعماء العالم الإسلامي في القديم ، وكلنت عن جلوده بنابة «صنع يصنع الرجال والأبطال» ، ممن قادوا الشعوب الإسلامية إلى النهضة والحضارة والعزة ، مما جعل الأزهر مكتبة كبرى بين المسلمين .

مواقف خالدة للأزهر :

قاد الأزهر في القديم ثورتين كبيرتين تعدان من أسبق الثورات الدستورية العالمية : قاد إحداهما عام ١٢٠٠ هـ - يناير ١٧٨٩ م للشيخ البدوي ، وقاد الأخرى عام ١٢٠٩ هـ ١٨٩٤ م شيخ الأزهر في ذلك الوقت الشيخ عبد الله الشرفاوي ، وكسب الشعب المصري حين الثورة الأولى مبدأ «دستورية جليلا» ، بوجود احترام الحاكم لإدارة الحكوميين ، وكسب من الثانية مبدأ

آخر هو أن الأمة تصدر السلطات ، وكانت بمثابة إعلان لحقوق الإنسان ،
ووثيقة مؤيدة في سبيل التحرير ، سبق بها شعب مصر غيره من الشعوب ،
كما اعترف بذلك المؤرخون من الغرب والتربويين .
وقد حمل علماء الأزهر عبء الجهاد لتحرير مصر من الاحتلال الفرنسي
منذ أن دخل نابليون الأرض الوطن عام ١٧٩٨ .

ولا تنسى كذلك أن الأزهر قام بثورة ثالثة في صدر عام ١٢٢٠ ١٨٠٥ م
لإنهاء النفوذ التركي من مصر ، ولكن دجالاً سياسياً يارعا يتدفق في أعصابه
الدم التركي استطاع بدهائه أن يحول الحركة إلى مقام شخصية له ولأسرته
التي حكمت مصر إثر ذلك نحو قرن ونصف من الزمان .

وكان قائد الثورة المصرية الرابعة كذلك أزهرياً صمياً ، هو الزعيم الوطني
القائد « أحمد عرابي » الذي قاد الثورة العرابية للقضاء ، على نفوذ المستعمرين
من الإنجليز ، والمستقلين من الإنجليز .

كما كان زعيم الثورة الشعبية الخامسة أزهرياً صمياً هو المرحوم سعد زغلول .
الذي كان يعمل للقضاء على الاستعمار الإنجليزي . تحرير شعب مصر
من أغلاله .

الأزهر والتجديد :

ولقد تطورت البيئة الثقافية في الأزهر في العصر الحديث : بتأثير الحضارة
الفكرية الغربية ، وبفضل نهج من علماء الإعلام لطلالدين .

ومن الحق أن الأزهر منذ بدء القرن التاسع عشر كان يطلع إلى الحياة

الغرب وحضارته في شيء من القصور والكراهية ، إذ إننا بتومية المسلمين السياسية والفكرية والثقافية ، ولكنه لم يحدد فكرة الدعى إلى النهضة ، أو الإيمان بالتطور ، إنساناً بعض أبنائه في منظمات حكومية إلى باريس ولندن وسراهما من عواصم الغرب ، وكان من أشهرهم دفاة العلمطاوى .

وتطلع بعض علمائه في أواخر القرن التاسع عشر إلى معرفة بعض اللغات الغربية لدراسة أصول حضارة الغرب الحديثة الفكرية والثقافية ، ولورد على ما يذكره بعض الغربيين حول الإسلام من شبهات ، وكان في مقدمة هؤلاء الإمام محمد عبده ، الذى كان رائداً أزهرياً للفكر المصرى في العصر الحديث . ولقد نهض شيوخ الأزهر منذ أواخر القرن التاسع عشر بمعب إصلاح البيئة الثقافية داخل الأزهر ، وبعث روح التجديد والحياة في حلقات الأزهر العلمية ، لتتكون على صلة بنتاج الفكر الحديثة المتدفقة .

وفي الحق أن الأزهر المحافظ المتسكك بتقاليد وشمايره ونظمه وحياته الثقافية كان أرحح كفة من عوامل التجديد ، وتيارات التجديد .

ومنذ أكثر من ربع قرن من الزمان ، أو بالتحديد في مايو سنة ١٩٢٨ تولى مشيخة الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراشى وهو تلميذ من تلامذة الإمام محمد عبده ، ولكنه ما لبث أن استقال منها في أكتوبر سنة ١٩٢٩ ، وخلفه الشيخ محمد الأحمدي الطواهرى ، ثم عاد الشيخ المراشى إلى المشيخة في ٢٦ أبريل سنة ١٩٣٥ ، وظل فيها إلى أن توفى في ٢٢ أغسطس ١٩٤٥ .

وعلى يدى الشيخ الطواهرى تحول الأزهر إلى جامعة علمية لها كليات ثلاث : هى الشريعة والفقه وأصول الدين ، ومنها أقسام الدراسات العلمية ذات نظام

على جامعي ، ولكن أثر ذلك لم يظهر إلا في عهد الشيخ الراجحي وعلى يديه وبتشجيعه ورعايته ، فكان يشرف هو ومعاونوه من شيوخ الكليات الأزهرية على نظم هذه الدراسات ، ويشترك في امتحاناتها ومناقشات رسائلها ، ويدعى شريحي هذه الأقسام ويضعهم في منازلهم العلمية في كليات الأزهر . وبذلك صار الأزهر يخضع في حياته الثقافية الجديدة للنظم الجامعية الصحيحة . هذا عدا ما صنع الشيخ من تقدير الكتابات العلمية ، ورعاية البحث الثقافي الحر في داخل الأزهر ، فصنع بذلك نهضة ثقافية جديدة بالتأمل والتقدير .

هذا هو الأزهر أعرق الجامعات العلمية في العالم ، وأطولها عمراً وأجلها أثراً في تاريخ الفكر العربي الإسلامي ، بل في تاريخ العالم كله ، ولقد كان الأزهر طوال عصور التاريخ سارس التراث العربي وحامل مشعل الثقافة الدينية ، وللأثر الذي تهوى إليه أفئدة المسلمين من كل مكان ، والضوء ينير لهم الطريق ، ويبصرهم سواء السبيل . وللأزهر مكانة كبرى في مصر والعالم الإسلامي جميعه : وآراؤه ومتأوى علمائه تقابل من كل مسلم في العالم الإسلامي بجزء من التقدير والاحلال والعناية ، ولم تقم في مصر جامعة علمية بالمعنى الصحيح قبل الأزهر ، الذي له تاريخ طويل وذكريات مجيدة وآثار علمية جديفة عديدة .

١ — المؤلفات والتأليف

كانت أفظم تطلُّب من مخطَّطو تهرنض اللغة العربية وأدائها في أعقاب العصر كثيرة ما ألف فيه من مؤلفات في مختلفه الفنون والعلم ، والدل من أساليب ذلك ازدهار أبهى كماله ، وكثرة المداير من الإزدهار والقصور والأسكندرية وقروص وفورها بالطلوب ، وزخابة بطن سلاطين الممالك في إقصاء الكتب النادرة ، وإنشاء المطابع الخاصة بملفئة لأواع تدعى من المؤلفات ، تحل في بعض الكتب كان يؤلفها خاصة باسم السلطان ليوضع في خزائنه .

وهذه الكتب جلتها بجل جارية فكرياً جديدة كقصة ابن خلدون ، والبعض يعمل لواقعة صغيرة من جوانب البحث العلمي كخطب القرطبي وتاريخ ابن خلكان ، والبعض تشيع فيه الصفة القليلة على مؤلفات هذا العصر ، من الجمع والرواية والقوالب والاختصار ، وأما في هذا اللون كثير .

٢ — أشهر مؤلفي هذا العصر

١ — في علوم الدين : أشهر في هذا الباب كثير من المؤلفين ، من أشهرهم ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) ، وبلغت مؤلفاته نحو ثلاثمائة مجلد ، أكثرها في التفسير والفقه والأصول ، ومنها : فتاوى ابن تيمية — وكذلك من المؤلفين أحمد بن محمد القسطلاني القلاوي (٨٥١ - ٩٢٣ هـ) ، ومن أشهر كتبه « إرشاد الساري إلى شرح البخاري » وهو مشهور بشرح القسطلاني ، في عشرة مجلدات .

٢ — العلوم العقلية — ، وأشهر فيها ابن النفيس ٩٩٧ هـ صاحب كتاب

« المختار من الأغذية » وكان ابن النفيس شيخ الأطباء بمصر ، ومنهم ابن الشاطر م ٧٧٧ هـ وله مؤلفات في الجغرافيا والرياضيات - وابن الهيثم م ٨١٥ هـ صاحب كتاب مرشد الطالب في الحساب ، والدميري م ٨٠٨ هـ صاحب « حياة الحيوان الكبرى » .

٣ - تقويم البلدان والرحلات واشتهر من المؤلفين فيها أبو القدا م ٧٣٢ هـ مؤلف كتاب تقويم البلدان ، والدمشقي م ٧٢٧ هـ مؤلف كتاب « نchie الدهر في عجائب البر والبحر » ، وطبع في أوروبا ، وكذلك ابن ماجد النجدي ، وهو ملّاح عربي ألف عام ٨٩٤ كتابا في مبادئ الملاحة بعضه مفلوم وبعضه منشور ، ويقال إن ابن ماجد هو الذي أرشدنا فاسكو دي جاما إلى طريق رأس الرجاء الصالح الذي يضل به المسافر حول أفريقيا إلى شواطئ الهند ، ومن أصحاب الرحلات : ابن بطوطة المتوفى بمراكش عام ٧٧٩ هـ . وكتابه « رحلة ابن بطوطة » يدرن فيه رحلاته في العالم الإسلامي ، وأهم الكتابات تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وللقزويني م ٦٨٢ هـ كتاب عجائب المخلوقات وهو نفيس ومهم للباحثين في جغرافية العالم الإسلامي القديم .

٤ - في التاريخ : وأشهر المؤلفين فيه شمس الدين بن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١ هـ) صاحب كتاب وفيات الأعيان ، وهو معجم تاريخي يدل على ابتكار وتحقيق وضبط وروية ، وبعد مرجعا في اللغة والأدب والتاريخ ، وابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) صاحب كتاب « العبر » ، وفقى الدين القرطبي وقد ولد في القاهرة عام ٧٦٦ هـ ، واشتهر بسعة اطلاعه في التاريخ ، وألف فيه مؤلفات كثيرة أشهرها كتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطايا والآثار » وقد جعل

فيه وصف المخطط والمباني والبلاد المسرية ذريعة إلى الإفاضة في تاريخها وتاريخ مؤسسيها وما توالى عليها من حوادث ، وله في أثناء ذلك بحوث اجتماعية تدل على تفكير بعيد المدى ، وهذا الكتاب هو عمدة الباحثين في الأحوال السياسية والاجتماعية في مصر لذلك العصر ، وتوفي المقرئ عام ٨٤٥ هـ

ومن أشهر كتب التاريخ أيضا الرواق في الوفيات للصفدي م ٧٦٤ هـ ويقع في خمسين مجلدا ، والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للسخاوي م ٩٠٣ هـ والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر م ٨٥٢ هـ

ومنها كذلك : المختصر في أخبار البشر لأبي النداء صاحب حاة م ٧٣٢ هـ ، وللبداية والنهاية لابن كثير (٧٤٢ هـ) ، وسواها .

• — كتب قصصية : وقد ظهرت كتب كثيرة في هذا العصر ، في القصة ، من أشهرها : ألف ليلة وليلة ، وقصة عنتره ، وسيف بن ذي يزن ، وقصة الظاهر بيبرس وهي تتضمن حروبه مع الصليبيين ، وقصة أبي زيد الحلال ، وسواها .

وقد ظهر في القرن السابع الهجري فن خيال الظل ، وهو بداية صالحة للتدرج إلى القصص التخيالية ، وإن كان لم يدخل عليه تغيير يسير به إلى النهضة والتقدم وظلت اللغة العربية وآدابها خالية من الأدب التخييلي حتى العصر الحديث . ، ومن ألف في خيال الظل ابن دانيال المصري م ٧١٠ هـ وله كتاب « طيف الخيال » الذي يتحدث فيه عن لعبة خيال الظل وهو يشبه الرواية الهزلية ، ويتضمن كثيرا من صور المجون وقد ظهر السرح الشعبي في صورة متطورة له .

ألف ليلة وليلة :

ألفه قاص مصري ، وله جته تغلب عليها العامة السرية وأكثر مواضعه
مصرية ، ويخطئ في تحديد الأماكن حين يذكر العراق وسواها ، وفي
حكاية البنات مع الحمال والصائيك الثلاثة يرد اسم « الشاطبية » ، وهي
لشاطبي المتوفى سنة ٥٩٠ هـ وفي حكاية مزين بغداد يرد ذكر سنة ٧٦٣ هـ ،
وفي بعض النسخ ترد سنة ٦٥٣ هـ ، ويرد ذكر مفردات « ابن البيطار » فيه (١)
كما يدل على أن الحكاية كتبت بعد منتصف القرن السابع ، ويرد فيه ذكر
قبر الشيخ عبد القادر الجيلاني (٢) مما يدل على أن القصة كتبت بعد سنة ٥٦١ هـ
ويرد فيه أيضا ذكر سنة « إحدى وعشرين وخمسة (٣) » والتاريخ الذي استقر
فيه الكتاب على صورته الحالية هو ما بين عامي ٩٢٣ و ٩٣٣ هـ . ووردت في
الكتاب ألفاظ عثمانية وقد استولى العثمانيون على مصر عام ٩٢٣ هـ ، وذلك
مثل الأتندي (٤) وغيلون التينغ (٥) والمذمق (٦) .

وفي الكتاب كثير من الأخطاء التاريخية وسواها ، ففي الجزء الثاني
ص ٣٨٠ (٧) : حكاية جرت بين الرشيد وابن الفارابي وما هي إلا قصة
فاين العازلي مع المعتضد بالله كما رواها المسعودي ، وفي ص ٣٣٨ و ص ١٣٤ :
(زبيدة بنت القاسم زوجة الرشيد السادس من بني العباس) . وهي بنت

(١) ٢٧٢ : ١ (٢) ٢ : ١٣٥ و ١٣٨ (٣) ٢ : ٤٠٨

(٤) ١٤٢ : ٣ (٥) ٤ : ٤٥٥ (٦) ١ : ٨٩

(٧) طبعت في مطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٥ وصححها الرحوم الشيخ

محمد عبد الرحمن الشوبر بقوله المدوي م ١٢/١ هـ عن نسخة بولاق .

جعفر ابن أبي جعفر المنصور ، والرشييد هو الخامس لا السادس . ومهما كان فإن هذا الكتاب قد ظهر في هذا العصر في صورة نهائية كاملة باسم كتاب ألف ليلة وليلة ، وقد نال هذا الكتاب شهرة عالمية ، وتمت كثير من القراء ، واجتذب بقوة تأثيره وروعة خياله الأوربيين ، وربما كان هو الذي أوجى إلى بعض كتّاب الأقاصيص في الغرب المشهورين بالإغراق في الخيال بكثير من الصور الخيالية الرائعة ، وليس عجيب أن يفرح أهل الغرب بهذا الكتاب لأنه يجرى في أقاصيصه على سنن شائق جذاب . وأكثر ما تظلم فيه المهارة في حيك القصة . وتخلق الزوايف المعلقة التي تطيع وجوه الحيلة في حلها ، ثم العمل على الخروج من هذه السأري في لطف وحسن تعرف حتى ، نقدا إلى إبداع في الوصف وإبعاد في الخيال . وهو وإن وضع في أول أمره للتسلية والترويح عن النفس لا يخلو من سكة تصاق إليك . وهو غفلة تصل إلى قراءة نفسك ، ودراسة عامة لأحوال الحياة ، واغترق بين حكائيات ألف ليلة وليلة والروايات الأوربية أن الكتّاب لألف ليلة كان كثير المبالغة والإغراق ، وأنه أهم بالأحوال الظاهرة وقصر وصفه على الخمس المشاهد ، ولم يعمد إلى تحليل النفوس ، ولم يتغلغل إلى أسرار الطوائف ، ولم يكن عناية مقصودة بدراسة الأخلاق ، بخلاف الكتّاب الأوربي فإن الدراسة النفسية أساس قصته وعمادها في أغلب الأحوال ، وهو يستمر في قصته على سنن واضح من الطبيعة من غير إسراف . ومصدر هذا الكتاب لا يزال محاطا بالشكوك ، والأقرب إلى الحق أنه من أصل فارسي قديم ، وأن منشأه كتاب جزائر أفسانه (ألف حكاية) . وبه كثير من حكائيات هذا الكتاب ، وقد أضيف إلى الأصل الفارسي نوادر كانت توضع على مر الأيام ، فالكتاب إذا لم يوضع في عصر واحد ،

ولم يصفه مؤلف واحد وأول من ترجم هذا الكتاب لأوروبا جالند^١
(١٧٠٤ - ١٧١٧) .

٦ - في علوم اللغة : نبع كثير من المؤلفين في علوم اللغة ، منهم
ابن مالك الطائي (٦٠٠ - ٦٧٢ هـ) صاحب الألفية ، وجمال الدين بن مكرم
المصري المعروف بابن منظور صاحب لسان العرب ، وجمال الدين بن هشام
المصري صاحب كتاب « منى اللبيب من كتب الأعراب » وتوفي عام
٧٠١ هـ ، والقيروز أبادى عام ٨١٧ هـ صاحب التاموس المحيط ، والسجوطي ،
وأشهر كتبه المزهري في فلسفة اللغة وله كتاب الأشباه والنظائر في النحو .

٧ - علوم البلاغة :

بينما كانت علوم البلاغة في الشرق الإسلامي تدرس بطريقة جدلية تعتمد
على المنطق والعلوم العقلية ، ويقتضى العلماء فيه من طريقة السكاكي م ٦٢٦ هـ
منهجاً ومنهجاً لم في التأليف البلاغي ، يميزون عليه ويتحزون نحوه ، كما فعل
النسفي م ٧٩٢ هـ والسيد م ٨١٩ هـ ، وسواهما . كان العلماء في مصر والشام
يؤلفون في البلاغة على منهج البلغاء والفتاد وأهل الذوق الأدبي المطبوع ،
ومن ثم وجدنا شهاب الدين الحلبي في « حسن التوفيق في صناعة القوسل »
يقول في طريقة الشرقيين : « وعلوم البلاغة فإن لم يفتقر إليها ذو الفهن
التأقب والطنع السليم والفرجة الطاووعة ، والفكرة المستقيمة والبديهة الحبيبة
والروية المتصرفة ، لكن العالم بها متمكن من أزمة اللغوي وصناعة الكلام ،
فهذا هو السر في مجيئ الكتب في هذه العلوم مستقلة العبارة بحسرة الفهم ،
تجري في تفسيرها وترتيبها على طريقة المنطق ، وتسير على نهج الفلاسفة » .

وهي أبعد ما يكون عن الذوق العربي والفهم القطري ، ويقول البهاء السبكى
المصرى في كتابه « عروس الأفراس في شرح تلخيص المفتاح » : أما أهل
بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طيعهم الله عليه من الذوق السليم والفهم المستقيم ،
والأذعان القى هي أرق من التسميم ، أكسبهم النيل تلك الخلوة ، فهم
يدركون بطلبهم ما أفنت فيه العلماء - فضلا عن الأغمار - الأحمار ، ويرون في
مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب عن الأسرار خلف الستار ، والبهاء عاش
في القرن الثامن وتوفي عام ٨٧٧٣ هـ . ويقتصر السيوطى بأنه 'درس' البلاغة
على المذهب المصرى فيقول عن نفسه : وقد رزقت التبهر في سبعة علوم :
التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبدیع على طريقة العرب
والبلغاء لا على طريقة المعجم وأهل الفلسفة (١) . ونقل السيوطى عن شيخه
محمد الكافيجى أنه قال عن السيد وقطب الدين الرازى إنهما لم يذوقا علم العربية
بل كانا حكيمين (٢) ، ومن أعلام المؤلفين في البلاغة في مصر والشام في هذا
العصر : الخطيب الدمشقى صاحب كتاب الإيضاح في علوم البلاغة .
وشهاب الدين الخليلي ، وبهاء الدين السبكى ، وعبد الرحيم البهاى
والسيوطى والجزوى ، وسوام .

وقد عتقوا بالكفاية في البدیع خاصة وجملوه من جملة علوم الأدب
الشعرية (٣) . أما ابن أبى الأصبع المعروف عام ٦٥٤ صاحب كتابي : بدیع
القرآن ، وتحرير التحرير ، وابن الأثير م ٦٣٧ م صاحب كتاب « النمل

(١) ١ : ١٤١ حسن المحاضرة :

(٢) ١ : ١٦٧ مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده .

(٣) ٥٠٧ مقدمة ابن خلدون .

السائر » ، فهما من الذين كتبوا في البلاغة في العصر الأيوبي ، وكذلك ابن شيت المصري ، ولابن شيت هذا ، عبد الرحمن بن علي ، كتاب عنوانه « معالم الكتابة ومفاتيح الإصابة » . .

٨ — علم الأدب وقد ظهرت مؤلفات كثيرة في الأدب شعره ونثره ، ومنها : نصرة التأثر على التل السائر للصفدي م ٧٩٤ هـ وهو نقد لكتاب التل السائر الذي ألّفه ابن الأثير ، وصبح الأشتي ، ونهاية الأرب ، وخراتة الأدب للنعماني وثمرات الأوراق لابن حجة ، وسواها . بالإضافة إلى دواوين الشعراء ورسائل الأدباء ، وما ألف في تراجم الأعلام ، وأغلبهم من أولي الأدب ، ويبدو أن مقامات الحريري كانت مادة للتأدين في هذا العصر ، يحفظونها ويتداولون أساليبها ؛ لذلك نجد النعماني م ٧٠٦ هـ يتقد في كتابه « الآداب السلطانية » عادة عصره في تعريض المتعلمين على حفظ المقامات ، ويرى إنها إن نفعت من جانب اللغة أضرت من جانب الأخلاق لما تحويه من عوارض الكدبة والجيل في الاستجداء ، مما يصغر الحجم .

٩ — موسوعات جامعة : علم كثيرة وستتناول أهمها هنا بالدراسة والتحليل . . وخاصة أن الكثير من هذه الموسوعات إما مصادر للأدب ، أو كتب تخدم الأدب في هذا العصر .

ومن أمثال هذه الموسوعات الجامعة : حياة الحيوان الكبرى للدميري ، والمستطرف للإبشي ، وحبلى الكهيت للنواجي القاهري م ٨٥٩ هـ وخراتة الأدب لابن حجة الخوي م ٨٣٧ هـ ، وكثيرا من الكتب الأخرى التي تعرض بعضها منها الآن :

صبيح الأعشى في صناعة الإنشاء ٢

١ - وهو مرسوعة لدية كبيرة مؤلفه هو العالم المصري الذائع الصيت
 الفقيه الكاتب ، المؤرخ الحافظ ، الأديب الناقد . أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي ،
 ثم القاهري ، الشافعي ، المولود بقية قلشندي بمديرية القليوبية سنة ٧٥٦
 ولحقه سنة ٨٣٠ هـ وقد نشأ للقلشندي نشأة هروية بمقدار ما يسمح به زمانه
 في عصر المماليك . وهو من أصل عربي صميم من بني بدر بن فزارة ، وقد نزحوا
 مصر مع العرب الذين وردوها حين الفتح وبعده ، فاستقروا بإقليم القليوبية
 ويقول القلقشندي عن نسبه في كتابه هذا : ويقر بدم قصبتها التي تسمى :
 ونفها تنصب ، وأهل بلنتها (قلشندي) بعضهم من بني بدر ونسبهم من بني
 مازن من فزارة . عثر في عصر المماليك للذي تحدثت عن معالم الأدب فيه
 وأجبه القلقشندي إلى طلب العلم ناشيا بالأسكندرية دون القاهرة وبها الأزهري
 أكبر معهد في مصر « إلى في الشرق » بل في الدنيا آنذاك ، فعملها
 ضرورات العيش ، وقاريف الحياة . ولقد وجد في الأسكندرية لمساندة
 أجلاء كثيرين أخذ عنهم ، وأعانته على بلوغ الناية ما كان يحتاج به من قوة
 الحفظ ، وتقريب الذهن ، وللاشارة على السهل ، حتى أجيز وهو في
 الواحدة والعشرين بالفتيا والتدريس . ثم اختير في ديوان الإنشاء في سنة ٨٧٩
 أي في عهد الدولة البرقوقية ، وله من المؤلفات في اللغة : كتاب النيوث
 المولم ، وفي التاريخ : خلاصة الجملان في التصريف بقبائل عرب الرمان ، ونهاية
 العرب في معرفة قبائل العرب . وقد حطت في بغداد ، وفي الإنشاء :
 صبيح الأعشى : ورسلته في الفلانة بين السيف والقلم ، وأخرى في الفلانة
 بين الملوحة .

٢ — وصيح الأعشى هذا مبني على الإنشاء ، وأهوائه ، وشروطه ، وما يحتاج إليه للكاتب من علوم أدبية وتاريخية ، واجتماعية ، وقد طبعت دار الكتب المصرية في أربعة عشر جزءا ، وقد ذكر مؤلفي مقدمته أنه رتبها على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة ، وجعل المقدمة في مبدئى يجب تقديمها قبل الخوض في كتابة الإنشاء وفيها خمسة أبواب :

الأول في فضل الكتابة ، ومدح فضلاء أهلها ، ودم حقاق .
والثاني في بيان مدلولها . والثالث في صفات الكاتب ، والرائع في التعرف بحقيقة ديوان الإنشاء ، والخامس في قوانين ذلك الديوان ، وفيه مقالات :

المقالة الأولى فيها يحتاج إليه الكاتب من الأمور العلمية والعملية ، والمقالة الثانية في المسالك والممالك ، والثالثة والرابعة في وصف الكتابة في أطوارها التي مرت بها وما ظهر فيها من سجع وغيره وما التزم في بدئها وختمها من أمور اختلفت باختلاف المكتوب إليه ، وموضوع الكتاب .

والمقالة الخامسة في الولايات وأنواعها ، وفيها كلام عن البيئة والتميد ، وبيان أنواع المناصب من أصحاب السيوف والكلام وغيرهم ، وقد تناول في المقالات الباقية أموراً تشبه ما سبق من كل ما يحتاج الكاتب إلى معرفته من الاقطاعات ، وما يكتب في صورتها ، والأيمان وحكمها الشرعى ، وعقد الصلح ونسخه والهدنة وصورة ما يكتب في كل ذلك ، والكلام على البريد ، واتخاذ العرب له ، وذكر مراكزه بمصر والقمام ، وذكر حكام الرسائل ومطارقاته وأبرطيد .

٣٠ - ويقول القلقشندي في سبب تأليفه لكتاب : « إنه لما خلق بيدوان الإنشاء ، أنشأ مقامة ينشأها على أنه لابد للإنسان من حرفة يتكسب بها » ، وأن أليق صناعة بأهل العلم الكتابة ، وأن أفضل الكتابة كتابة الإنشاء ، وأنه جمع في تلك المقامة من أصول هذه الصناعة وقوانينها ما لم تقس له بطون المؤلفات الطوال في هذا الباب ، ثم مثل أن يشرحها فكان شرحها كتاب « صبح الأعشى » ، ويقع في سبعة أجزاء ضخام جدا لما قاله البخاوي واتباعه فيه للعاصرون ، وكان في دار الكتب منها أربعة واستنسخت الثلاثة الأخرى إلى التتوير من مكتبة أوكسفورد بانكلترا ، ويشتمل الكتاب على ما يأتي :

- (١) آداب الكتاب وما يجب أن يتحلوا به من الصفات .
 - (٢) ما تتطلبه صناعة الكتابة من آلات ووسائل .
 - (٣) ديوان الإنشاء وأصل وضعه في الإسلام وقوانينه ومراتب أصحابه .
 - (٤) مناصب الدولة المصرية وألقاب أصحابها ومواسم ملوكها .
 - (٥) وصف شامل للأدب في عصر المماليك وهو عصر المؤلف .
 - (٦) نماذج كثيرة من كتابات عظماء الكتاب في أزمنة متفاوتة وعلى الجملة فهو خزانة علم وأدب وتاريخ ، ولا يستغنى عنه أديب ولا مؤرخ وقد اختصر المؤلف كتابه هذا في كتاب سماه « صبح الضوء المبهر في جنى الدوح المنير » .
- ٤ - وقد خلع القلقشندي ما أمكنه بنشأته العربية الصريحة من الصناعات التي لم يسلم منها ابن السبكي وسواه ، ولا يأتي له من ذلك

إلا بعض الاستعارات المقبولة كما في وصفه لعلوم البلاغة بقاعدة عمود الفصاحة ومسقط حجر البلاغة ، والصيغ المقبولة في قوله : غالب في الكلام أن يعلم سبب تحسينه ، وتمايل مراد تبكيته ، والطباق الطبع في مثل قوله : ومجابه عن العلة في إعطاطه وارتقائه ، ويذكر المعنى في ارتقائه من حضيض القول إلى إيقاعه.. وكل أولئك لا يمنع أن أسلوبه أقرب إلى الأسلوب المرسل المحرر من الصنعة والتكلف ؛ وهذه فضيلة ومنقبة تبين عن رسوخ قدمه في الإنشاء وتقديمه للمعاني على الألفاظ .

• — وللقلمشندى فعل ذكره في كتابه عن علوم البلاغة وفائدها :

قال :

اعلم أنه لما كانت صناعة الكتابة مبنية على سلوك سبيل الفصاحة ، واقتضاء بسنن البلاغة وكانت هذه العلوم هي قاعدة عمود الفصاحة ومسقط حجر البلاغة اضطر الكاتب إلى معرفتها والإحاطة بمقاصدها ليتوصل بذلك إلى فهم الخطاب وإنشاء الجواب جازياً في ذلك على قولتين التامة ، في التركيب مع قوة المللكتة على إنشاء الأقوال المركبة المتأخوذة عن الفصحاء والبلغاء من لفظ الرسائل والأشعار من جهة بلاغتها وخلوها من اللكنة وتأدية المطلوب بها ، وتكجيل الأقاويل الشعرية ثراً كانت أو نظماً . في يلوحها غائبة ، وتأدية ما هو مطلوب بها ، وأنها كيف تتعين بحسب الأغراض . لتتقيد بما يعمل بها من التخيل الموجب لانتقال النفس من وسط وقبض ، والشئ يذكره بفضله فقد ذكر الحسن بالذات والميوب بالعرض .

ومن رسالته في المناظر بين العلوم ما كتبه إلى إسماعيل بن الشعر :

(٤٢) — الحياة الأدبية في مصر .

أزاكم قد نسيت فضلي الذي به فضلكم ، وصبرتم حبلى الذى من أجله
وصلتم ، أنا حجة الأدب ، وديوان العرب ، على تردون ، وعلى تصدرون ،
وإلى تنسيرون ، وإلى تشيرون ، مع ما اشتملت عليه من المدح الذى كم دفع
وصفا ، وجلب نقما ، ووصل قطعا ، وجبر ضعا ، والمجى الذى خط قدرا
وأخمل ذكرا . وجعل بين الرفيع والوضيع فى حظيرة القدر ندبا وصهرا ،
إلى غير ذلك من أنواع الشعرية التى شاع ذكرها ، وأضاعى العاطية التى
فاح نشرها ، بل لا يكاد علم من العلوم الأدبية يستغنى عن شواهدى ، ولا يخرج
فى أصوله عن قوانينى وقواعدى ، حتى علم الترخيل الذى هو شقيق فى النسب .
وعديلى فى لسان العرب ، لم يزل أهله يطفلون على فى بيت بحارته ، ويقفون
من يدبج محاسنى عند خد لا يتدفونه .

نهاية الأرب :

١ - اختصاره « نهاية الأرب فى فنون الأدب » وهو سفر كبير فى ثلاثين
مجلداً للشهاب الدين أحمد اللؤلؤى المصرى العرفى سنة ٧٧٣ من الهجرة .
ألفت فى زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون وقد قال فى مقدمته : رغبت فى
صناعة الآداب وتملت بأهدأ وأفضلت فى سلك أربابها . فاستطعت بجلد
الطالمة وركضت فى ميدان المراجعة ، وحيث دل مركبها وصفا فى مشربها قد
آتوت أن أجود منها كتاباً أساقس به وأرجع إليه . وأجول فيها بمرصن لى
من المهمات عليه ، فاستغرت بالله سبحانه وتعالى وأتيت منها خمسة أقسام :
المن الأول : فى السماء والأرض العلوية ، والأرض والمنال السفلية ، وفيما
خلق الدنيا ، ووصف الملائكة والكواكب والسماب ، والصواعق

والنيازك ، والرعد والهواء والشار ، والأيام والأيام ، والشهور والأعوام
والقصور ، واللوازم والأعياد ، وقد اشتمل أيضا على ما في الأرض من الجبال
والبحار والجزائر ، والأنهار والغدران والعيون . كما شرح طبائع البلاد ،
وأخلاق سكانها ، وخصائصها ، والبيات القديمة ، والمعاني والقصور والمنازل .

والفن الثاني : في الإنسان وما يتعلق به ، ويشتمل على وصف طبائعه
وأعضائه وتشبيهها ، والفزل والتسبي ، والحية والحوى ، والأنساب ، وعلى
المشهور من أمثال العرب وأخبار الكهنة ، والزجر والفأل والطيرة ، والفراسة
والذكاء ، والأحاديث والالغاز ، ثم المدح والمجهر والمجون ، والتكاملات
والملاح والخمر والندماء ، والقيان ووصف آلات الطرب ، ويشمل كذلك على
بيان أحوال الملك وما يشترط فيه ، وما يجب على الرعية له وما يجب للرعية
عليه ، ويتصل به ذكر الوزراء ، وقادة الجيوش ، وأوصاف السلاخ ، وولاية
المناصب الدينية والسياسية والقبلية .

ويخصص الفن الثالث للحيوان : ففيه وصف السباع وما يتصل بها من
جنسها ، كالأسد والثور والفهد ، والكلب والذئب والضبع ، والتمبل والذئب
والهيم والخنزير : ووصف الوحوش والطيلاء وما يتصل بها من جنسها : كالغزال
والسكر كدن والزرافة ، والثور والإبل والجر الوحشية والوعول والظبي والأرنب
والنعام . . وجاء هذا الفن وصف الطيول والبنال والحيمير والإبل والبقرة والتمير ،
ووصف الطير ، كالنسر والرخم والحداثة ، والغراب والدراج والحباري ،
والطائوس والزرزور والصفا ، والعنق والمصانير .

والفن الرابع : خاص بالنبات ، وقد بين أصل النبات وما تنمى به أرض

هون أرض ، ويتصل به ذكر الأقوات ، والغضراوات والبقولات ، وأوضح في الأشجار ما لثمره قشر لا يؤكل ، وما لثمره نوى لا يؤكل ، وما ليس لثمره قشر ولا نوى . ثم اللواكح المختلفة والرياح والأزهار : وما وصفت به نجماً ونوراً .

وجاء في الفن الخامس : التاريخ والتقصص والأخبار : فيه بيان لبدا خلق آدم وحواء وأخبارهما . وأتبع هذا بتقصص الأنبياء والمرسلين . ثم بأخبار الملوك والطوائف ، وخبر سيل العرم ، ووقائع العرب في الجاهلية . وأخبار الملوك الإسلامية ، وذكر شيء من سيرة نبينا محمد صلوات الله عليه ، وأخبار الخلفاء من بعده رضي الله عنهم ، وأخبار الدولة الأموية ، والعباسية ، والعلوية ، ودول ملوك الإسلام وأخبارهم . وما فتح الله سبحانه وتعالى عليهم .

هذا طرف مما اشتمل عليه هذا الكتاب البصير . « نهاية الأرب في فنون الأدب » وقد قال فيه مؤلفه : « وما أوردت فيه إلا ما غلب على ظني أن النفوس تميل إليه . وأن القواطع تشتمل عليه . ولو علمت أن فيه خطأ لقبضت بنافي ، وغضضت طرفي » . ولقد تبع فيه آثار الفضلاء قبل ، وسلكت منهم ، فوصلت بحالهم حيلي . « إلى أن قال : « والذي أدى إلي اجتهادي من تأليفه فقد أحسنه . والذي وقفت عنده ظاني فقد أوردته . وبالله سبحانه أستعين ، عليه أتوكل . وإليه أنضرع في التيسير وأتوصل » .

خطة القريري :

اسم الكتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » وهو كتاب تاريخي شامل في تاريخ مصر وآثارها ، ويعد من مصادر التاريخ المصري المهمة .

وهو جامع جم الفائدة ، جعل فيه وجه الخطط واللباني والبلاد المصرية ذريعة إلى الإفاضة في تاريخها وتاريخ مؤسسيها . وما توالى عليها من حوادث ، وله في أثناء ذلك بحوث اجتماعية تدل على تفكير بعيد المدى ، وبالكتاب كثير من التراجم والباحث التي لا ترى في سواه ، وهو مرجع الباحثين عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية في ذلك العصر . . . ولكثرة فوائده رجع إلى عدة لغات ، وقد تسج على منواله على مبارك باشا في كتابه المعروف بالخطط التوفيقية ، وهو مطبوع في جزئين :

مقدمة ابن خلدون :

بعد ابن خلدون من أعلام الفكر الإسلامي ، وإمام المؤرخين العرب منذ القرن الثامن الهجري حتى اليوم وكان تراثه خير أسلحة تقلد عليها أعلام البيان العربي في عصر النهضة الأدبية الحديثة في مصر وسائر بلاد الشرق العربي .

ومقدمة ابن خلدون تراث جليل خالد يمتاز بالجدة والابتكار ، وهي تعد منهاجاً جديداً في فهم التاريخ وتحليله ونقده ، وفي فهم الظواهر الاجتماعية وتحليلها . . . وموضوع المقدمة ، كما يصفه ابن خلدون نفسه هو « العمران البشري والاجتماع الإنساني » . وقد تحدث ابن خلدون فيها عن : العمران البشري على الجملة وأصنافه ، والعمران البدوي ، وذكر القبائل والأمم البربرية ، وتحدث عن الدول والخلافة والملك ، وذكر للزاتب السلطانية وعن العمران الحضري ، والبلدان والأمصار ، وعن الصنائع والمعيشة والكسب ووجوهه ، وعن العلوم واكتسابها وتعلمها .

وبحوث ابن خلدون في المقدمة هي تمهيد لدراسة التاريخ وفهمه ، وهي بحوث جديدة كل الجدة ، وإن كانت آراء الفارابي في المدينة الفاضلة وإخوان الصفاء في رسائلهم ، تعد تمهيدا مرجزا لصغيرا لبحوث ابن خلدون : كبحوث الفارابي عن حاجة الإنسان إلى الاجتماع ، وعن نشأة القرى والمدن ، وكتقسيم إخوان الصفا للعلوم والمصناعات ، وعنه عن تأثير طبيعة البلدان في الأخلاق . وإن كان بحوث الفارابي وإخوان الصفا لها منهجها الفلسفي ، حيث يتناول ابن خلدون هذه البحوث والموضوعات من الجانب الاجتماعي .

وتشمل بحوث ابن خلدون في المقدمة جوانب من علوم الاجتماع وفلسفة التاريخ والاقتصاد السياسي .

وقد عني المستشرقون عناية خاصة بالجانب الاجتماعي من تفكير ابن خلدون وتراثه ، وعد « فون كراير » المبتشر في النمساوي « ابن خلدون » مؤرخاً للحضارة الإسلامية ، وعده دي بوير فيلسوفاً ، ولكن الاتجاه العام كان إلى دراسة فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، التي تسعى اليوم بحوثه فيها إلى الاجتماع ، الذي يرق فيه أوجبت كونت ، وفيكو ، ومكيافلي ، من أعلام الاجتماع في أوروبا ، ولقد سبق ابن خلدون مكيافلي ومونتسكيو وفيكو إلى الدرس التقدي للتاريخ ، كما سبق ماركس وسواه إلى نظريات علم الاقتصاد السياسي . . والمقدمة تسبق كتاب مكيافلي الذائع « الأمير » بأكثر من قرن من الزمان ، وهي أوسع دراسة ، وأرحب أفقا ، وأغزر مادة ، على الرغم من أن المقدمة قد ألفت عام ١٣٧٧ م ، وكتاب الأمير ألف عام ١٤١٣ م .

ألف ابن خلدون مقدمته هذه في مدينة تلمسان عام ٧٧٦ هـ - ١٣٧٧ م ، حيث أمضى خمسة شهور في تدوينها ، ثم نقلها وهدبها بعد ذلك عدة مرات ، ويقول عنها ابن خلدون في آخر الجزء السابع من تاريخه : « وأكملت المقدمة على هذا النحو الغريب الذي اعتديت إليه في تلك الخلوة ، فسالت فيها شاكيب الكلام وللماني على الفكر ، حتى امتلأحت زبدتها ، وتألفت نتائجها » .

ثم أخذ يكتب تاريخه ، قائم أول نسخة منه في أوائل ٧٨٤ هـ - ١٣٨٢ م ، وتشمل المقدمة وأخبار البربر وزفانة وتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده وتاريخ الدول الإسلامية المختلفة إلى عصر المؤلف .

وفي أواخر عام ٧٨٤ هـ وصل ابن خلدون القاهرة ، وأقام فيها ، وأطلق عليه طلبة العلم بها يلتمسون منه الإفادة ، وتصدر للتدريس بالجامع الأزهر ، وكان سلطان مصر إذ ذاك هو الظاهر برفوق الذي ولي حكم مصر في أواخر رمضان عام ٧٨٤ هـ . . وتولى بعد ذلك ابن خلدون التدريس بالمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو ، وهي من مدارس المالكية المشهورة في مصر ، وبعد قليل عين قاضياً لقضاة المالكية في مصر في أواخر جمادى الأولى عام ٧٨٦ هـ .

وفي أثناء إقامة ابن خلدون بالقاهرة أخذ يهذب وينقح في المقدمة والتاريخ ، وزاد في حوادث التاريخ حتى بلغ بها نهاية القرن الثامن الهجري . بعد أن كان قد بلغ بها في تونس حتى عام ٧٨٣ هـ . . ومن الفصول الجديدة التي كتبها في مصر : أخبار دول المماليك المصرية ، ونشأة الغتار ، وصورة ذلك من بحوث

وقد شغلت المقدمة وحدها أذهان العلماء والمفكرين طوال عصور التاريخ، ونالت من الاهتمام والعناية أضعاف مائاته تاريخه الكبير . ولا عجب ، فقد كان نظر ابن خلدون إلى التاريخ سابقاً لزمته ، وقد وضع بهتمته أصول علم التاريخ ، فكانت هي الأثر الوحيد من نوعه في التراث العربي الإسلامي .

وابن خلدون بتاريخه ، ومقدمته خاصة ، قد احتل الذروة في التفكير الإسلامي وقد وضعت مقدمته بين أعلام العلماء الخالدين في تاريخ الإنسانية الفكرى ؛ فنال من عناية العلماء والمفكرين ما لم ينله مؤرخ إسلامي ؛ فلا تزال نظرياته وآراؤه موضع اهتمام الباحثين والمؤرخين والفلاسفة إلى اليوم .

ولابن خلدون في المقدمة رأى في العرب عجيب ، فهو يذهب إلى أنهم لا يقتلبون إلا على البشائط ، وإذا تعقبوا على أوطان أسرع إليها الفساد والخراب ، وإذا حصل لهم الملك فأنما يحصل لهم بصفة دينية ، وهم عنده أبعد الأئمة عن سياسة الملك ، وهم أبعد الناس عن الصنائع ، وميائهم يسرع إليها الفساد ، وخلة العلم في الإسلام عقيم ، وهذا الرأي الغريب حظير الباحثين في تراث ابن خلدون الفكرى ، فعلوه بأسباب مختلفة متناقضة ، أما نحن فنعله بأحد أمرين :

الأول : أن ابن خلدون يؤيد بالعرب البدوى أى مكان كالفقر هو غنم بهذا أحياناً ، لا عرب البليزية الغربية خاصة ؛ ونعقد رأى محتجج إلى إثبات السر في ترجيحنا هذا المعنى دون المعنى الآخر لثقله عرب .

والثاني : أن ابن خلدون يقصد العرب ويريدهم ويعكلم عنهم ، ومن الملحوظ من عبر التاريخ أن العرب في جاهليتهم وحين تعاليمهم من الدين بعد الإسلام كانت أحوالهم كما يصفها ابن خلدون ، فكأنما ابن خلدون يقصد بهذه الفصول ذكر طبيعة العرب حين ضعف الدين في نفوسهم ، وكأنه يريد التعليم في أحوالهم ، فإن العرب حين تمسكهم بإسلامهم وشرعهم ، كانوا كما نعرف عدلا وسياسة وإصلاحا ونيل حكم . وفي هذا البحث يذكر ابن خلدون أن أهل البادية مناروبون لأهل الأمصار ، ويذكر أحوال الموال والمصطنعين وما يعرض للدول من الحرج على السلطان والاستبداد به ومشاركته في نفوذه وألقابه . وآراء ابن خلدون في الفصل الخامس من المقدمة عن المعاش ووجوهه والكسب والصنائع مباحث قيمة في الاقتصاد السياسي والاجتماعي ، وقد اقتبس منها كارل ماركس في كتابه « رأس المال » . ومن آراء ابن خلدون في المقدمة نعرف :

١ — أن النقد التاريخي هو تطبيق طبائع العمران على التاريخ وحوادثه : فما جاز لنا قبوله من التاريخ قبلناه ؛ وما لا يجوز فيه رفضناه .

٢ — أصول التوحيد هي عقائد مشتقة عن الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعويل عليه ، ولما يذكر ابن خلدون أن العقل عاصر الإدراك لأن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الأنصار العقلية ، فهي فوقها بحيطتها . لاستمدادها من الأنوار الإلهية ، ويأخذ في ذم الفلسفة وتخللها ، ولا شك أن ابن خلدون كان بحاجة إلى تأكيد ذلك ليعض المجتمع الإسلامي في عصره للفلسفة ويعلمها وأجباها ، ويعتف في

البطش بكل من عرف عنه أنه يحب لها . . . ولا نخال ابن خلدون سوى فيلسوف ملهم ، فأفكاره في المقدمة أفكار فلسفية عميقة ، وكذلك دراسته للفلسفة وعلومها وتاريخ نشأتها تدل على أنه من أتصافها ومحبيها وعارف قدرها ، ويبدو أنه كان يقصد التنويه على عامة الناس وجمهور العلماء حتى لا يتهم بالإلحاد والكفر ، ويعرض نفسه لحن لا داعي لها ، بل إن المقدمة نفسها لو من أئوان الفلسفة في عصرنا الراهن ، ولا شك أن ابن خلدون يستحق تقدير المفكرين والتاريخ والإنسانية جمعاء .

ويبدأ ابن خلدون مقدمته فيقول : « يقول العبد الفقير إلى الله تعالى ،
الغني بلفظه ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، وفقه الله » .

ثم يقول : أما بعد ، فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال ، وتشهد إليه الركائب والرجال ، وتسود إلى معرفته السروقة والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والأقبيال ، وتساوى في فهمه العلماء والجهال ، وبهذا الأسلوب المسجوع الموضع يستمر ابن خلدون في التنويه بعلم التاريخ ، وقد كان لهذا الأسلوب أثره في أوائل عهد النهضة الأدبية في مصر والعالم العربي .

ثم يذكر ابن خلدون أنه قسم كتابه إلى :

١ - المقدمة في فضل علم التاريخ ، وتحقيق مزاياه ، والإلزام
بأغلاط المؤرخين .

٢ - الكتاب الأول في العمران وذكر ما يمرض فيه من العوارض
الآتية من الملك والسلطان ، والكسب ، والمناش ، والمفاتيح والمعلوم ،
وما يلك من الغلل والأسباب .

٣ — الكتاب الثاني في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة إلى هذا العهد ، وفيه من اللغات ببعض من طاهرهم من الأمم المشاهير ودولهم مثل القبط والسريانيين والفرس وبنو إسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والأفريقية .

٤ — الكتاب الثالث في أخبار البربر ومواليهم من زفانة وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان بدول للعرب خاصة من ذلك والدول .

و « المقدمة » من أم ما وصل إلينا من التراث العربي النفاذ الأصيل ، وهي تحفة فريدة مبتكرة لا مثيل لها في الآثار الإسلامية القديمة . وابن خلدون بمقدمته يحتل مكانة بارزة في التاريخ الإسلامي الفكري والعقلي .

ومن فصول المقدمة فصل في أن الإنسان مدني والطبع ، قال عبد الرحمن ابن خلدون في بيان ذلك : إن الاجتماع الإنساني ضروري ، ويمير الحكماء عن هذا بقولهم : « الإنسان مدني بالطبع » . ويبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها إلا بالانفاد ، وهو مضطر إلى التماسه وفطرته ؛ وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله ، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء ، ولو فرضنا له أقل ما يمكن فرضه ، وهو قوت يوم من الحنطة مثلا ، فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحين والخبز والطبخ ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواهب وآلات ، لا تتم إلا بمساهمات متعددة ، وجب أنه يأكله حيا من غير علاج ، فهو أيضا يحتاج إلى تحصيله حيا إلى أعمال أخرى أكثر من هذه ، من الزراعة والخصاد والدرس . ويحتاج كل واحد من هذه إلى الآخر متعددة .

وصناعات كثيرة ، أكثر من الأول . ويستحيل أن تبقى بذلك كله أو بعضه قدرة الواحد ، فلا بد من اجتماع القدر الكبيرة من أبناء جنسه ، ليحصل القوت له ولهم ، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف . وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضاً في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه . ولما كان العدوان طبيعياً في الحيوان ، جعل الله لكل واحد منها عضواً يختص بمدافعته ما يصل إليه من عادية غيره ، وجعل الإنسان - عوضاً من ذلك كله - الفكر واليد ؛ فاليد مهيأة للصناعات بخدمة الفكر ، والصناعات تحصل له الآلات التي تنقذ عن الجوارح المدة في سائر الحيوانات للدفاع ؛ مثل الرماح التي تنقذ عن القرون الناطحة ؛ والسيوف النائية عن المخالب الباردة ؛ فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سبباً للقرصة ، فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ، ولا تبقى قدرته أيضاً باستعمال الآلات المدة لها ، فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه ، وما لم يكن هذا التعاون ؛ لا يحصل له قوت ولا غذاء ؛ ولا تتم حياته . وكان نظر ابن خلدون إلى التاريخ سابقاً لزمته . لم ينظر أحد من المؤرخين قبله إليه هذه النظرة بمرل في تقدمته . لا إن من التاريخ يحتاج إلى ما خدمته ؛ بمعارف متنوعة ، وحسن نظر وثبت ؛ يصلان بصاحبها إلى الحق ، وينسكان به عن الزلات والمغالط ، لأن الأحيار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ، ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ؛ ولا قيس التأنيب منها بالشاهد ؛ والحاضر بالذهاب ، فربما لم يؤمن فيه من المشور ومزلة القدم ، والحيد عن حادة الطريق ؛ وكثيراً ما وقع للمؤرخين والفكرين وأئمة النقل للمغالط في الحكايات والوقائع ، لاعتمادهم فيها على مجرد

القتل غناً أو سجيناً ، لم يعرضوها على أصولها ولا فاسوها بأشباهها ولا سبواها
بمهماز الحسكة والوقوف على طبائع الكائنات ، وتوسيم النظار والبصيرة في
الأخبار ، فضلوا عن الحق ، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط .

ويقول في موضع آخر : « إن صاحب هذا الفن يحتاج إلى العلم بقواعد
السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار ، في السير
والأخلاق والعوائد والتعلل والمذاهب وسائر الأحوال ، والإحاطة بالخاضر
من ذلك ، ومائلة ما بينه وبين الغائب من الواقع ، أو وزن ما بينهما من الخلاف ،
وتسليق للفنق منها والتخلف ، والقيام على أصول الدول والمثل ، ومبادئ
ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها وأحوال القائم بها وأخبارهم ،
حتى يكون مستوعباً لأسباب كل حادث ، واقفاً على أصول كل خبر ،
وحينئذ يعرض خبر المفقول ، على ما عنده من القواعد والأصول ، فإن وافقها
وجرى على مقتضاها كان صحيحاً وإلا زيفه واستغنى عنه الخ . . .

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة :

وهو جزآن كبيران ، ألفه جلال الدين السيوطي (٨٤٩ - ٩١١ هـ) ،
صاحب المزمع وبنية الوعاة والانتقان في علوم القرآن والأشياء والنظار وسواها
من المؤلفات السكينة التي يكون كل مؤلف منها دائرة معارف واسعة ،
وجلال الدين السيوطي من أعلام أخبار هذا العصر ، الذين امتازوا
بكثرة مناقبهم العلمية والأدبية ، وبكثرة ما برزوا من المؤلفات .
ولد بأسوط سنة ٨٤٩ هـ وتوفي سنة ٩١١ هـ من جهة أبيه إلى أصل فارسي ،
ويعتبر أصله بالدم التركي من قبل أمة برمات والدفوسنة خمس سنين وسبعة أشهر ،

وكان قد وصل في حفظ القرآن إلى سورة التجرىم ، وأتم حفظه قبل أن يبلغ الثامنة ، ثم أخذ في تلقى العلم على خير أعلامه بالقاهرة ، وانكب على دراسة العلوم بأنواعها ، حتى نبغ فيها ، وأصبح مدرسا تهرع إليه الطلاب ، ثم عزل من التدريس قبل موته ومات عن أكثر من خمسمائة كتاب ، قد أريت مؤلفات السيوطي على الخمسمائة ، وأكثر هذه رسائل صغيرة الحجم محدودة الموضوعات . . . وخير مؤلفاته « الاقتان في علوم القرآن » و « المزهرة في اللغة » و « الأشياء والنفائز في النحو » و « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » في التاريخ . . . وقد كتب ترجمة لنفسه في هذا الكتاب تدل على كثير من الاعتدال بالنفس والصراحة ، جاء فيها : « ورزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والحق والمغنى والبيان والبدع على طريقة الغرب والبلقاء ، لا على طريقة المصنف وأهل الفلسفة ، والذي أعقبته أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم سوى الفقه ، والقول التي اطلعت عليها فيها ، لم يصل إليه ولا وقفت عليه ، فحين أشياخى ، فضلا عن هو دونهم ، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه ، بل شيوخه فيه أوسع نظراً وأطول باعاً . ودون هذه السبعة في المعرفة أصول الفقه والجمل والقصرى ، ودونها الانشاء والترسل والفوائض ، ودونها القراءات ، ولم آخذها عن شيخ ، ودونها الطب .

وبعد كتابه حسن الحاضرة من أهم مصادر التاريخ القصرى .

مسالك الأبصار :

مؤلفه شهاب الدين بن فضل الله المصري (١٢٠٠ - ٧٤٩ هـ) ، وهو الشاعر المصنف المؤنف الأصيل القلبي أبو القياص شهاب الدين أحمد بن محمد الدين يحيى بن فضل الله المصري حليل صر بن الخطايب . وشهاب الدين من خيرة

العلماء والأدباء، وكان يعيش في العصر المملوكي . وهو مؤلف كتاب « مسائل لأبصار في ممالك الأمصار » في بضعة وعشرين مجلداً ولا يعلم قبله كتابه وسع من علوم التاريخ ووصف الأرض والفلك والأدب ملوسعه ؛ وله كتاب التعريف بالصطلح الشريف في فن إنشاء الدواوين ، وكتاب « فواصل السمر في فضائل آل عمر » .

ولد المعري بمدينة دمشق ، وثقته وتأديب على أبيه وغيره من أئمة وقته ، تخرج وأخذ زمامه علماً وأدباً وترسلاً وتصنيفاً وشعراً ؛ ولم يكن في عصره وعصر اللغزى الفاضل من يدانيه في شيء من ذلك على كثرة الفايدين فيهما ؛ وكان أعلم أهل القطرين بتاريخ الملوك وحليقات العلماء والأدباء ، وعلم وصف الأرض وأحوال الممالك الثمانية : كالحند والصين والترك وغيرها ، فوق الفقه الذي نال فيه مرتبة الانشاء ؛ وكان أبوه وعمه يتنقلان ككتابة السر في مصر والشام لسلطين آل قلاوون ونوابهم ؛ وخلقهما في ذلك شهاب الذين وأخوه وأولادهما في مناصب رئاسة دواوين الانشاء وكتابة السر وغيرها لكل برقوق .

ومن فصول رسائله هذا الفصل في العيشة بفتح :

« أعز الله تعالى نصرته التمام العالي المولوى السلطان الملكى المنظرى الشمسى ؛ وأشركه في كل بشرى تشد الرجال لاستماعها ؛ وتعمل الحيا لاستطلاعها ، وتنهات التواريخ والسير على استرقاعها ، وتننافس الأفلام والسيوف على اللام بأجناسها وأنواعها ، ولا خلا موقف جهاذ من اسمه ، ولا أبق ابتهاج من بزوغ شمسه ، وظلوع نجمه . . سطر الملوك هذه البشرية

والسيف والقلم يستعملان ، هذا من دم وهذا من نفس ، ويتضيان ، هذا في رأس وهذا في طرس ، ويتجاوبان ، هذا بالليل وهذا بالحرير ، ويتناوبان هذا يستعمل وهذا يستتير . وكل منهما ينافس الآخر على المشاهدة بخبر هذا الفتح ، الذي مامنت إليه همم الملوك الأوائل ، ولا وصفت به -يرحم الله- التي بدت أجيادها من حلاء عواظل .

وقد أظهر الجعري في هذه القطعة براعة في تعدد السجعيات ، وشيئا من القدرة على الموازنة بين أعمال السيف وأعمال القلم ، ولتكنها بعد كل ذلك لم تكن إلا معرضا لألفاظ متراصة ، وسجعيات متواترة تبعث على اللال .

لسان العرب :

وهو معجم نفوس ضخمة في جشرين مجلداً ، ألفه الامام جلال الدين بن مكرم الأنريقي . وقد ولد سنة ٦٣٠ هـ ، واشتغل بالآلة وعلومها وتاريخها ، وخدم بديوان الانشاء بمصر ، وألف مئات من المجلدات أشهرها : لسان العرب ، وهو معجم واسع ، وموسوعة جامعة في الآلة والتفسير والحديث ، وكان ابن مكرم مشغولاً باختصار الكتب ، فاختصر مقدرات ابن البيطار ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ بغداد للمصنف . وكان إلى تواجبه العلمية شاعراً مقلاً ، فمن ذلك قوله :

بأنه إن حيزت يرادى الأراك وقيلت أضفاته الخضر ذاك
ابحث إلى الملوك من بعده فأتى والله مالي مسواك
وقد توفي ابن منظور عام ٧١١ هـ . وكتابه يجمع بين تهذيب الأزهري

وحكم ابن سيدة ، والصحاح ، وجمهرة ابن دريد ، والنهاية لابن الأثير ،
وهو يحتمل على ثمانين ألف مادة ، وقد رتبته صاحبه على أواخر الكلمات
كالصحاح . . وهو كبير الحجم ، طبع بمصر في عشرين مجلدًا . .

وقد شرح ماورد به من الشواهد من آيات القرآن ، وحديث النبي ،
وأشعار المتقدمين ، وبعض ماأورد الفخر عن الذين يحتج بقولهم . ولغوسمه
في ذلك الشرح وإكثاره من الاستشهاد وتعريبه على مسائل في النحو
والصرف ، صار الكتاب روضة أدب . إلى جانب ضبطه للغة العرب ؛
وقد قيل فيه :

نهل عزب سمير سائق يورد الناهل أهنا مشرب

خصائص التأليف في هذا العصر

يمتاز التأليف في هذا العصر بما يلي :

- ١ — فقدان روح الابتكار العلمي في أغلب الأمر والاستمالة عن ذلك بكثرة الرواية والجمع والنقل والاقتباس .
- ٢ — ظهور الموسوعات العامة الضخمة في جميع العلوم .
- ٣ — ذبوع طريقة القرن والشروح والحواشي ، فيؤلف متن في أحد العلوم ، ثم يشرح هذا المتن . وقد يكون في هذا الشرح غموض أو نقص ، فيستدرك عليه استدراكات عديدة أو يشرح شرحاً مناسباً ، ويسمى التعليق على الشرح حاشية ، وقد تكون ألوان من التصور فيستدرك عليها بحاشية على الحاشية .
- ٤ — ابتكار علم الاجتماع وفلسفة التاريخ بظهور مقدمة ابن خلدون (١) ، وظهور النقد التاريخي والسكافية في العلوم السياسية والإدارية والحربية .
- ٥ — غلبة الأسلوب الأدبي على لغة التأليف .

(١) يقول ابن خلدون في آخر مقدمته : عزمنا أن نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الأول الذي هو طبيعة العمران وما يترتب فيه ، وقد استوفينا من مسائله ما أحسبناه كفاية ، ولعل من يأتي بعدنا يفرض من مسائله على أكثر مما كتبنا ، فليس على مستنبط الفن إخضاع مسائله الخ :

الإمام السيوطي

رائد الثقافة الإسلامية في عصره

٨٤٩ - ٩١١ هـ : ١٤٤٥ - ١٥٠٥ م

كان الإمام جلال الدين السيوطي نادرة عصره ؛ بقية السلف ، وعمدة الخلف ، كما يقول عنه معاصره « ابن إياس » في كتابه « بدائع الزهور (١) » .
بل كان جلال الدين والدنيا ، ومفتن التدريس والفتيا ، جعل الله به ملة الإسلام
كما يقول الشهاب للنصوري الشاعر المعاصر له (٢) .

ولقد عاش السيوطي في أواخر عصر المماليك ، الذين امتد نفوذهم في كل مكان ، وقامت لمصر في أيامهم دولة عظيمة وأمبراطورية كبرى ، كان لها
الرأى الناصب في كل القضايا المالية آنذاك ، وامتدت هيبتهم من الهند
إلى شواطئ المحيط الأطلسي ، وشمل حكمهم ما بين برقة وضايف الفرات
وما بين قبرص إلى مجاهل إفريقيا ، كما شمل اليمن والحجاز وسواحل
المحيط الهندي ؛ بل امتد إلى حدود الحبشة وجهات سواكن وجزائرها .

وحدث عن مجد المماليك ومصر بعد هزيمة الجيش المصري لانتصار في

(١) ٨٣/٤ بدائع الزهور لابن إياس .

(٢) ١٢٢ عقود الجنان للسيوطي .

عين جالوت عام ٨٦٥٨ / ١٢٦٠ م ثم بعد إجلالهم الكامل للصليبيين من سواحل الشام عام ٨٦٩١ / ١٢٩٢ م ، بل حدث عن أثر نقل الخلافة العباسية إلى القاهرة عام ٨٦٥٩ - ١٢٦١ م ولا جرح ، حتى ليقول السيوطي في كتابه « حسن المحاضرة » : اعلم أن مصر حين صارت دار الخلافة عظام أمورها وصارت محل سكنى العلماء ، ومحط رجال الفضلاء (٢ / ٦٥ حسن المحاضرة)

وكانت دولة آل عثمان بعد فتح القسطنطينية عام ٨٥٧ / ١٤٥٣ م تتطلع وهي في آسيا الصغرى إلى هذا الجيد الكبير ، وإلى مكانة مصر المالية الكبرى بعين الحذر ، وتربص وامبراطوريتها ريب الأحداث .

وصارت حضارة مصر آنذاك مضرب الأمثال ، فقائيج التجارة العالمية بين الشرق والغرب في يدى الشعب المصرى ، والأموال تتدفق عليه بلا حساب ، والرخاء والازدهار تملغ النادرة كل أحلامها منهما . وكان سلطان المالك يلقب بسلطان البرين والبحرين ، أى البر للمصرى والبر الشاهى ، والبحر الأبيض والبحر الأحمر (١) ، وكان لقب فلاوون « ملك البرين والبحرين وصاحب القيلقين (٢) » وخادم الحرمين الشريفين (٣) ، « وأحياناً كان يلقب بسلطان الشام واليمن ، ملك البحرين ، خادم الحرمين الشريفين ، صاحب القيلقين ، ملك الديار المصرية والجهات الحجازية والبلاد الشامية ، والأعمال

(١) الصوامل التاريخية في بناء الأمة العربية — محمد شفيق غربال —

١٩٦١ القاهرة .

(٢) أى كلمة السكرمة وبيت المقدس الشريف .

(٣) كما جاء في نقش أثرى على الجيارستان القلاووني في القاهرة ، تاريخه

القرائية والديار البكرية . . بل لقد خطب لاسلطان برفوق باسمه في توزيز من بلاد المعجم وفي الموصل وماردين وسنجار ، وضربت النقود باسمه في جميع هذه البقاع (١) .

ووصف هؤلاء كوا الفائد القولى القاهرة في إحدى رسائله بأنها « كروان سرائى » أى محطة تجارية عالمية ، أو سوق تجارى عالى . ويقول المقرئى في الخطوط : وجمعت السكافة - أى الناس جميعا - ممن أدركتهم يقاضون بمصر سائر البلاد (٢) . ويقول ابن خلدون عن القاهرة : هى حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، وإيوان الإسلام ، وكبرى الملك (٣) . ويقول كذلك عن مصر (٤) : ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر ، فهى أم العالم ، وإيوان الإسلام ، ونبوع العلم والصنائع .

وكان عصر السيوطى عصر ازدهار الثقافة الإسلامية والعربية ، وحدث عن جامعة مصر الكبرى الأزهر الشريف قبلة المسلمين من كل مكان ، ولا حرج ، ويقول المقرئى فيه : يجد الزائر له من الإنس بالله والارتياح ونزوع النفس مالا يجد فى غيره (٥) . . ومع أن للمعاليك كانوا ينتمون إلى أصول غير عربية ، إلا أنهم يقيمهم فى أرض العروبة اعتبروا أنفسهم عربا ، بل حجة للعرب ، حتى كان من ألقاب سلاطينهم « سيد ملوك

(١) ٦٥ صور من عصر المعاليك - سعادوى نظير احسان .

(٢) ٩٢/٢ الخطوط للمقرئى .

(٣) ١٣٣/٢ نصح القليب المقرئى .

(٤) ٤٥٣ مقدمة ابن خلدون .

(٥) ٢٧٦/٢ خطوط المقرئى .

العرب (١) « ؛ وعدوا أنفسهم مصريين ، بما اكتسبوا من الروح المصرية ، لحياتهم الطويلة على ضفاف النيل قبل وبعد قيام دولتهم ، ومع أن لغتهم الأولى كانت هي التركية الملوقة بألفاظ فارسية وعربية ، كانوا يتعلمون العربية ويتقنونها ، حتى صار كبارهم وأسراؤهم ، بل جمهورتهم ، يتكلمون العربية الفصحى ويتخاطبون بها . وكان السلطان الأشرف خليل يعقد المجالس الأدبية ويطرح الأدباء والشعراء ، مع معرفته بصناعة الإنشاء (٢) ؛ واشتهر كذلك السلطان جقمق وخشقدم بفصاحة اللسان بالعربية الفصحى البليغة ؛ وكذلك جاني بك (٣٨٦٨ هـ) وخاير بك (٨٨٧ هـ) ، وحبيب اللائي (٨٩٣ هـ) (٣) ، وكذلك السلطان قانصوه الغوري حيث كان يجيد العربية ، شديد الواع بعلمها وآدابها ، وله فيها مشاركة كبيرة ، كما كان يتذوق الشعر (٤) إلى ما شهر عنه من غرامه بقراءة السير والتواريخ ، وله مجالس عرفت باسمه عذراتها « مجالس الغوري (٥) » ، وهي مناظرات كانت تجري في مجلسه .

وفي القاهرة كانت المدارس العلمية والخوانق (البيوت) الصوفية تنهض برسالة دينية وثقافية وعلمية كبرى ، وتعمل من أجل نشر الثقافة الإسلامية

(١) ١٢٩/٣ بدائع الزهور لابن إياس .

(٢) ص ٧٩٠ ج ١ قسم ٣ السلوك .

(٣) ١٢٩/١ بدائع الزهور .

(٤) ٩٠/٢ ابن إياس .

(٥) ٥٩/٣ بدائع الزهور لابن إياس ، والكتاب « مجالس الغوري »

مطبوع في القاهرة .

وحايتها ، ومن بينها : المدرسة الصالحية ، والكاملية ، والقاهرة ، والمنصورية ،
والناصرية ، والمؤيدية ، وإخاتناه البيبرسية ، والمدرسة الشيعونية التي درس
فيها السيوطي على شيخه البلقيني ، ومنحه فيها إجازة علمية عام ٨٦٤هـ / ١٤٦٠ ،
ثم كان أستاذا فيها ذاتها كذلك عام ٨٧٢هـ / ١٤٦٧ م . وكان الأزهر يشهد
أثر هذه المدارس ، وينبغيها بالأساندة الأعلام فهو وجه مصر الروحي والفكري
والحضاري ، وهو أبرز معاهد العلم والدراسات الإسلامية والعربية في « دولة
البرين والبحرين » ؛ وإليه يقد طلاب العلم وشيوخه من مشارق الأرض
ومناكبها ، للتمتع في دراسة علوم الدين والعربية ، وفيه كانت تمتد مجالس
الوعظ والذكر وحلقات التدريس ، وقد أكسب مصر سمعة إسلامية عالمية ،
حتى صارت حاملة مشاعل الثقافة الإسلامية بعد بغداد التي صارت أطلالا
دارسة ؛ فالأزهر هو الذي رفع المشاعل وأوقد الصاييح ، وأضاء الدنيا ،
وتصدر خلفائه العلمية الأئمة والأعلام من العلماء ، أولى المفاهيم العلمية ، وقد
عرفت طريقتهم باسم الطريقة المصرية « (١) » .

وعاصر السيوطي من سلاطين المماليك الجراكسة ثلاثة عشر ، هم :

- ١ — الظاهر جقمق ٨٤٢ - ٨٥٧هـ / ١٤٣٨ - ١٤٥٣ م .
- ٢ — المنصور عثمان ٨٥٧هـ / ١٤٥٣ م .
- ٣ — الأشرف إينال ٨٥٧ - ٨٦٥هـ / ١٤٥٣ - ١٤٦١ م .
- ٤ — المؤيد أحمد ٨٦٥هـ / ١٤٦١ م .

- ٥ — الظاهر خشتقدم ٨٦٥ - ٨٧٢٨ / ١٤٦١ - ١٤٦٧ م .
- ٦ — الظاهر ألباى ٨٧٢ - ٨٧٣ / ١٤٦٧ م .
- ٧ — الظاهر تحريفا ٨٧٢ - ٨٧٣ / ١٤٦٧ - ١٤٦٨ م .
- ٨ — الأشرف قايتباى ٨٧٣ - ٨٩٠١ / ١٤٦٨ - ١٤٩٦ م .
- ٩ — الناصر محمد بن قايىباى ٩٠١ - ٩٠٤ / ١٤٩٦ - ١٤٩٩ م .
- ١٠ — الظاهر قانصوه ٩٠٥ - ٩٠٥ / ١٤٩٩ - ١٥٠٠ م .
- ١١ — الأشرف جانبلاط ٩٠٥ - ٩٠٦ / ١٥٠٠ - ١٥٠١ م .
- ١٢ — المادل طومان باى ٩٠٦ - ١٥٠١ م .
- ١٣ — الأشرف قانصوه النورى ٩٠٦ - ٩٢٣ / ١٥٠١ - ١٥١٦ م .

كما عاصر السيوطى كذلك أئمة كبارا من العلماء ، وبحسبك ابن حجر (- ٨٥٣ / ١٤٤٩ م) ، ولقد طلب والد السيوطى منه أن يدعو لابنه بالبركة والتوفيق ، وكان السيوطى يرى فى هذا العالم المصرى العظيم مصدرا إشباع روسى له ؛ وكذلك الامام العيني (- ٨٥٥ / ١٤٥١ م) ، والقسطلانى (- ٩٢٣ : ٥١٧ م) ، والسخاوى (- ٩٠٢ / ١٤٩٧ م) ، والمتريزى وابن إياس وغيرهم من أعلام عصره .

ولقد صار السيوطى واحدا من بينهم ، وعلمنا من كبار علمائهم ، واحتل مركز الصدارة فى القاهرة فى عصره ، وصار فى مقدمة الذين أتروا الثقافة الإسلامية العربية ، ورفعوا من شأنها ، وأحلوها مكانا عاليا ، ومترتبة - أيقنة ، تبوأتها من ذلك الحين حتى يومنا هذا ، فهو أحد الذين قادوا مواكب

الثقافة الإسلامية في عصره ، بشخصيته الإسلامية المالكية ، وبموسوعيته العلمية التي ليس لها نظير في تاريخ العقل العربي .

ولد جلال الدين عبد الرحمن السيوطي في القاهرة أول رجب عام ٨٤٩ هـ — الثالث من أكتوبر عام ١٤٤٥ م في منزل والده بالروضة ، وهو من أسرة بغدادية الأصل ، استقر بها اللسان في أسبوط منذ عهد الدولة الأيوبية ، واشتهر منها العلماء من الرجال ، وكان والده كمال الدين أبو بكر السيوطي بعد (عام ٨٠٠ — صفر ٨٥٥ هـ) من جلة العلماء ؛ وقد تزح من أسبوط إلى القاهرة قبل ميلاد ابنه بأربعة وعشرين عاماً (١) ، وانتقل لطلب العلم في الأزهر وغيره ، ثم للتعليم والإفادة وتدريس الفقه في الجامع الشيعوني ، وللخطابة في الجامع الطولوني ، وكان يثبته بحزيرة الروضة . مقصد الطلاب والعلماء ، وكان الخليفة المستنفي بالله (٢) يحله ويعظمه . ولعل عطف الخلفاء الهباسيين عليه مما يؤيد أصله البغدادي .

وتوفي والد جلال الدين وهو طفل صغير في السادسة من عمره ، فكفل الابن الصغير ، عبد الرحمن ، صديق لوالده وزميل له في المدرسة الشيعونية ، هو كمال الدين بن الهمام الحنفى (— ٨٦١ هـ (٣)) ، الذي أخذ يتعمده ويرعى شئونه ، وكان ابن الهمام محققاً جديداً ، ولى مشيخة المدرسة الشيعونية ،

(١) ١٨٧/١ حسن المحاضرة — المطبعة الشرفية .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) ٣٠١/١ حسن المحاضرة .

وله كتب مشهورة في الفقه وفي الأصول ، منها كتابه فتح القدير ، وشرح الهداية .

وظهرت على الابن الصغير مخايل التبوغ والذكاء وقوة المحافظة ، حتى لقد حفظ القرآن الكريم وهو دون الثمانية من عمره ، وحفظ مقون العلوم الإسلامية والعربية وهو دون الخامسة عشرة ؛ وأقبل عبد الرحمن على حضور دروس مشايخ عصره ، وتلقى العلم على أيدي علماء عصره منذ مسهل عام ١٢٤٤ هـ وهو في الخامسة عشرة ؛ وكان من بين هؤلاء الأساتذة :

١ — شيخ الإسلام البلقيني (٧٩١ - ٨٩٨ هـ) إمام العلماء في المائة الثامنة ، وهو من أساتذته في الفقه ، وهو الذي أجازته بالتدريس والإنفا (١) . وكان التصدير الذي ألقاه لما باشر التدريس بجامع شيخون بمصره أستاذه البلقيني هو الكلام على أول سورة الفتح ، كما كان الكلام على حديث ابن عباس « احفظ الله يحفظك » هو التصدير الذي ألقاه لما ولي درس الحديث بالتيخونية . ولما مات البلقيني لازم عبد الرحمن ولده عليا حتى توفي أيضا بعد وفاة والده العظيم بقليل .

٢ — شهاب الدين الشارحساحي ، الذي أخذ عنه الفرائض .

٣ — شيخ الإسلام شرف الدين المناوي (٧٩٨ - ٨٧١ هـ) الذي تعلم عليه في الفقه ، ولما مات رثاه السيوطي بشعره (٢) .

(١) ١٨٩/١ المرجع نفسه .

(٢) ١٨٩/١ حسن المحاضرة .

- ٤ — يحيى الدين الكافيني (٧٨٨ - ٨٧٩ هـ) ، وقد تلقى على يديه التفسير والأصول والمعاني والعربية ، ولزمه أربع عشرة سنة (١) .
- ٥ — تقي الدين الشبلي الحنفي ، وكان أستاذه في علوم العربية .
- ٦ — سيف الدين الحنفي ، وهو أستاذه في البلاغة .
- ٧ — ابن المصنف (- ٨٩١ هـ) (٢) .
- ٨ — تقي الدين الشبلي (٨٠١ - ٨٧١ هـ) (٣) ، وهو أستاذه في التفسير والحديث وفي العربية ، وقد لازمه أربع سنين ؛ ولما مات الشبلي رثاه السيوطي بقصيدة طويلة من شعره (٤) .
- وغير هؤلاء ، وهم كثير ؛ وذكر السيوطي أن شيوخه الذين أخذ عنهم نحو المائة والخمسين (٥) . وقد ترجم لهم في معجم خاص - وواصل السيوطي مسيرته العلمية ، حتى نفقه في علوم عصره ، وألف أول كتبه وهو في الخامسة عشرة ، وهو تفسير للاستمادة والبسطة ، وذلك عام ٨٦٤ هـ ، وهو دليل على طموح علمي كبير ، وهذا النهم العلمي الذي لا يقف عند غاية هو أحد معالم شخصية (٦) عالمنا الكبير ، حتى قد أجيز بتدريس العربية وهو في الخامسة عشرة ،
-
- (١) ١٤١/١ المرجع نفسه .
- (٢) ١٠١/١ المرجع نفسه .
- (٣) ٣٣٧/١ الكواكب السائرة .
- (٤) ٣٠٢/١ حسن المحاضرة .
- (٥) ١٤٢/٩ المرجع نفسه .
- (٦) ٦٢ طبقات المفسرين للسيوطي .

وروى عنه علماء عصره الحديث وهو في الثانية والعشرين من عمره ، وذلك عام ١٧٧١ هـ ، وأجيز بتدريس الفقه وبافتيا وهو في السابعة والعشرين من سنى حياته المباركة (١) .

وكان أول درس ألقاه في الأزهر الشريف في تفسير سورة الفاتحة .

أخذ أحب السيوطي الكتاب منذ صغره ، وكان يرى في الإمامين البلقيني وابن حجر مثله الأعلى ، فبعض الله وهو يشرب من ماء زمزم أن يجعله في الفقه مثل البلقيني وفي الحديث مثل ابن حجر . . . وكان والده قد ترك له مكتبة زاخرة بالمخطوطات ، فكان يطالع فيها ، فوق نرده على مكتبة المدرسة الحمودية (٢) الحافلة بتختلف المؤلفات في شتى الفنون والعلوم ، وكانت من أنفس خزائن الكتب بالقاهرة ، وبها نحو أربعة آلاف مجلد ، وقد قام ابن حجر بتفهرستها ، ثم تلاه السيوطي فكتب فيها رسالته فيها جميعا في كتاب سماه « بذل المجرود في خزنة محمود » . وأخذ السيوطي يبحث عن خزائن الكتب المختلفة ويطالع فيها ، ثم أخذ يطوف في أنحاء مصر ، يلقي الخطب ويمادشهم ويأخذ عنهم ويأخذون عنه ؛ وبعد أن كان يعول بتدريس الفقه بالجامع الشيعي في خلقة لوالده ، صار يتولى منصب المشيخة في المدرسة الشيعونية ، وهو المنصب الذي كان يشغله أبوه من قبل ، كما شغله أيضا أستاذه الكمال بن الهمام (- ٨٩١ هـ) ، وتصدى للافتاء وإملاء الحديث بالجامع

(١) ١٤٠/١ حسن المحاضرة .

(٢) نسبة إلى محمود بن علي الاستادار ، وكانت من أحسن المدارس في ذلك

الحين ، أُنشئت عام ٧٩٧ هـ .

الطولقي ، والدرس الحديث بالخاتمة الشيخونية وتولى مشيخة الصرفية بمدفن
برقري الناصري ، ثم تولى مشيخة المدرسة البيهرية ، وهي أكبر خواتم
(بيوت الصرفية) بالقاهرة ، وبيوتها الصوفية ، وأكثرها أوقافاً في عصره (١) ؛
ثم نجاه عنها السلطان محمد بن قايتباي (٢) ، وكان آنذاك في الأربعين من عمره ،
فاعتزل الناس ، وزهد في الدنيا ، وعكف على التأليف طيلة عشرين عاماً في
منزله بالروضة ، ورفض أن يستقبل أحداً من زائريه ومريديه ، حتى لقد أغلق
نوافذ منزله بالروضة المطلّة على النيل ، وكشف في ذلك رسالة سماها « تأخير
الفتنة إلى يوم القيامة » .

ولما تولى طومان باي الحكم خاف منه أن يضطّعه ، فاختفى حتى توفي
هذا السلطان ، وحسن الحفظ لم يمكث هذا السلطان في الحكم إلا شهوراً قليلة ،
عاد السيرطي بعدها إلى منزله في الروضة ، وكان قد تولى حكم مصر السلطان
قائمه التوري ؛ وقد عرض هذا السلطان عليه العودة إلى المشيخة في المدرسة
البيهرية ، فاعتذر وأمر العزلة عن الناس .

حج السيوطي عام ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م ، وجاور في مكة المكرمة عاماً
كاملاً (٣) . وطاف في أنحاء العالم الإسلامي دارساً ومدرساً ، وموجهاً ، فرحل
إلى الشام والحجاز واليمن والهند والفرب وبلاد التركود (٤) : وتصدر مجالس

(١) ٥٢/٨ شذوات الذهب لابن العماد .

(٢) ٢٦ طبقات المفسرين للسيوطي .

(٣) ٦٥/٤ الضوء للسخاوي .

(٤) ٤١/١ حسن المحاضرة ، ٦٦: ٤ الضوء للامع .

العلم والعلماء في الأزهر وفي غير الأزهر من أمهات المدارس الإسلامية ، حتى
غدا علم الأعلام ، ورأى عظماء من رواد الثقافة الإسلامية .

ويعد عمر غير طويل وعن اثنين وستين عاما هجريا ، أوستين عاماميلاديا
توفي الامام جلال الدين السيوطي في التاسع عشر من جمادى الأولى عام ٩١١ هـ :
الصالح عشر من أكتوبر عام ١٥٠٥ هـ ، وقال فيه تلميذه عبد الباسط بن خليل
الحنفي (- ٩٢٠ هـ) :

مات جلال الدين غيث النورى مجتهد العصر ، إمام الوجود

كانت الثقافة الإسلامية قد أصيبت بفكيات كبيرة في بغداد على أيدي
التتار ، وفي الأندلس على أيدي الأسبان المتعصبين ؛ وسلمت مصر بهزتها
للتتار في عين جالوت ، فسلمت لها مجالس العلم ومدارسه وجامعته الكبرى
الأزهر الشريف ، وسلمت خزائن الكتب في القاهرة وبقوت حلقات الثقافة
وأنديتها لم يمسها سوء ، وظلت القاهرة ترسل أشعتها إلى كل مكان ، وتروى
أداء رسالتها في خدمة الثقافة الإسلامية ، ووفد عليها العلماء والأدباء والشعراء
من كل مكان في العالم الإسلامي .

وقد شمر علماء مصر عن ساعد الجد ، لتعويض ما يبدد من التراث الإسلامي
في بغداد والأندلس وصقلية وغيرها ، فألفوا الكتب وصنفوا اللسوعات ،
وكثفوا في كل العلوم والفنون ، وجمعوا ما وصلهم من روايات ومأثورات ،

من مختلف المصادر ؛ ورأوا أن هذه المهمة هي فريضة إسلامية كبيرة ألقيت على كاهل مصر وعلمائها فتبعضوا لها ، وقاموا بها خير قيام ، فرأينا المؤلفات الضخمة من مثل ؛ صبح الأعشى ، ونهاية الأرب ، والنجوم الزاهرة ، وفتح الباري ، وبدايع الزهور ، والدر المنثور ، وغيرها من أمهات الكتب ، التي خلفها لنا أئمة ؛ التلغشيدي ، والنويري ، وابن تقي بردي ، والمقرزي وابن حجر وابن إياس والسخاوي والتسطلاني والعيني والدمايني والشمي وابن السكال والسيكي وابن فضل الله العمري والدميري والأسفوي والمناوي والبلقيني والشمراي وغيرهم ، . وكذلك فعل السيوطي ، بل لقد فاقهم جميعا في عظمة التحصيل ، وغزارة التأليف ، وروعة التحقيق ؛ وطلت القاهرة تنصدر عوامم العالم الإسلامي حضاريا وفكريا وثقافيا ، وغلت أنديتها العلمية والأدبية حافلة بالعلم والعلماء والطلاب ؛ كما كانت على امتداد عصور التاريخ .

لقد عكف السيوطي على الكتاب والكتابة والتأليف طيلة حياته ، فأثرى المكتبة العربية بنفائس المؤلفات ، وبذخائر المصنفات ، مما شهد لها المحققون ؛ وأقروا لصاحبها بطول الباع ، وسعة الاطلاع ، وبوفرة المحصول ، وموسرعية المعرفة ، وبغزارة العلم والرواية ، وبالوقوف على مختلف البحث ، والإحاطة بكل ما تشتمل عليه خزائن الكتب في القاهرة وغيرها ؛ ودخل الناس لما رأوا من باهر تحصيله ، ومن وقوفه على دقائق العلوم ، وحقائق المعرفة ، وخفايا المخطوطات

ويقول السيوطي عن نفسه (١) : « لقد رزقت التبحر في سبعة علوم ،

(١) ١/١٤٩١ حسن المحاضرة .

هى التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع ، على طريقة العرب
البلغاء ، لا على طريقة المعجم وأهل الفلسفة . والذي أعتقد أن الذى وصلت
إليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه ، والقول التى اطلمت عليها فيها لم يصل
إليه ولا وقف عليه ، أخذ من أشياء ، فضلا عن هو دونهم ؛ وعرفى
كتابيه حسن المحاضرة يذكر أن مؤلفاته آ فذاك بلغت ثلاثمائة ، ويذكر
ابن إياس أنها فى مجلتيها تبلغ ستائة (١) ؛ ويذكر بروكلمان أنها أكثر من
أربعمائة (٢) ، وأخصى له المستشرق فلوكل ٥٦١ مؤلفا (٣) ؛ وقد تكون
بعض كتبه وريقات قليلات ، ككتابه « المتوكلى » مثلا ؛ وقد تكون
أجزاء كثيرة ، مثل : الدر المنثور ، والجامع الكبير ، وغيرها . وقد جمع
السيوطى فى كتابه « الحاوى للفتاوى » الذى يقع فى نحو ألف صفحة
ثمانية وسبعين مؤلفا منفردا ؛ أغلبها من الفتاوى والبحرث المنفردة (٤) .
وجمع فى كتابه « الفتاوى » أربعة عشر علما ، هى : التفسير ، والحديث ،
وأصول الدين ، والمعاني ، والبيان ، والبديع ، والشرع ، والنظم ، والصرف
والنحو ، والفرائض ، وأصول الفقه ، والتصوف ، والطب . وله شرح عليه .

وليس فى العالم من يبلغ مايلفه السيوطى فى كثرة المؤلفات سوى
رامون لول الأسباني أحد كتاب المصنوع الوسطى الذى بلغت مؤلفاته نحو

(١) ٦٣/٣ ، ٦٣/٤ ، بدائع الزهور .

(٢) ٦٤٥/٣ تاريخ الادب العربى بروكلمان .

(٣) ١٥٧/١ المرجع نفسه .

(٤) ١٩٩/١ — ٤٦ الحارثى .

الجمعة (٩) . . . ويقول الداودي (٢) تلميذ السيوطي (- ٩٤٥ هـ) الشافعي للمصري العلامة المحدث في انتصار العقيدة شيخه : كان السيوطي في سرعة الكتابة آية كبرى من آيات الله (٣) . . . وهكذا كان جلال الدين السيوطي أرفع علماء عصره ، وأعظمهم نشاطا ، وأكثرهم تأليفا ، وأغزرهم مادة ، بل لعنه أغزر علماء والعربية فاطية تصنيفا ، حتى لقد ضرب به المثل على طول العصور في غزارة التأليف ، ولتب يابن الكتب .

كان التأليف عند جلال الدين هواية وفنا نبحر فيه ، حتى لقد اتخذ منه سلاحا يذوق به عن نفسه ضد مخالفيه في الرأي ، من مناقسيه وخصومه والمخالفين عليه ، يقول : خالفني أهل عصرى في خمسين مسألة فآلفت في كل مسألة مؤلفا ، بينت فيه وجه الحق (٤) .

واختصر السيوطي الكثير من نقائس كتب التراث ، حتى لتجد من كتبه :

-
- (١) ٦٠ المؤرخون - د . محمد مصطفى زيادة .
 - (٢) ألف ذيل على طبقات الشافعية للسيكي ، وكتب ترجمة شيخه السيوطي في مجلد صغير ، وله ذيل على كتاب شيخه وطبقات المفسرين . وذيل آخر على كتاب أستاذه كذا في ولب الانساب .
 - (٣) تدريب الراوى .
 - (٤) ٢٨١/٢ بدائع الزهور لابن إياش .

(م — ٦ الحياة الأدبية في مصر)

- ١ — مختصر الأحكام المأوردى .
 - ٢ — مختصر الروضة في الفقه .
 - ٣ — مختصر التنبية في الفقه .
 - ٤ — مختصر الاحياء الغزالي .
 - ٥ — مختصر معجم البلدان لياقوت الحموي .
 - ٦ — مختصر تهذيب الأسماء للغزالي .
 - ٧ — مختصر تاريخ ابن عساكر ، سماه تحفة الذاكر في المنطق من تاريخ ابن عساكر .
 - ٨ — وله كتاب سماه « ديوان الحيوان » وهو خلاصة لكتاب حياة الحيوان للدعيري (تـ ٨٠٨ هـ) .
- وألف مئات الكتب ، في شتى القنون والعلوم ، فمنها في التفسير :
الدر للنور - لباب القول في أسباب النزول - تكملة تفسير الجلالين الذي كتب نصفه الأخير الجلال الحلبي (١) (٧٩١ - ٨٦٤ هـ) ، وكتب هو نصفه الأول - الإتيان - وغير ذلك . وللمصطفى الباع الطويل في التفسير بالمأثور .
وتبلغ مؤلفاته في الحديث أكثر من ١٦٠ كتابا ، من أشهرها : الجامع الكبير - والجامع الصغير . ويقول المصطفى عن نفسه : ليس على رجلي الأرض من شرقها إلى مغربها من هو أعلم بالحديث والعربية مني (٢) .

(١) راجع ترجمته في ١/ ١٨٨ حسن المحاضرة .

(٢) تدريب الراوي - المقدمة .

وله في الفقه عشرات المؤلفات ، ومنها : جمع الجوامع ، وكتاب الجواهر في
الفرائض ، وكتاب « أدب الفقيه » .

وفي علوم العربية كان له القدر المثل ، وله فضل السبق في ابتكار علم
أصول اللغة والنحو ؛ وكان يعد من كبار المصنفين في العربية . ويقول عن
علم أصول اللغة : هو علم اخترعته لم أسبق إليه ، لم يسبقني إليه سابق ،
ولا طرق سبيل طارق (١) ، ومن أجل كونه في هذا المجال : شرح ألفية
ابن مالك ، الفتح القريب على « معني الألب » ، الاقتراح في أصول النحو ،
الأنشاه والفظائر ، المزهر .

وفي علوم البلاغة : ألف الكثير من الكتب ، ومن بينها : عقود الجمان
في المعاني والبيان .

وفي الأدب له عشرات الكتب : من بينها : ديوان خطب - ديوان
شعر - المقامات - درر الكلام وغرر الحكم - شرح بانت سعاد - فضل
الشعراء . الخ .

وفي أدب الرحلات نجد له : الرحلة المكية - الرحلة الدمامية -
الرحلة الفيومية .

وفي التاريخ نجد في مقدمة مؤرخي عصره ، وله في هذا المضمار كتب
كثيرة ، منها : تاريخ الخلفاء - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة -

(١) ٦/٦٧٦ كشف الظنون نقلا عن الخرس .

تاريخ السلطان الأشرف قايتباي - تاريخ أسبوط - تاريخ الصحابة . وغير ذلك مما يدل على منهجه التاريخي الذي بلغ فيه . وبه غاية التحقيق ، وله كتاب في تاريخ جامع عمرو ، وآخر في تاريخ جامع ابن طولون .

وفي التراجم محدثه كتبها كثيرة ، منها :

- ١ - طبقات الدهريين واللغويين : الكبرى وهي مقنونة ، والوسطى طبعت في باريس ، والصغرى هي التي طبعت بعنوان « بغية الوعاة »
- ٢ - طبقات الكتاب .
- ٣ - طبقات شعراء العرب .
- ٤ - طبقات القسرين .
- ٥ - طبقات الحفاظ .
- ٦ - طبقات الأصوليين .
- ٧ - طبقات الشافعية .
- ٨ - حلية الأولياء .
- ٩ - معجم شيوخ الكبير والصغير .
- ١٠ - تبليغ الصديقة في مناقب أبي حنيفة ، طبع في حيدر آباد سنة ١٣١٧ هـ .
- ١١ - تزيين السالك في مناقب مالك ، وهو في الخرافة القيمودية .
- ١٢ - المتماح السوي في ترجمة النروي .
- ١٣ - ترجمة البلقيني (وهو أستاذ الميوطي) .

- ١٤ — النور الباسمة في مناقب السيدة آمنة .
١٥ — القوائد الكامنة في مناقب السيدة آمنة .
١٦ — نظم العقيان في أعيان الأعيان ، فيه مائتا ترجمة لأعلام عصره ،
وقد نشره فيليب حتى .

وله العديد من الكتب في التصوف ، ومن بينها :

- ١ — قمع المعارض في نصرة ابن الفارض .
٢ — تنبيه الفقي إلى تيرنة ابن عربي .

تقد انتشرت مؤلفات السيوطي في العالم الإسلامي كافة ، وأقبل عليها الطلاب والدارسون والعلماء يشوق ولذة ، وأذن السيوطي في حياته لتعليمه الداودي بروايتها ؛ وقرئت في بلاد الشام والحجاز واليمن والروم والمجسم والحشة والغرب وبلاد السكرور ، وامتدت إلى البحر المحيط (١) . وبالمثل سارت فتاواه وعلموه في سائر الأقطار مسير الشمس ، ورزق من القبول من علماء عصره عالم برزقه أحد سواه .

وقد كان لمكانته العلمية والأدبية ، وأسلوبه السهل الممتنع ، ولتحقيقاته الثريفة ، وإحاطته الواسعة بشق المصادر ، ومختلف المذاهب ، والآراء ،

(١) ٦٦/٤ الضرع اللامع للسخاوي .

ولشخصيته الحرة الشجاعة التي لا تفعلق حاكما ، ولا تنزلف اكبير ؛ كان لذلك كله أثره في عموم النفع بعلمه وكتبه ؛ إذ كان الشعب يرى فيه صورة الأئمين على الشريعة ، والشجاع في قول كلمة الحق ، والنزيه في أحكامه ونقاواه كان السيوطي مخلصا لنظم وحاده ، صادقا فيه مع نفسه ، بعيدا عن الملق والتمزلف والرياء وسحب الدنيا والرياسة والجاه ، شديد المراقبة لله عز وجل (١) ، وإن غضب عليه الحكام والسلاطين ، ولم يلاق في سبيل جبرأته وشجاعته ورأيه الحر الكثير من العنف .

أرسل إليه السلطان الغوري غلاما وألف دينار ، فرد الدينار وأخذ الغلام وأعتقه ، وقال لمرسل السلطان : لا تعد تأتيها قط بهدية فإن الله أغنانا عن مثل ذلك .

وكان الأمراء يزورونه ويعرضون عليه «ندايام» وهيأتهم فيردعها (٢) . وقد عرض عليه الغوري زياصة «شيخة مدرسته بأول الغورية فرفض وقيل البقاء في عزلة» (٣) .

ولم يكن يكثرث لغضب الأمراء والسلاطين ، وكان الحرص على إقامة الحدود وتطبيق الأحكام الشرعية ، مهما كلفه ذلك من عنت .

رفض جلال الدين الذهاب مع العلماء تهنئة السلطان بالشفاء من مرض

(١) مقدمة تدریب الراى .

(٢) ٦٦٣ المزهري .

(٣) ٧١ ذیل العلیقات الكبرى للشعرانی .

ألم به ، ذاهبا إلى أن عدم ذهاب العدا للملوك والحكام سنة ، وألف في ذلك كتابه « رواية الأساطين في عدم الحى إلى السلاطين (١) » . وذهب ذات مرة لمقابلة قايتباى في مظلة لإنسان ، وعلى رأسه الطيلسان ، مما خاف فيه التقاليد المرعية آنذاك ، ومما أخذ عليه عند السلطان فرد على ذلك بكتابه « الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان » .

وحين عزل من مشيخة البيهرسية كتب كتابا عقرا له : « التفتيس في ترك الفتيا والتدريس » .

وكان من أجل تلاميذ جلال الدين : الداودى (- ٤٥٥ هـ) ، والشامى المحدث الحافظ (- ٩٤٣ هـ) ، وابن طولون الدمشقى المحدث (٨٨٠ - ٩٥٣ هـ) ، وسواهم .

وكان السيوطى كثيرا ما يندره في كتبه بنفسه وتؤلقاته وبآرائه فيها ، حتى لنقرأ في آخر حاشيته على الفنى : وقد أودعتها من الفوائد والفرائد والفرائب والزوائد ما لوازمه غبرى لم يكن له إلى ذلك سبيل . وفي آخر كتابه « بغية الوعاة » يقول عن الكتاب : الجامع من كل شريدة ووريدة العجيب العجائب (٢) ، وكذلك كان في كل كتبه ، يقول في أنواع البديع : قورن فيها بضعة عشر نوعا من الأنواع البديعية ، ثم وقع لي التعامل فيها بعد ذلك ، ففتح الله بزيادة على ذلك ، حتى جاوزت الأربعين ، ثم قدمت الفسك إلى أن

(١) ١١٩/٢ بدائع الزهور لابن أبياس .

(٢) ١٦٠ بغية الوعاة للسيوطى .

وصلت بمحمد الله مائة وعشرين نوعاً (١) ؛ وقد استخرج السيوطي هذه الأنواع كلها من الآية الشريفة « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » إلى آخر هذه الآية الكريمة ، ومن الأنواع التي ابتكرها ماسماه بالتأسيس والتفريع (٢) ، وما سماه بالانسجام (٣) ، أو بالمتشغل (٤) ، أو بحسن الطلب (٥) إلى غير ذلك .

وقد دفعت المنافسة إلى إعلان الخصومة بينه وبين السخاوي انتهى اتهمه بعدم الأمانة العلمية فيما يكتب فكتب السيوطي في الرد عليه كتابه المشهور « السكاوي في تاريخ السخاوي » كما عرض به في كتب أخرى له . والسيوطي بخاصة من أكثر العلماء التزاماً بالأمانة العلمية ، حتى نراه يذكر في مقدمات كتبه دائماً « المصادر » التي رجع إليها وأخذ منها ، في حرص تام على الأمانة العلمية ؛ في كل ما يكتبه ، يذكر في كتابه المزهر (٦) بالأجل عنوانه « عزو العلم إلى فائده » ويقول فيه : لا ترائي أذكر في شيء من تصانيفي حرفاً إلا معزواً لقائله ومن المصادر التي يذكرها السيوطي في مقدمات كتبه تجده قد اطلع على كثير من المخطوطات التي لم يطلع عليها الكثير من علماء عصره .

(١) فتح الجليل للعبد الذليل .

(٢) ١٢١ عقود الجنان للسيوطي .

(٣) ١٣٥ المرجع نفسه .

(٤) ١٣٨ المرجع نفسه .

(٥) ١٥٥ المرجع نفسه .

(٦) ٢١٩/٢ المزهر .

ويحق لقد كان مغفرة من مفاخر عصر الثقافية ، وسيفل تراثه خالدا
على مر الأيام .

والسيوطي كان يرى في نفسه أنه المبعوث على رأس القرن التاسع الهجري
ليجدد للأمة الإسلامية دينها ، مصداقا للحديث الشريف : « إن الله يبعث على
رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها » ويقول السيوطي : ومن
الطائفتين المبعوثين على رأس أكثر القرون مصريون : عمر بن عبد العزيز (١)
في المائة الأولى ، والشافعي في الثانية ، وابن دقيق العيد في السابعة ، والبيهقي
في الثامنة ، وعنى أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة من أهل مصر (٢)
وهو يعني بذلك نفسه .

وكان السيوطي - كثير الاجتهاد في عصره ، وكان يرى أن الاجتهاد
فرض كفاية مفروض على العلماء أو خاصتهم ، وألف في ضرورة الاجتهاد
كتابا سماه « من أدخل إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض » ،
وقد تحدث في هذا الكتاب عن الاجتهاد وضرورته في كل عصر ، لأنه
فرض من فروض الكفاية ، وواجب على أهل كل عصر أن يقوم به طائفة
في كل قطر منهم ، ويحتوي هذا الكتاب على أربعة أبواب :

- (١) كان أبوه عبد العزيز بن مروان أميراً على مصر في عهد أخيه عبد الملك
ابن مروان ، وقد أنشأ عمر بن عبد العزيز طقوسه الأولى في مصر .
(٢) ١٧٥١ حسن الحاضرة .

الأول : في نصوص العلماء على أن الاجتهاد في كل عصر فرض من فروض الكفاية .

والثاني : في نصوص العلماء على أن الدهر لا يخلو من مجتهد ، وأنه لا يبرز عقلا خلو العصر منه .

والثالث : في ذكر من حث على الاجتهاد وأمر به ، ودم التقليد ونهى عنه .

والرابع : في فوائد الاجتهاد .

وهو في هذا الكتاب يقف مع العصر ، ومع العقل وينأى عن التقليد والمقلين . .

كملت عند السيوطي أدوات الاجتهاد على ما اشترطه الأصوليون ، فكان عللا بآيات الأحكام وأحاديث الأحكام ، وشروط القياس ، ومعرفة مواقع الإجماع ، غير أنه لم يجتهد بالفضل إلا اجتهاد المذهب ، بالترجيح ، على مذهب الإمام الشافعي (١) . ويقول السيوطي : أجمع عندي - بحمد الله - الحديث والنقح والأصول وسائر الآلات من العربية ؛ فأنا أعرف كيف أتكلم ، وكيف استدل ، وكيف أرجع (٢) . ويقول : وقد كملت عندي أدوات الاجتهاد - بحمد الله - ولو شئت أن أكتب في كل مسألة تصنيفا بأقوالها وأدلتها العقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والمقارنة

(١) مقدمة كتاب تدريب الراوي تحقيق د. عبد الوهاب عبد الحفيظ .

(٢) السكاوي في تاريخ السخاوي .

بين اختلاف المذاهب فيها قدرت على ذلك (١) .

ويقول : وقد كملت عهدي الآن أنوات الاجتهاد بحمد الله تعالى أقول
تحدثنا ذلك بنعمة الله عز وجل (٢) .

ويعتلية المجتهد أثرى السيوطي العلم ، وأثرى التراث الإسلامي ،
وأثرى الثقافة الإسلامية .

وهكذا نرى شخصية الإمام السيوطي الجليلة - في كل شيء - شخصية
جعمت منه أعظم رواد الثقافة الإسلامية في القرن التاسع الهجري ، وهي
شخصية العالم العامل من أجل وطنه وعروبته ودينه ، شخصية المعتز
بنفسه وكرامته .

شخصية المجتهد ماشاء له الاجتهاد ، الخالص لعلم إخلاصاً شديداً ، الصادق
كل الصدق ، السكاره لاتفاق والرفق والرياء ، والملق بالحكام ، المتعفف الزائد
في المال لا يقبل شيئاً منه إن أتاه من حاكم أو أمير أو غنى ؛ شخصية العالم
المفكر والفقيه الأصيل والأديب البلوغ ، صاحب الأسلوب البارع الجميل
والمضامين الإنسانية الرفيعة ، مما تجود في رسائله وشعره وفي مقدمات كتبه ،
وفي مقاماته ، وعلى الأخص ومقامته اللائقة التي ذكر فيها أسباب تركه للتدريس

(١) ٣١٨/٢ الحاوي للسيوطي .

(٢) ١٤١/١ حسن المحاضرة .

وعكذا تصدر السيوطي مراكب العلماء في عصره ، حتى كان شاعرة
فكرية فريدة في تاريخنا العلمي والثقافي الطويل .

كتبه المطبوعة والمخطوطة في كل مكتبات العالم ، وفي مكتبة الأزهر
الكثير من مؤلفاته المخطوطة ، وفي مكتبة جامعة الرياض أكثر من سبعين
مخطوطة له ، وقد صدر بها فهرست خاص ، والدراسات عنه تنمو على مدى
الأيام ، وكتبت عنه رسائل جامعية كثيرة .

فليس يعجب أن يصبح السيوطي في عصره وبعد عصره رائداً للثقافة
الإسلامية الخالدة ، وأن يكون في عصره كالجاحظ في عصره ، كلاهما بعد
عن حياة الوظائف والمناصب ، وكلاهما كان ممثلاً لشعبه ولعصره ولحياته
نفسها ، وكلاهما تصدر زعامة الثقافة الإسلامية العربية في أيامه .

أضاف السيوطي إلى سجل تراثنا الخالد من الثقافة الإسلامية حتى عصره
إضافات كثيرة في كتبه ، مما جعل العالم الإسلامي كله يتطلع إليه وإلى
مصر ومدارسها وجامعاتها السكينة الأزهر الشريف ، وإلى تراث علمائها
الحقوقيين ، بكل حب وتقدير وإكبار .

لقد أكتب السيوطي وطفه مصر مجداً كبيراً ، خالداً على مروز الأيام ،
رحمه الله وأجرل مثويته .

مظاهر الأدب في العصر المملوكي

١ — الكتابة الفنية وأشهر الكتاب

تمهيد :

تقصد بالكتابة هذا الفن اليليق الوضئ بحلى اليديع والحسنات ، الذى كان الكتاب ينشرونه فى هذا العصر ، ويضمونه رسائلهم المختلفة ، ويسمى بالكتابة الفنية أو الإنشائية ، وأهم مايشمله هو :

١ — الرسائل الدبلوماسية التى تصدر عن ديوان الإنشاء باسم سلطان مصر ، وتعبير عن شئون الدولة المختلفة من سياسية وعسكرية واقتصادية وغيرها ، وكان رؤساء ديوان الإنشاء هم الذين يقولونها ، وتتناول كل مايصدر عن الحضرة السلطانية إلى مختلف الجهات من الأوامر والراسيم ، ومكاتبات السلطان إلى العمال والقواد والممرك والأمرأ ، وتقليد الوظائف وتوجيه الجيوش والتهنئة بالنصر ، وسرى ذلك من شق الأغراض .

٢ — الرسائل الأخوانية ، وتضمن مايكفيه الأدباء بعضهم إلى بعض من رسائل فى المدح والثناء والفخر والهجاء والاستعطاف والعتاب ، والحبية ، والرجاء ، والشفاعة والاستهداء ، وسوى ذلك من شق المروضات والأغراض .

٣ — الرسائل الأدبية ، التى ينشئها الكتاب يصورون فيها عواطفهم ومشاعرهم ، ويضمونها وصف الطبيعة ، والجروب ، ومشكلات الثقافة والأدب والفن ، وكل ماينخطر ببالهم مما يتصل بالنفس والمجتمع والحياة .

٤ — فن المناظرات والمناخرات ، ومن أمثاله « المناخزة بين العلوم » (١) لقلقشندی ، والمناخزة بين السيف والقلم كذات (٢) ، وسواهما . والمناخزة هي المناظرة وتزيد عليها لأنها تكون في مقام التناخر والتنا . وهذا الفن هو من ابتكار الأندلسيين ، وقد ذاع في المشرق . وبرع فيه الأدباء المصريون براعة فائقة .

٥ — فن المقامات ، ومن كتابه في هذا الفن جماعات كثيرة ، منهم ابن خييب الحلبي ، والقصاب الفريفي (٣) وابن نباتة ، والسيوطي ، وسواهم .

تطور الكتابة في هذا الفن :

١ — لما كان هذا النوع من الفن من نحو الرسائل والتمائم والمناخرات والأخبار والقصص والسير والاجازات العلمية ـ منارا للخيال ومظهر الحركات الوجدانية والشعورية واظهار التفوق في براعة القول والحذق في الصناعة اللغوية ، اصطبغ منذ القرن الرابع وما بعده من القرون بصبغة يغلب فيها تفضيل جانب الانط على جانب المعنى ، فالتزم فيه الصنيع القصير القترات غالبا ، واستعملت الأساليب الشعرية في الشرح والاستدلال ، بالإكثار من الأخيلة والتشبيهات والاستعارات البديعة ، وقلة المعاني المخترعة ، فاضطر الكاتب إلى حلق كثير من أبيات الشعر ذوات المعاني الجميلة ، وإلى الاقتباس

(١) ١٤ : ٢٠٤ صبيح الأعشى .

(٢) ١٤ : ٢٢٢ المرجع نفسه : وتسمى : حلبة الفضل وتروية الكرم في المناخزة بين السيف والقلم ، ومنها نسخة محفوظة في دار الكتب المصرية .

(٣) ٢ : ٢١١ فوائد الوفات .

من القرآن والحديث والأمثال لفظاً ومعنى ، حتى سمي الأدباء هذا النوع بالشعر المنثور . وأول من أشاع هذه الطريقة ابن العميد وزير آل بويه وتلقاه كثيرون ممن عاصروه أو جاءوا بعده ، وكان ابن العميد هذا رأس كتاب المشرق ، وفارس حليتهم ، ومع أنه إمام طريقة الشعر المنثور لم تخط كتابته في البالنة كما انحطت كتابته تابعيه في طريقته من المتأخرين ، وكان يقال فيه : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بإبن العميد ، وجاءت بعده طبقة من تلاميذه من أمثال صاحب بن عباد م سنة ٣٨٥ هـ وكان يلتزم السجع أكثر من ابن العميد ، وأولع بالجناس ، ومن أشهر كتاب هذه الطريقة بدیع الزمان الهذلي ، والخوازمي والصافي ، ثم الحريري صاحب المقامات المشهورة .

٢ — وكانت كتابة الألقاب والقرى في مصر في عهد الفاطميين والأيوبيين على مثل ما كانت عليه في الشرق من اتباع طريقة ابن العميد ، بل ربما قل فيها التزام السجع ومحسنات البديع ؛ واشتهر ممن نسج على مفوالها العماد الكاتب الاصبهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ولسأ نيه شأن القاضي الفاضل م ٥٩٩ هـ أراد أن يحاكي كتاب المشرق في البديع ، فزاد عليهم وأرى واخترع طريقة جديدة تسمى الطريقة الفاضلية وذلك أنه جرى من قبله من كتاب المشرق في التزام السجع والجناس والعلوق ، وزاد عليهم أن يستعمل في رسائله أكثر أنواع البديع التي كانت فاشية وقتئذ في الشعر ، وأثر من حل المنظوم واقتباس الآيات ، وتضمن الأمثال ومشهور الأقوال . وأكثرت جداً كذلك من استعمال القورية فاستدعى ذلك إحالة السجعيات طويلاً أخرجها عن التأليف ، لأن القورية يحتاج فيها إلى ذكر موشحات وقرائن لمحتبها القريب والبعيد ، وأمن في التشبيه والاستعارة مع قلة البالاة بالمبالغة ، والاعراق

في ذلك ، حتى جاءت معاني رسائله متفاداة لألفاظها وأساليبها ، غير أن هذا الشكاف لم يظهر في رسائله هو بقدر ماظهر في رسائل من خلفه في دواوين الإنشاء بحصر والشام لسلامة ذوق الرجل وانطباعه على طريقته وسعة مادته في اللغة ووفرة محفوظه من الأدب . ، ويلقب العماد الكاتب بعدة المثشين ، والفاضل القاضى بشيخ البلاغة .

٣ - وقد سار الكتاب في العصر المملوكى على طريقة القاضى الفاضل ، وجرى في حلية الكتابة من ليس له مثل مواهبه وبلاغته ، وحسبوا أن البلاغة تلك الضيعة بحلى البديع وزينته ونشبهه ، وبالاسترسال في تكلفه وتصديده ، وأمرؤوا في ذلك بإسرافاً أبعد للكتابة عن أساليب البلاغة العربية جملة .

وهكذا أخذت الكتابة الفنية في الضعف ، لشغف الكتاب بزين الألفاظ وتجميلها بالسجع وغيره من ضروب التحلية ، وانصرفهم عن العناية بالمعاني والأفكار واختيار الأساليب الثلاثة لها . ، فإذا قرأنا رسالة لكاتب في هذا العصر وأبدا أنها - في الكثير الغالب - لا تشتمل على معنى رائع ، أو فكر بديع ، لأن صاحبها كان يفكر في الألفاظ المزخرفة أولاً ، ليؤلف مقام المعاني ثانياً . وفي هذا مناقضة لأصل الفطرة ، لذلك جاء الكلام متراكماً ضعيفاً ، وهذا الضعف لم يكن جديداً في هذا العصر ، بل إنه حادث قبل سقوط الدولة العباسية بزمان غير يسير ، غير أن الكتاب هنا انحوا مغى القاضى الفاضل في طريقته ، وهي التزام السجع والنورية ، وغالوا في ذلك غلوا وأباه القويق ، وبفكره الطمع السليم ؛ ولعل من اسباب ذلك تمكن غريزة التقليد من هؤلاء الكتاب ، وتحكمها في قلوبهم ، حتى اكتنهم نسوا بلاغة العباسيين الأولين ، وعجزوا عن الإتيان بنظائرها .

وقد نشأت جماعات من الفقهاء راعهم ضعف الكتابة وتخاذلها ، وحاولوا إصلاحها وتجديد مناهجها ، فالنويرى فى كتابه « نهاية الأرب » يرجع هذا الضعف للمحوظ إلى دخول المدعين فى وسط النقشيين ، فيقول : « وقد اتسع الخرق فى ذلك ، ودخل فى الكتابة من لا يعرفها البتة ، وزاد على الإحصاء ، حتى إن فيهم من لا يفرق بين الضاد والطاء » ، وصار الآن حد الكتابة عند هؤلاء الجهال ، أن يكتب أحدهم على الحجر مدة ، ويؤمن بزعمه أسطراً ، فإذا رأى من نفسه أن خطه قد جاد أدق جودة ، أصلح بؤته وركب برؤونه أو بفلته . وسمى فى الدخول إلى ديوان الإنشاء والاندماج إلى أهله ، ولعل الكتابة إنما حصل ذمها بسبب هؤلاء ، وأمثالهم » ، وقد در القائل :

تمس الزمان لقد آتى بمجباب ومعا صنوف الفضل والآداب
وآتى بكتاب لو اتسعت يدي فيهم رددتهم إلى الصكتاب

ويعمل ذلك القلقشندى فى كتاب « صبح الأعشى » بالعجبة السائدة فى نفوس الرؤساء ، وعدم استطاعتهم الفرق بين غيبى وبلغى ، وضائع منزلة البلغاء المتكئين لديهم ، وتزويهم لضعاف الملكات ، وأنصاف المترسلين ، فيقول : « وإنما تناصرت الحمم عن التوغل فى صناعة الكتابة والأخذ منها باللفظ الأوفى ، لاستيلاء الأعاجم على الأمر ، وتوسيده لمن لا يفرق بين البلغى والانوك لعدم إلمامه بالعربية ، والدرجة بتقاصدها ، حتى صار الفصحى لديهم أعجم ، والبلغى فى مخاطبتهم أوكم ، ولم يسع الأخذ من الصناعة بحظ إلا أن ينشد :

(م ٧ — الحياة الأدبية فى مصر)

وصناعتى عربية وكأنتى ألقى بأكثر ما أقول الروما
فلن أقول وما أقول وأين لى فاسير ، لا بل أين لى فأفيا ؟

ويقول ابن خلدون فى مقدمته فاقداً أهل عصره فى الكتابة : « وقد
استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه فى المتنوع ، من كثرة الأسجاع ،
والتزام التقفية ، وتقديم السبب بين يدى الأغراض ، وصار هذا المتنوع
إذا تأملته من باب الشعر وفنه ، ولم يفرقاً إلا فى الوزن . واستمر المتأخرون
من الكتاب على هذه الطريقة ، واستعملوها فى المخاطبات السلطانية ، وقصروا
الاستعمال فى المتنوع كله على هذا الفن الذى ارتضوه ، وخطأوا الأساليب
فيه ، وهجروا المرسل خصوصاً أهل المشرق » . . ثم يقول : وما حل عليه
— أى على هذا الأسلوب — أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم
وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه من مطابقة مقتضى الحال ، فمجزوا
عن الكلام المرسل ليمد أمدّه فى البلاغة ، وانفساح خطوره ، وولعوا بهذا
الصنيع ، يلفقون به مناقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ، ومطابقة
الحال فيه ، ويمجرونه بذلك القدر من التزين بالأسجاع والألقاب اليدوية ؛
ويغفلون عما سرى ذلك ، وأكثر من أخذ بهذا الفن ، وبالغ فيه فى سائر
أنحاء قولهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد ، حتى إنهم ليخلون بالإعراب
فى الكلمات والتصرف إذا دخلت لهم فى تجنيس أو مطابقة لا يهتمون معها ،
فيرجعون ذلك الصف من التجنيس ، ويدعون الإعراب ، ويفسدون بنية
الكلمة ، عساه تصادف ذلك التجنيس .

وجملة الأسباب فى ضعف الكتابة فى هذا العصر ما يلى :

١ — ضعف الملكات والمواهب بشيوع المعجزة والى ، وبغلبة الأعاجم على الأمر في البلاد الإسلامية ، وعدم تشجيعهم لذوى الخلق الأوفى في صناعة الأدب والإنشاء .

٢ — ضعف الثقافة الأدبية ، وقلة محصول كثير من الكتاب في العلوم العربية .

٣ — العزلة التي عاش فيها الأدباء في هذا العصر ، فلم يكن لأكثرهم رحلات وسياحات خارج إقليم مصر والشام والحجاز بسبب الحروب والفتن ، مما جعل البلاغة العربية تفر قليلا قليلا في نفوس المنشئين والمترسلين .

٤ — عدم وجود مواطن عديدة للأدب في هذا العصر ، تتنافس فيها فيها في تشجيع الأدباء والكتاب كما كان موجودا من قبل في العصر العباسي الثاني ، واقتصرت مواطن الأدب على القاهرة ودمشق والقدس والندن المنيعة في إقليم مصر والشام ، وكلها تخضع لمؤثرات أدبية واحدة .

٥ — مجازية هذا العصر للثقافات العقلية من فلسفة ومعتقد وجدل وسواها . وقد ظهر نفوذ المجتمع الإسلامي لهذه الثقافات في الأندلس أولا وفي البلاد العربية في عهد الأيوبيين ثانيا ، فقد كان صلاح الدين الأيوبي — كما يقول صاحب النجوم الزاهرة — مبعضا لكتب الفلاسفة وأزواج المنطق ، وقد قتل السهروردي في حلب عام ٥٨٨ هـ في عهده (١) ، وقد أنقذ ابن الصلاح الشهرورزي م ٦٤٣ هـ بتحريره الاشتغال بالفلسفة والمنطق ، وهكذا كانت البيئة

السفينة في عهد الأيوبيين تحارب العلوم العقلية حرباً شديدة ، في مناطق واسعة من العالم الإسلامي . واستمر هذا الكره للفلسفة والنطق سائداً في عصر الماليك ، حتى ليقول الأدقوى في كتابه « الطالع السعيد » في رجل من أقربائه كان يشتغل بالفلسفة : ومرض فلم أصل إليه ، ومات فلم أصل عليه (١) ووصف إقليم قوص ، واختص مدينة « قفا » بذكر محاسنها فقال : ولا يكاد يوجد بها أجذم ولا أبرص ولا مجسم ولا معتزل ولا فيلسوف ولا مجرم ولا وثني (٢) . . ولا شك أن الجهل بالعلوم العقلية أضعف ملكات التفكير والخيال عند الأدباء .

٦ — فساد الذوق وانتشار التقليد ، وعموم الجمود الذي انتاب العامة والخاصة على السواء .

ومن الانصاف في القول أن نقول إن الكتاب في هذا العصر انقسموا إلى فريقين :

١ — الفريق الأول المتلون من اتباع طريقة القاضي الفاضل وهؤلاء هم الأكثرون ، وقد أصبحت الكتابة على أيديهم قليلة ضعيفة — يشوهها الاغراق في التحسين والتزيين ، وهذا في مصر والشام واللغة فيها عربية والحكام يتظاهرون بحب اللغة والأدب ، فما بالك بالمرق وفارس وما عيط بهما واللغة إما مغربية أو فارسية أو تركية . والحكام لا يعرفون من العربية قليلاً

(١) ص ٧٥ الطالع السعيد

(٢) ص ١٩ المرجع نفسه

ولا كثير (١) .

٣ — فريق النقاد الثأرين على التقليد من أمثال ابن خلدون والقلقشندي والنيرى وسواهم ، ومذهبهم في الكتابة التحرر من قيود المناهات ، والسير مع الطبع ، والتعبير عن النفس ، ومحاربة التكلف للمقوت في الأداء . . . وهؤلاء هم الذين حفظوا على العربية بعض روائها ، وعلى الكتابة الفنية شيئاً من بهجتها وازدهارها في هذا العصر .

خصائص الكتابة في العصر للملوكي :

١ — أما من حيث اللغائي والأخيلة فقد كان محصولها قليلاً ، وكان الجديد منها نادراً ضئيلاً . . مذهب العصر أن الألفاظ قليل اللغائي ، وأن العناية باللفظ يجب أن تكون هباء الكتابة ومسر بها ؛ واللغائي تلى الألفاظ في اللزلة ، فلا يوجه الكاتب إليها عناية إلا أخيراً ، ومرد ذلك في الأعم الأغلب إلى ضعف الثقافة ، وقلة استحكام العقل ومراسه ، وضآلة ما يتجمع في حقول الكتاب من أفكار وأخيلة ومعان ، اللهم إلا ما يتردد في أذهانهم حفظاً ،

(١) أما الأندلس فقد ازدهرت فيها الكتابة الإنشائية في عهد ملوك الطوائف ثم تغيرت حالتها بعد ذلك وطرأ عليها في هذا العصر ما طرأ على الكتابة الإنشائية في مصر من المحسنات والرخايف اللفظية ، غير أن الأندلسيين اقتصرُوا على قليل من المحسنات كالجمع والنورية وغيرهما ، وكان السجع أقصر فقرات وأكثر استعمالاً ، حتى في الكتابة العادية فقلبا نجد كتاباً في التاريخ أو غيره من العلوم إلا وهو مرسوف بالأسجاع التي تقلل من فائدته . . . وأما بلاد المغرب فقد كانت الكتابة الفنية فيها ضئيلة الحظ من الرواق والبلاغة ، لا يكاد يبين الكاتب فيها يكتب عن المعنى الذي يريده .

وما يجوز منها تقليدا . ومن ثم كان قصد الكاتب مقبها إلى الأسلوب والألفاظ والزخرف اللغوي أولا ، ثم إلى ذلك خضوع المعاني لسيطرة اللفظ وهيمنته أخيرا .

٢ — وأما من حيث الأغراض والموضوعات فقد سبق أن قلنا إنها شملت الرسائل الديوانية والاخوانية والأدبية والمقامات والمناظرات كما شملت الأخبار والسير والتقصص والاجازات العلمية ، وبذلك تناولت الكتابة أغلب الموضوعات والأغراض التي كانت سائدة من قبل في العصر العباسي الثاني .

٣ — وأما من حيث الأسلوب والألفاظ فقد شاعت طريقة الفاضل بخصائصها للعزوفة من السجع الطويل الكثير الفقرات ، ومن المحسنات كالطباق والجناس ومراعاة النظير والتورية والاستخدام ، وقد بالغ الكتاب في هذا العصر في التزام هذه الطريقة فنكان الكاتب يعتمد الانتيان بهذه المحسنات مهما كلفه الأمر من شعط ، وكان ذلك يضطره إلى التمسك لها والاحتياط برصف الألفاظ الزائدة للوصول إليها . وهذا يسلمه إلى التطويل الممل والتجاوز عن المعنى الرائق حرصا على تمجيد مبدعه وهو الزخرفة اللغوية . وقد اشتد ولع الكتاب بمحاكاة القاصي الفاضل ، ولكنهم عجزوا عن الإجابة كما أجاد ، وتغير حال الكتابة الإنشائية من ناحية أساليبها فأخذت تنزل إلى المستوى النازل التي يلقته في العصر العباسي ، وكان أكبر ما يلبت به تلك المصطلحات التي كانت من أمر الحياة الفارغة السائدة في هذا العصر ، تلك المصطلحات التي فرضت فرضا على الرسائل الديوانية والرسائل الخاصة . فقد بالغ الكتاب في ألقاب التفضيم ، وتوعدها أنواعا تفوق الحصر ، فجعلوا منها

لكل وال خلاف ما جعلوه لنوره ، ولكل ملك لقباً لا يشاركه فيه ملك
ناحية أخرى ، وللعالم غير ما يقال للقائد ، ولهذا غير ما للوزير ، وجعلوا الأفراد
كل ملائمة ألقاباً مرتبة على حسب درجاتهم ، حتى صارت هذه الألقاب في
تصنيفها تحتاج إلى معجم ضخم يرجع إليه كتاب ديوان الإنشاء. نينا يوجهونه
من خطاب . فإذا وصفوا شخصاً بالسامى خاطبوا من موقه بالمالى ، ومن
فوقهما بالكريم ، ومن فوقهم بالشرىف ، وألقوا بألقاب التضخم يا . النسب
مبالغة في دلالتها ، فقالوا في القاضى والصدر والرئيس والمفيد والشرف :
القاضى ، والصدري ، والرئيسى والمفيدى ، والشرىفى ، وقيدوا المقر بالشرىف
والجناب بالكريم والمجلس بالمالى والسامى ، ولا يصفون المجلس بالكريم
أو الشرىف ، وهكذا أنقلوا الألقاب وألزموا الناس فيها بما لم يزمهم في
شرعة الانصاف والأدب الكريم والاعتدال للناسب . . وزاد أسلوب
الكتابة تعقيداً وغموضاً حرص الكتاب على القرينة بمصطلحات المعلوم
وما يتعلق بها ، كقول محيى الدين بن عىد الظاهر - حرص الله نعمة مولاي ،
ولا خاطبت الأيام ملتدسه إلا بلام التوكىد ، ولا عدوه إلا بلام الجحود
لخ » .

واشتد حرصهم كذلك على الاقتياس والتضمين كقول الصفدى في
ابن نباتة : « ولو اتدل فيؤه بالمتقى لاشتغل عن ذكر المذىب وبارقه »
ويقول فيه ابن حجة الجوى : « ثبت أن الشيخ جمال الدين تأخر في السيق
عن غول المتقدمين عصره ، وقد تقدم عليهم بيديعه وغريبه بياتا وسحرا ،
وتفننه في الطريقة الفاضلية بمذاهب ماسلكها المتقدمون . وهذا نحن نستجدى

من خواصها نظماً ونثراً ، وكَم سألَه عالم في سلوك هذه الطريقة فقال إنَّه
لن تستطيع معي صبراً ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خيراً (١) « وأَم خصائص
هذه الطريقة الحرص على التورية والاحتباس والتضمين .

ديوان الانشاء وأثره :

١ — نشأ ديوان الانشاء في عهد بني العباس ، وكان رئيسه يسمى
صاحب ديوان الانشاء ، أو صاحب ديوان الرسائل ، وقد تولاه كبار
الكتاب في الدولة العباسية ؛ وقد أنشئ في مصر ديوان للانشاء في عصر
الدولة الطولونية في عهد أحمد بن طولون ، وفي ظللال الدولة الفاطمية نما الديوان
وازدهر ، واتسعت رسالته ، وزادت مهمته ، ومما ارتئسه كاتب السر الأعظم ،
أو كاتب الدست الشريف ، وشرطوا فيمن يتولى رئاسته أو العمل فيه
شروطاً علمية وخلقية وثقافية وأدبية ، فسعت منزلة ، وكان من رؤسائه
ابن الصيرفي وابن الخلال أستاذ القاضي الفاضل . . ثم جاء عهد الأيوبيين ،
واستمر الديوان يؤدي رسالته ، وازدهر به الأدب واشتهر من رؤسائه القاضي
الفاضل الذي أضيفت إليه الوزارة ، كما أضيفت قبلاً إلى ابن الزيات وابن العميد
والصاحب بن عباد في عهد الخلافة العباسية ، وكان آخر رؤساء الديوان في
عهد الأيوبي إليها زهير ، وقد ابدع إليها زهير في الشعر والانشاء نعتاً
جديداً خرج به عن التقاليد المرسومة في صور المخاطبات وفي الأساليب ،
فهو موجز لا يحب الاطغاب ، وهو مقتصر في زينة الألفاظ . وهو نزاع

(١) ص ٧٩ كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام لابن حجة الحموي .

إلى الوضوح والبساطة ، فلا تشغله كثرة الحجاز والكتابة عن الأيضاح والبيان ، وهو ضد التكلف واللعن والعين والغموض .

٣ — رفق عهد المماليك ازدادت أهمية ديوان الإنشاء وكتابه ، واتسعت آفاقه ، وصار له النفوذ والسلطان في أكثر فروع الحكومة ، واشتهر من رؤسائه : محيي الدين ابن عبد الظاهر ، وابنه فتح الدين وهو أول من سمى كاتب السر ، وسبب ذلك كما ذكره الصفدي أن الملك الظاهر رفع إليه مرسوم أسكوه فطلب محيي الدين بن عبد الظاهر وأفكر عليه ذلك ، فأحال على الأمير سيف الدين وقال له إنه « هو الذي أمر بذلك » ، فقال الملك إنه ينبغي أن يكون للسلطان كاتب سر يتلقى المرسوم منه شفاهاً ، وكان الأمير قلاوون حاضراً في جملة الأمراء ، فرعى هذا ، ولما أصبح سلطاناً على مصر اتخذ كاتب سر ، وكان فتح الدين . . . ومن رؤساء ديوان الإنشاء : محيي الدين بن فضل الله العمري ، وأخوه : شهاب الدين وشرف الدين ، والشهاب محمود الحلبي ، وسواهم .

وقد ذكر صاحب صبح الأعشى صفات وأخلاق وآداب وثقافة صاحب الديوان ، وذكر أن من عمله أن يتصفح هو أو نائبه جميع ما يكتبه ديوانه من الولايات ، والنشورات والمكاتبات ، ويضاف إلى ذلك أن يعلق المكاتبات الواردة ويقرأها على السلطان ويحيط عنها ، وهو الذي ينظر في البريد ، واحتياط من يرسل إلى الخارج في الشؤون السلطانية ، وهو الذي يختار رجال المخابرات لارسالهم حيث يريد إلى أي جهة من جهات العدو ، وتشمل دائرة عمله المناور ، فقد كان بين القررات إلى قريب من بلبيس أمكنة عالية يقيم بها مستخدمون من قبل السلطان ، فإذا حدث حادث ببلاذ القوار أو قدوا النار

بالقصر المجاورة للقنات فينقلها من بيدهم فيوقدون النار ، وهكذا حتى يتمنى الوقود إلى المكان الذي يقرب بليس في يوم أو بعض يوم ، ومن هناك ترسل رسالة على أجنحة الحمام فيعلم السلطان بالحادث فيأخذ في التأهب » وكذلك من عمل صاحب الديوان فوق هذا أنه ينظر في الأمور العامة بما يعود نفعه على السلطان والمملكة ، وهو المشير الأول على السلطان وموضع ثقته .

وقتل العمري في كتابه المسالك عن ابن عبدوس أن « أهل هذه الرتبة لم يزل لهم الاختصاص والتقرب أكثر من كل عام وخاص ، فتمتاج الأمراء إلى مداراتهم ، وتقصّر الوزراء عن مباراتهم ، يهتمون بالسلطان إذا أرادوا ، وهم روح الدولة وعليهم اعتماد كل الناس .

ولما كان عمل هذا الديوان أشرف الأعمال تطلعت إليه النفوس وأصبح غاية كل من يسعى للجد والعظمة ، يجهد جهده في العمل بالخصائص والصفات العالية التي كانت تشترط لهذا المنصب الجليل ، وأهمها أن يكون صاحبه عالما بالشرعية والألفة والأدب بعيد الغاية في جمال الانشاء وروعة الكتابة ذا دراية تامة بكثير من العلوم العقلية والفنولية .

وكان لديوان الانشاء الأثر الجليل الفذ في ازدهار الأدب العربي في الشام ومصر ، وفي إحياء اللغة العربية ونهضتها ، وكان الكتاب والشعراء وخاصة أعلامهم يتصافون ويتناقشون في نيل هذا المنصب الجليل ، والوصول إلى تلك الرتبة العالية وخرج الديوان أعلاما من الكتاب والأدباء والشعراء ، واستمر أثره في النهوض باللغة العربية طيلة عصر المماليك ، فلما انحطت مصر تحت ظلال الحكم العثماني ، وسادت التركية ، ونال العربية الإهمال وتقدان الرعاية ،

أبطالوا ديوان الإنشاء ، فأنهى بذلك عهد ازدهار العربية ونهضتها في ظلال الحكم المملوكي . .

شواهد من الكتابة في هذا العصر :

١ — محيي الدين بن عبد الظاهر (٦٢٠ - ٦٩٢ هـ) من أوائل كتّاب هذا العصر ، وفي بيان فضله يقول الفويري : « إن كلامه يكاد يكون لأجل هذه الصناعة وعليهم حجة ، وطريقته في البلاغة أسهل طريق ، وفي الفصاحة أوضح محجة ، وهو من اتبع طريقة القاضي الناضل ، وسلك مسلكه ، كتب في ديوان الإنشاء لبيبرس وقللاون ، يقول على لسان قللاون يرد على واليه على اليمن وكان قد عزاه على موت ابنه : « ولقا - والشكر لله - صبر جميل لا تأسف معه على فائت ، ولا تأمى على مفقود ، وإذا علم الله سبحانه حين الاستئابة إلى قبضائه ، والاستسكانة إلى عفائه ، عوض كل يوم ما يقول الميثم به هذا مولى مولود ، وليست الإبل بأغلف أكبادا من له قلب لا يبالى بالصدومات كثرت أو قلت ، ولا بالتباريح حقرت أو جلت ، ولا بالأزمات إن هي توالى أو تولت » .

٢ — شهاب الدين الحلي (٦٤٤ - ٧١٩ هـ) ، من أعلام الكتاب في عصره ولي رئاسة ديوان الإنشاء ، للناصر بن قللاون ، وله كتاب « حسن التوسل إلى صناعة التوسل » ومن كتابته في وصف البليانة : « تسحر الأبواب ، حتى تخيل العرض جوهراً ، وتخيّل الهواء المدرك بالسمع لانسجامه وعذوبته في الذوق نهرآ » .

٣ — ابن فضل الله العمري (٧٠٠-٧٤٩) من أئمة أعلام الكتاب ،
ولد بدمشق ، وطاف بمصر والحجاز ، وكتابه « مسالك الأبصار في ممالك
الأمصار » يشهد بفضل .

ومن ثمر ابن فضل الله العمري ما كتبه في مقدمة كتابه « المسالك »
يقول : « ولم أقل إلا عن الأعيان الثقات ؛ من ذوي التدقيق والنظر والتحقيق
في الرواية » . ويقول في صدر رسالة ملكية : « صدرت هذه المكاتبة
إلى الجانب العالي بسلام جميل الافتتاح وثناء يظير إليه وكيف لا تظير قادمة
بمفتاح » .

وفيه يقول دلاح الدين الصفدي (١) : هو الإمام الفاضل البليغ المقوم
الحافظ ؛ حجة الكتاب ، إمام أهل الأدب ، أحد رجالات الزمان كتابه
وترسلا ، وتوسلا إلى غايات المعالي وتوسلا ، وإقداما على الأصول في غاياتها ؛
يتوقد ذكاء وفطنة ويثلهب ، وينحدر سيله مذكورة وحفظا ويتصب ، ويتدقق
بحره بالجواهر كلاما ، ويتألق إنشأؤه بالبورق المستمرة نظاما ، ويقطر
كلامه فصاحة وبلاغة ، وتندى عباراته انسجاما وصياغة ، وينظر إلى غيب
الغاني من ستر رقيق ويعوض في جلة البيان فيظفر بكبار الآثار من البحر
العميق ؛ قد استوت بديهته وأرجاله ، وتأخر عن فروسيته من هذا الفن رجاله ،
يكتيب من رأس قله بديها ما يعجز تروى القاضي الفاضل أن يدانيه تشبيها ،
وينظم من المنطوع والقصيد جواهرأ يتجمل الروض الذي باكره الحيا من ذرأ ،
صرف الزمان أمرا ونهيا ، ودبر المالك تنفيذأ ورأيا ، ووصل الأرض إلى بقله

(١) فوات الوفيات ١ : ٩

ودويت توافيقه وهي سجلات لحكمة وحكمة (١) .

٤ — السيوطي جلال الدين (٨٤٩ - ٩١١ هـ) يقول من ترجمته لنفسه في كتابه حسن المحاضرة : وشرعت في التصنيف سنة ٨٦٦ هـ ، وبلغت مؤلفاتي إلى الآن ثمانية كتب ، وسافرت بحمد الله إلى بلاد الشام والحجاز ، واليمن ، والهند والغرب والشرق ، ورزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو واللغوي والبيان واليدع على طريقة العرب والبلغا ، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة . والذي أعتقد ، أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم سوى الفقه والتفوق التي اطلعت عليها فيها لم يصل إليه ، ولا وقف عليه أحد من أشيائي ؛ فضلا عن دونهم . وأما الفقه فلا أدعي فيه ، بل شيعني فيه أوسع نظراً ، وأطول بالـ . ودون هذه السبعة في المعرفة : أصول الفقه ، والجدل ، والتصريف ، ودونها : الإنشاء ، والترسل والقرائن ، ودونها القراءات ، ولم آخذها عن شيخ ، ودونها الطلب . وأما علم الحساب فهو أعسر شيء على ، وأبعد من ذهني ، وإذا نظرت فيه مسألة تتعلق به ، فكأنما أحاوله جنيلاً أحله (٢) .

٥ — ابن نباتة المصري (٦٨٦ - ٧٢٨ هـ) ، يقول فيه ابن حجة الحموي : مشى ملوك الأدب قاطبة بيد القاضي الفاضل تحت أعلامه ، وكسب إلى الصقدي برد عليه حين سأل أن يميزه برواية مصنفاته وآثاره الأدبية ؛ (١) راجع أحد فصوله في هذا الكتاب آنفا .

(٢) ١ : ١٤٠ ١٤١ حسن المحاضرة ، ومن مؤلفات السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة وبه . ٣٣٠ ترجمة : الزهر في علوم اللغة وأنواعها وهو جزماني : الأشباه والنظائر . الاتقان في علوم القرآن ، تاريخ الخلفاء ، وسواها .

« وأما مصنفاتي التي كالياسمين لا تساوي جميعها ، أولولا الخزانة السلطانية الملكية للأيدية تجريها ما استطعت نصيبها ورقمها ، فهي : كتاب مجمع القرائد ، القطر النبائي ، شرح العميون في شرح رسالة ابن زيدون ، وأجرت لك أعزك الله روايتها عني ، ورواية ما أدونه وأجمعه بعد ذلك حسبها اقترحه استدعاؤك وثقتي ، ونسخته وحققه ، وتضمنه سؤالك الذي تصدقت به ، فذلك السؤال ومذك الصدقة ، والله تعالى يشكر عهذك الجليل ، وكانك الجزلة وكرمك الجزيل ، ويجمع فنون الفضائل اللطيفة إلى ظل قلبك الطليل » .

٦ — القلقشندي (٧٥٦ - ٨٢٩ هـ) تولي ديوان الإنشاء ليرتقوا ، وهو صاحب صبح الأعشى ، ومن أعلام الكتاب والأدباء في عصره (١) ؛ ومن كتاباته : وكانت الديار المصرية ، والملكة اليوسفية ، أعز الله تعالى حياها ، وضاعف علماها ، قد تعلقت من الثريا بأفراطها ، ورجعت سائر الأقاليم بقرابطها ، بشر بفتحها الصادق الأمين فكانت أعظم بشرى ، وأخير سيد المرسلين أن لأهلها نسيا وصبرا . .

والقلقشندي هو أبو العباس شهاب الدين أحمد ، من سلالة عربية من قيس عيلان من بني فزارة ، ولد عام ٧٥٦ هـ بقلقشندة بالقرب من مدينة قلمبوس ، تلقى تعليمه بالأسكتونية ، وأجازه عام ٧٧٨ هـ أستاذه مرآة الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن المعروف بابن الملقن ، واشتغل بالتدريس ، وكان قوي الخافضة حاد الذكاء ، وعمل عام ٧٩١ هـ في ديوان الإنشاء بمصر ، ومن أشهر تآليفه : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، وله كذلك : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، وضوء الصبح المسمر وهو اختصار لصبح الأعشى ، وسواها .

(١) راجع ما سبق عنه في هذا الكتاب .

الصناعة الفنية في أسلوب التأليف (١) :

دخل أسلوب الكتابة الفنية ، إلى التأليف الأدبية والعلمية كما فعل ابن عرب شاه في كتابه « عجائب القصور في أخبار تيمور » ، وكما فعل ابن حجة الحموي في كتابه « خزائن الأدب » ، والنواجي في « حلية الكهنة » وسوى ذلك مما يتعلق به رسائل الأدباء ، وفقار الفقه (٢) ، وإجازات العلماء ، وأحكام الفقهاء ، فامتثلت كل أولئك بالسجع والجناس وشق محسنات البديع . ومن أسلوب التأليف ما كتبه المقرئ (٣) من خطبة

(١) تمتاز مؤلفات هذا العصر : بظهور الموسوعات الجامعة ، وبظهور الشروح والحواشي على الكتب العلمية ؛ وبكتابة المؤلفين كتبهم في عدة صور ، ف نسخة مغرولة ؛ وأخرى متوسطة ؛ وثالثة صغيرة ، فالقلقشندي يختصر كتابه ، صبح الأعشى ، في « ضوء الصبح المسفر » ؛ وشمس الدين الذهبي م ١٢٤٨ اختصر كتابه « تاريخ الإسلام » عدة اختصارات ، ومن مميزات تأليف هذا العصر كذلك : كتابة بعض العلماء ذبلا لكتب غيرهم ، فوفيات الاعيان لابن خلسكان به ٨٦٤ ترجمة ؛ وجاء ابن شاکر السکني م ٧٦٤ هـ فذيله بكتابه « فوات الوفيات » به ٥٥٥ ترجمة .

(٢) منها كتاب « السكوكب النوري في مسائل الغوري » وعددها ألف مسألة في الحديث والقرآن والفقه واللغة طرحت على السلطان قانصره الغوري فأجاب عليها كالفتوى ، كل سؤال أمامه جوابه . . . وكتاب « نفاخس المجالس السلطانية في حقائق الأسرار القرآنية » ألفه بعضهم في مجالس عقدت في زمن السلطان قانصره الغوري ، وللغوري : ديوان شعر ، وكتاب المنقح الفاريف .

(٣) هو تقي الدين المقرئ المولود سنة ٧٩٦ هـ وكان شاعرا كاتبا مؤرخا وتوفي سنة ٨٤٥ هـ .

كتابه : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » : قال : وبعد ، فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدراً ، وأشرفها عند العقلاء مكانة وخطراً ؛ لما يحريه من المواعظ والاعتبار ، بالرحيل إلى الآخرة عن هذه الدار ؛ والاطلاع على مكارم الأخلاق ليتقدي بها ، واستعلام مذام الفعال ليترغب عنها أولو النهى . لا جرم أن كانت الأنفس الفاضلة به وامتة (١) ، والمهم العالية إليه مائلة وله عاشقة ، وقد صنف الأئمة فيه كثيراً ، وختمن الأجلة كتبهم منه شيئاً كبيراً .

وكانت مصر هي مسقط رأسي ، وملب أنرافي ، وبجمع نامي ، ومفتي عشيرتي وحامتي (٢) ومرطن خاصتي وعامتي ، وجوي الذي ربي جناحي في وكرة ، وعش ما ربي فلا تهوى الأنفس غير ذكره . لازالت مذقوت العلم ، وأنا في ربي الفطانة والفهم ؛ أرغب في معرفة أخبارها . وأحب الأشراف على الكثير من آثارها ، وأهوى مسألة الركيان عن سكان ديارها ، فقيدت بخطي في الأعوام الكثيرة من ذلك فوائد قلما يجمعها كتاب ، أو يحويها لغزتها وغرايتها إهاب ، إلا أنها ليست بمرتبة على منزل ولا مهذبة بطريقة واحدة ومثال ، فأردت أن أخلص منها أنباء ما يديار مصر من الآثار الباقية ، عن الأمم للماضية ، وما بقي بفسطاط مصر من معاهد غيرها — أو كاد — إلى القدم ، ولم يبق إلا أن يمحور رسمها الفناء والعدم ، وأذكر ما بمدينة القاهرة من من آثار العصور الزاهرة ، وما اشتملت عليه من الخطط والأصقاع ؛ وحوته

(١) وامتة : محبة .

(٢) الحاماة : عاصمة الرجل من أوله وولده .

من اللباني البديعة الأوطاع . مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان
الأمثال ، والتنويه بذكري الذي شادها من سراة الأعظم والأفاضل ، وأثر
خلال ذلك نكتنا لطيفة ، وحكما بديعة شريفة ، من غير إطالة ولا إكثار ،
ولا إجحاف بمثل الغرض ، ولا اختصار بل وسط بين الطرفين ، وطريق بين
بين (١) .

(١) راجع الكلام على خصائص التأليف في هذا العصر في ص ٥٧ من
هذا الكتاب .

٢ - أعلام الشعر في عصر المماليك

صور من الشعر في هذا العصر :

١ - من شعراء هذا العصر : سراج الدين الوراق المصري الكاتب
الشاعر (٦١٥ - ٦٩٥) ، وله في شكر الله :

إلهي لقد جاوزت سبعين حجة فشكراً لنعماك التي ليس تكفر
وعمرت في الإسلام فازددت بهجة ونوراً ، لذا قالوا : السراج للعمير
وعمم نور الشيب رأسي فسرني وما ساءني أن السراج مفور

٢ - نصير الدين الحسامي المصري ، توفي سنة ٥٧١٤ هـ ، ومن شعره
في داره :

ودار خراب بها قد نزلت ولكن نزلت إلى السابعة
تساورها هفوات النسيم فتصفي بلا أذن سامعه
وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجد حيطانها الراكمة
إذا ما قرأت : « إذا زلزلت » خشيت بأن تقرأ : « الواقعة »

٣ - عمر بن الوردى (٦٨٩ - ٥٧٤٩) ، كتب إلى القاضي
جمال الدين يوسف معاتبه على قصد الرحلة :

علام أردت تهجسني علما وتوقف بالثوى إبلا نياما ؟

(١) ٢ : ١٩٥ ر ١٩٦ الدرر الكامنة .

فهل لاقيت في حلب هموماً قززع عن نواحيها اعداما ؟
 وإن تك بالفتوق لا تبالى فهذا يمنع العين الناما
 وإن ترحل ليل غى فسهل غناك هنا إذا أمسكت عاماً
 وإن ترحل رجاء لاشتهار فكم من شهرة توهى العظاما

٤ — ابن نباتة م ٧٩٨ هـ يمدح السلطان الأفضل ويعزیه فی والده المزیّد
 صاحب حماء :

هنا محاذك المراء القسداً فما عيس المحزون حتى تبسما
 فغور اقسام في غور مدامع شيبان لا يتجاز ذو السبق منهما
 سقى الفيث عينا تربة الملك الذي عهدنا سجاياہ أبر وأكرما
 ودامت يد النعمى على الملك الذي تدانت له الدنيا وعز به الحی
 ما لي كان هذا قد هوى لضرر محه برغمى وهذا للأبيرة قد سما

٥ — صفی الدین الخلی م ٧٥٠ هـ يمدح السلطان الناصر بن قلاوون
 عند قدومه من الحجاز :

ترجى مواهبه وبرهب بطشه مثل الزمان منسالا ومحاربا
 فإذا سما ملأ القلوب مهابة وإذا سغا ملأ العيون مواهبا
 كاللث يعمى غابه بزئيره طوراً وثقب في القنيص مغالباً
 كالسيف ينفذ للخواطر منظاراً طلقاً ونضى في الهياج مضارباً
 كالنهر يهدى للفقوم نقائسا منه ويهدى للميرن عباثا

فإذا نظرت ندى يديه ورأيه لم تلف إلا صائباً أو صائباً
أبقى قلاوون الفخار لولده إرثاً وفازوا بالثناء مكاسباً
٦ - البوصيري (٦٠٨ - ٦٩٥ هـ) - من قصيدته الحمزية في مدح
رسول الله ﷺ :

كيف ترق رقيبك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك في عاك وقصد حا ل سنى منك دونهم وسفاء
إنما مثلوا صفاتك لنا س كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضل فأتص در إلا عن ضوئك الأضواء
٧ - الشاب الطريف :

صدودك هل له أمد قريب ووصلك هل يكون ولا رقيب ؟
قضاة الحسن ما صنعى بطرف تمنى مثله الرشأ الربيب ؟
رى فأصاب قلبي باجتهاد صدقم كل مجتهد مصيب
٨ - صلاح الدين الصفدى من قصيدة له في مدح النبي ﷺ يعارض بها
لامية كعب بن زهير :

سلوا الدموع فإن الصب مشغول ولا تملوا قضى إملانها طول
واستخبروا صادحات الأيك عن شجنى هل فى الغرام الذى تبديه تبديل ؟
وهل لما ضمت الأحشاء بسدكم من الجوى عندما تحويه تحويل
أحيى لا وعيش مر لى بكم وربع لىوى بالذات مأهول
ما كان لى مذعرت الوجد قط ولا يكون فى غيركم قصد ولا سول

٩ - التلخري (٥٥٩٣ - ٥٦٧) :

لو دعيتم لله-اشقين ذماما ليعتم قبل انطبال اللاما
لا وأيام قريبكم مانهاى عنكم عازل يعطيل اللاما
كلما قال دعهم قلت دعنى لا شفى الله منهم لى سقاما
يانسى الصبا لعلك تقرا لى على دابة الكتيب السلاما
هكذا أنت من رسول كرم لشوق أبى الهوى أن يناما

١٠ - ابن الوردي :

رب عين تصفى رؤيتى وذكى بعياني يحلف
أنا فى حلق حسودى غصة وبه منى أذى لا يوصف
أمنى والله من قولى أنا كلمة ، ذو العقل منها يأنف
لكن الحاسد قد كلفنى ذكر شئ تركه لى شرف

١١ - سراج الدين الوراق (٦٦٥ - ٦٩٥) :

شمت برقا من ثمرها الوضاح والدجى سيره مبيض الجفاح
فتبارى شكى به ويقفى هل تحيل الصباح قبل الصباح
فأجابت منى تلتزم صبح عن حباب أو لؤلؤ أو أفاح
سل رحيق السكوب تسأل خيرأ باغتياف من خرة واصطباح

١٢ - القاضي نضر الدين عبد الوهاب المصري من شعراء القرن الثامن :

المهجري :

أُمَيَّاتِي الْأَهْرَامِ كَمْ مِنْ وَاعِظٍ صَدَحَ التَّلَوُّبُ وَلَمْ يَمُتْ بِلِسَانِهِ
أَذْكُرْتَنِي قَوْلًا تَقَادِمَ عَهْدِهِ أَيْنَ الَّذِي الْهَرَمَانُ مِنْ بَنِيَانِهِ
هَلْ عَابِدٌ قَدْ خَصَّهَا بِعِبَادَةٍ فَكَيْفَ الْأَهْرَامُ مِنْ أَوْثَانِهِ ؟
أَوْ قَاتِلٌ يَقْضِي بِرِجْمَةٍ نَفْسَهُ مَنْ بَعْدَ فِرْقَتِهَا إِلَى جَنَانِهِ
فَاخْتَارَهَا لِكُفْرِهِ وَبُؤْسِهِ قُبْرًا لِيَأْمَنَ مِنْ أَذَى طُوفَانِهِ ؟
أَوْ أَنَّهُمْ لِلْسَّائِرَاتِ مَرَاوِدُ يَخْتَارُ رَاوِدُهَا أَعَزَّ مَكَانِهِ
أَوْ أَنَّهُمْ تَقَشَّرُوا عَلَى حَيْطَاتِهَا عَلَا يَحَارُ الْفُسْكَرُ فِي تَبِيَّانِهِ ؟
لَوْ أَنَّ كَسْرَى جَالِسٌ فِي مَقْعِهَا لِأَحْلَى مَجْلِسِهِ عَلَى لُبَّانِهِ
يَقِيتُ عَلَى حَرِّ الزَّمَانِ وَبُرْدِهِ مَدَدًا وَلَمْ تَأْسَفْ عَلَى حَدَثَانِهِ

١٣ — بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي م ٦٨٠ هـ ، من قصيدة له في

الصباية والتحرز :

قَامَتْ تَطَارَحُنِي الْغُرَامُ جِهَالَةً مِنْ دُونِ صَحْبِي بِالْجَسَى وَرَفَاقِ
أَنْتِ تَبَارَى جَوَى وَصِيَايَةَ وَكَأَيَّةِ وَأَمْسَى وَفَيْضِ مَآقِ
وَأَنَا الَّذِي أَمَلِي الْجَلْوَى مِنْ خَاطِرِي وَهِيَ الَّتِي تَمَلُّ مِنْ الْأَوْدَاقِ
وَتَقْرَجُتْ هَامُ الْقُصُوفِ ، وَضُرِجَتْ خَدَّ الرِّيَاضِ شَقَاتُكَ التَّعْمَانِ

١٤ — ابن دقيق العيد م ٧٠٢ هـ من شعره في الشكوى :

لَعَمْرِي لَقَدْ قَلَسْتُ بِالْفَقْرِ شَدَّةَ وَقَعْتُ فِيهَا فِي حَبِيرَةٍ وَشَتَاتِ
فَإِنْ بَعَثَ بِالشَّكْوَى مَعَكَتْ عُرْوَتِي وَإِنْ لَمْ أَيْحَ بِالصَّبْرِ خَفْتُ عَمَاتِي
وَأَعْظَمُ بِهِ مِنْ نَازِلٍ بِمِلَّةِ يَزِيلُ حَيَاتِي أَوْ يَزِيلُ حَيَاتِي

١٥ — مجير الدين بن تميم م ٦٨ ٥ يصف روضا :

بعت النسيم رسالة - بقدمه للروض فهو يقربه فرحان
ولطيف ما قرأ المزار بشدوه مضمونها مالت له الأغصان
صور من سرقات الشعراء :

١ — قال الوداعي (٦٤٠ — ٧١٦) :

عذب مقبله وحلو خظه أو ما تراه بالنعاس معسلا
أخذه ابن نباتة وقال :

معسل بنعاس من فواخظه أما تراها إلى كل القلوب حلت
٢ — وقال الوداعي :

والنهر كاللبرد يحلج الصدا يبرده عن قلب ظمآنه
أخذه ابن نباتة فقال :

والنهر فيه كـ لبرد فلأجل ذا يحلو الصدا
٣ — وقال علاء الدين الوداعي :

بخلت على بدر ميسما فقدت مطوقة بما بخلت
أخذه الشيخ جمال الدين بن نباتة فقال :

بخلت يلؤلؤ ثمرها عن لائم فقدت مطوقة بما بخلت به
٤ — الصفدي في سعادة :

أيا حسنها من سجادة مذهبية ، يرى للفق والزهدي فيها إقبوس
إذا مارأها الناسكون ذوو الحجا أمامهم صلو عليها وسلموا
أخذ هذا المعنى الشيخ جمال الدين بن نباتة فقال :

إن سجادتي الحقة قدرا لم يقبها في بابك العظيم
شرعت إذ سمعت إليك فامست وعليها الصلاة والتسليم
وتبعهما زين الدين بن الوردي فقال :

سجادتي أذكرتني منك الذي كنت أعمل
أهديتها لحب صلي عليها وسلم
• — الشاب الطريف :

إني لا شكو في الهوى ما راح يفعل خـ
ما كان يدري ما الجفا لكن تفتح ورده
أخذه صلاح الدين الصفدي فقال ولكنه زاده نكتة أخرى :

أقول له ما كان خذك هكذا ولا الصدغ حتى زال في الشفق الدجا
فإن أين هذا الحسن والطرف قال لي تفتح وردى والمذار تخرجنا ؟

وكان جمال الدين إذا استخرج المعنى الذي لم يسبق إليه وأسكنه بيتاً من
أبياته النادرة بالحاسن يأخذه صلاح الدين الصفدي بلفظه فلم يصبر جمال الدين
أين نباتة على ذلك وصف ككتاباً سماه « خبز الشعير » ، فمن ذلك قول
جمال الدين بن نباتة :

يا مشككي الهم دعه وانتظار فرجا ودار وقتك من حين إلى حين
فلا تعاند إذا أصبحت في كدر فإنما أنت من ماء ومن طين

فأخذ صلاح الدين الصفدي وقال :

دع الاخوان إن لم تلق منهم صفاء واستغن واستغن بالله
أليس المرء من ماء وطين وأى صفاء طنائيك الجبله ؟
وقال جمال الدين :

لك يا أزرق الواحظ مرأى يأمر الصب بالفرام وينهى
يا لها من سوائف وخدود ليس تحت الزرقاء أحسن منها
وقال جمال الدين :

قد رماني مهنف القدر رام أسهم اللاحظ ما أشد وأرشق
كلا قلت يفتح الله بالوصد لي رماني من سحر عينيه يفتلق
أخذ الشيخ صلاح الدين وقال :

سهام طرفك أصمت قلبي ولم تترفق
ما يفتح الجنن إلا ودعن قلبي يفتلق

شعراء آخرون:

- ١ — نبح في هذا العصر في مصر والشام شعراء كثيرون من أشهرهم :
علاء الدين الوداعي (٦٤٠ - ٧١٦ هـ) ؛ السراج الوراق (١) (٦١٥ - ٦٩٥ هـ) ؛
(١) قال صاحب « فرائد الوقفيات » : إن ديوان شعره في سبعة أجزاء =

أبو الحسين الجزار (٦٠١ — ٦٧٢ هـ) ، نصير الدين الحماني م ٥٧١٤ هـ ،
ناصر الدين ابن النقيب م ٦٨٧ هـ ، شمس الدين بن دانيال (١) م ٦١٠ هـ ،
مجير الدين بن تميم م ٦٨١ هـ ، بدر الدين يوسف بن أولو الأدي م ٦٨٠ هـ ؛
شمس الدين بن العفيف (٦٦٢ — ٦٨٧ هـ) ، شهاب الدين بن التلعفري
(٥٩٣ — ٦٧٥ هـ) وتوفي بحماة ؛ الشاب الفاريف (٦٦١ — ٦٨٨ هـ) ،
وعفيف الدين القلساني توفي في دمشق عام ٦٩٠ هـ ، محمد بن سعيد البوصيري
(٦٠٨ — ٦٩٥ هـ) ، شهاب الدين المزاري م ٧١٠ هـ وقد أجاد في اللوحات
خاصة (٢) ، ابن نياته للسري (٦٨٦ — ٧٦٨ هـ) (٣) ، ابن أبي حجلة م ٧٧٦ هـ ،
شمس الدين الهرازي الأندلسي الفسيري م ٨٧٠ هـ ، برهان الدين القيراطي
توفي في مكة عام ٧٨١ هـ ، الوزير ابن مكناس وتوفي عام ٨٩٤ هـ ،
ابن حجلة الحموي (٤) (٧٧٦ — ٨٣٧ هـ) شهاب الدين الحجازي توفي عام ٨٧٤ هـ ،
ابن سودون (٨١٠ — ٨٣٧ هـ) وتوفي بدمشق ، تاج الدين بن عربشاه
توفي عام ٩١٠ هـ — وزعيم هؤلاء الشعراء جميعا هو ابن نياته .

٢ — وظهر كذلك شعراء كثيرون في الجزيرة الفراتية وغيرها ،

== كيارضخمة ، وهذا الذي اختاره لنفسه وأثبتته ، وقد اختار مختارات من ديوانه
إصلاح الصفدي وسمّاها ولح السراج ، - ٢ : ٧٠٧ فوات .
(١) راجع ٢ : ١٩٠ فوات ، وله كتاب «خيال الظل» .
(٢) ٢ : ١٨ فوات ، الجزء الثالث من الدرر الكامنة .
(٣) راجع الجزء الثالث من الدرر الكامنة .
(٤) له كتاب «قهوة الإنشاء» وهو مجموع مكاتبات ورسائل مختارة ، ومنه
نسخة في دار الكتب المصرية .

ومن أشهرهم : صفي الدين الحلي (٦٧٧ - ٧٥٠ هـ) وتوفي في بغداد ،
والأمير خايل الأيراني م ٨٤٦ هـ ، وعلاء الدين المارديني م نحو عام ٨٥٠ هـ ،
فضل الله بن الحميد الزوزني الأصل الصفي للولد توفي نحو عام ٧٦٠ هـ ،
وسواهم . . وأشهرهم هو صفي الدين الحلي ، وقد ولد في مدينة الحلة .

٣ — هذا عدا العلماء الذين نظموا القصائد العديّة ، ولم يعدوا من
الشعراء المشهورين في هذا العصر ، من أمثال السيوطي وله في كتابه
« حسن المحاضرة » مرثيتان أحدهما في شيخه الشافعي م ٨٧٢ هـ (١) ، والثانية
في شيخه شمس الدين الحنفي م ٨٨١ هـ (٢) ، وكان حبر وله قصيدة طويلة في
مدح المستعين ، الخليفة العباسي (٣) وسواهما .

(١) ١ : ٢٠٢ حسن المحاضرة .

(٢) ٨ : ٢٠١ المرجع نفسه .

(٣) ٢ : ٦١ المرجع .

الختانة (١) ، ويقول الداودي (٢) تلميذ السيوطي والمتوفى عام ٩٤٥ هـ ، وهو شافعي مصري علامة محدث ، يقول في انبهار بعظمة شيخه : كان السيوطي في مرعة الكتابة - أي التأليف - آية كبرى من آيات الله (٣) ، كان جلال الدين السيوطي أرفع علماء عصره همة ، وأعظمهم نشاطا وأكثرهم تأليفا ، وأعزهم مادة .

-
- (١) ٦٠ المؤرخون - د محمد مصطفى زيادة .
(٢) ألف ذيل على طبقات الشافعية ، للسبكي ، وكتب ترجمة شيخه السيوطي في مجلد ضخم ، وله ذيل على كتاب شيخه ، طبقات المفسرين ، وذيل آخر على كتاب أستاذه ، لب الألياب في الإنساب ، كذلك .
(٣) تدريب الراوي صفحة (ح) .

صور موجزة لبعض الشعراء

الشاب الطريف :

هو محمد بن سليمان ، ولد بمصر سنة ٦٩١ هـ ومات سنة ٦٨٨ هـ ، ويشتهر شعره بالرفقة وحسن الانسجام كقوله :

بحق هذى الأعين الساحرة وحسن هذى الوجنة الزاهرة
خف في الهوى إثمى يا قاتلى فاليرم دنيا وغســــلداً آخره
قلبي مصر لك ما باله قد ذاب من أخلاقك القاهرة (١)

التلعفري :

هو شهاب الدين محمد بن يوسف التلعفري ، ولد بالوصل سنة ٥٩٣ هـ وتوفي سنة ٦٧٥ هـ ، ومن شعره :

وإذا النيفة أشرقت وسمعت من أرجائها أرجا كنشز عبير (٢)
سل حضيها التصوب أين حديثه للـ فروع عن ذيل الصبا المجرور

البوصيري :

محمد بن سعيد الصنهاجي الشهير بالبوصيري ، توفي سنة ٦٩٥ هـ واشتهر

(١) يعنى أن قلبي مقر لك فلماذا يذوب من أخلاقك الشديدة القاهرة وفي
الاثمان بكلمة القاهرة بعد كلمة مصر ما فيه من جمال .
(٢) اثنية الجبل ، وأشرقت بمعنى ظهرت . والأرجاء جمع رجا وهو الناحية ،
والأرج ربح الطيب ، والنشر الزائحة الغلبة ، والعير الخليط من أنواع الطيب

بمدائح النبوة ، وهي البردة والمعمزة ، وهما من جيد شعره ورصينه : أما بقية شعره فمتوسط ، وأول المعمزة :

كيف ترقى رقيبك الأتليا . يا سماعة ما طاولتهم سماء
لم يدانوك في عازك وقد حال . لست منك فونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للنساء . من كما مثل النجوم للنساء
أنت مصباح كل ضوء . فما تصدر إلا عن ضوءك الأضواء

وهو من « بوضير » إحدى بلاد مديرية بني سويف - نشأ بمصر وتقلد عملاً حكومياً فكان مباشراً بمديرية الشرقية . وقد تفوق في المدايح النبوية حيث أتجه بشاعريته نحو مقام الرسول الأسمى بمدحه بوجدان صادق وشعور مودف فأجاد في مدحه إلى حد لم يسبق له مثيل . ومطلع البردة :

أمن تذكر جيران بني سلم . مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم .

ابن الوردي :

وهو زين الدين عمر بن الوردي ولد بالبردة سنة ٦٨٩ هـ كان شاعراً أديباً ونحويًا فقيهاً مؤرخاً ، وكان عفيفاً لا يستجدي بشعره وهو من شعراء الشام المجتهدين وأكثر شعره متوسط الجودة . زاخر بالحسنات البديعية . وله القصيدة اللامية المشهورة في الحكم أولها :

اعتزل ذكر الأفاني والفزل . وقل الفصل وجانب من هزل

وله مراسلات مع شعراء مصر أحسن فيها كل الإحسان ، وتوفى بحلب سنة ٧٤٩ هـ .

صلاح الدين الصفدى :

شارح لامية ابن الوردى - كان شاعرا مؤرخا ، تلقى العلم بدمشق عن ابن نباتة المصرى الشاعر - وتولى ديوان الإنشاء بالقاهرة وحلب ، وكان يتميز على شعر ابن نباتة ، وقد جمع ابن نباتة ما أخذهُ الصفدى عن معانيه فى كتاب سماه « خيز الشير » وللصفدى مراسلات بديعة بشعر رائق مع ابن فضل الله العمري ، وتوفى سنة ٧٦٤ هـ .

ابن مكافس :

هو الوزير نضر الدين أبو الفرج عبيد الرحمن بن مكافس تاجر الدولة بمصر وهو من خول الشعراء وله ديوان يجمع أشعاره وجمهرة من كتاباته الإنشائية جمعها ابنه محمد الدين ، وتوفى سنة ٧٩٤ هـ .

صلى الدين الخلى :

صلى الدين الخلى وشعره متفاوت فى الجودة ، فهو مرة يسمو إلى ما فوق أفق عصره ، ومرة ينزل ويضعف ، ولد سنة ٩٧٧ وتوفى سنة ٧٥٠ ، وكان شاعر الدولة الارمنية فى « ماردين » ورحل إلى القاهرة زمن السلطان الناصر سنة ٧٢٩ ومدحه بقصيدة تعد من جيد شعره ، منها :

ترجى مواهبه ويرهب بطشه مثل الزمان مسالماً ومحاربا
فإذا سطا ملأ القلوب مهابة وإذا سخا ملأ الزمان مراهبا

كأنتميث يبعث من عطاء وإبلا سيطاً ويرسل من سطاء حاصياً (١)
وقد عارض بها بائنة للنهي التي عطلها : يأ في الشومس الجائحات غوارياً
٢ — جمال الدين بن نياتة للصري .

وهو حامل لواء الشعر في عصره ، تظهر في شعره المصرية الصادقة من حيث
الرقّة والمهولة وحسن إيراد النكتة المستجادة ، ولد بعصر سنة ٦٨٦ وتوفي بها
سنة ٧٦٨ هـ .

(١) العنا ومعد : التوال والعطية ، والرايل المطر الكثيف ، ويقال فلان سيط
الدين أى سخي ، والسطا جمع صغرة ، والحاصب الريح الشديدة التي تثير الحصى .

وصف الشعر في عصر المماليك

بيئة الشعر في هذا العصر :

١ — بعد سقوط بغداد صار أكثر حكام العالم الإسلامي من الأعاجم ، الذين لا يهتمون بالشعر ، ولا يميزون جيده من رديته ؛ ولا يقدرّون الشعراء ، أو يشجعونهم بحزب المعطاء .
لذلك ذهب مجد الشعر ؛ وانقرض أو كاد في بعض الأقطار الإسلامية في شرق العالم الإسلامي ؛ وناله الضعف في بعضها الآخر ؛ وقد بقي الشعر على شيء من رونقه في الشام ومصر والأندلس والمغرب ، وذلك لأن الطابع العربي سائد في هذه البلاد ، والصيغة العربية منتشرة ، مع وجود بعض الذين يقدرّون الشعر من الأمراء والحكام في تلك الأقطار ، ومنهم المؤيد صاحب حماة ، الذي اصطفى ابن نباتة وقرّبه ؛ وكان من الأمراء من يقول الشعر كآل قلاوون ، والسلطان حسن والمؤيد شيخ الذي كان ينظم الشعر ويلحنه ، والسلطان قانصوه الغوري ديوان (١) . ويضاف إلى ذلك عامل آخر له خطره في حياة الشعر في هذه البلاد ، وهو التنافس بين شعراء مصر والشام ، مما أدى إلى انتماش الشعر ويقطعه .

٢ — ومع ذلك فقد تقلّبت عوامل الضعف على الشعر في هذا العصر ،

(١) ٢ : ١٢٧ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان .

(م ٩ — الحياة الأدبية في مصر)

وذلك لأسباب كثيرة ، أهمها ؛ فقدان التشجيع الأدبي والمادى ، الذى كذا نواه
ونسبح به من قبل ، وعجدة الحكام ، وعدم اهتزازهم للشعر وأرضيتهم له ،
وذيوع التقليد الذى بين الشعراء ، وكان لضعف الملكية الشعرية والخيال ،
وانعدام الابتكار والتقليد أثر كبير فى ذلك .

وكان لجبل أكثر السلاطين بفتون الأدب وعدم تذوقهم للشعر ؛ وقلة
تشجيعهم عليه ، أثر فى انعدام الرغبة فيه ، وقلة الإقبال عليه ، وترك الشعراء
الشعر لا يتكسبون به ، واحترقوا حرفاً كثيرة ، حتى وجدنا منهم الجزار
والوراق وسوى ذلك ، وانقلب كثيرون من الشعراء كتاباً فى دواوين
الإنشاء ، وأصاب الشعر ما أصابه من الذبول والنوم العميق ، وهكذا كان
من أسباب ضعف الشعر :

١ — عدم تشجيع أكثر سلاطين المالك للشعراء ، لأنهم أنراك
لا يتذوقون الشعر ولا يتقرون رجاله .

٢ — انصراف الشعراء عن قول الشعر واشغولهم بأعمال أخرى
يرزقون منها فكان منهم البزار والكحال والدهان والحماى إلى غير ذلك .

٣ — تقليد الشعراء لالكاتب الذين ساروا على طريقة القاضى الفاضل ،
وإكتارهم من المحسنات فى شعرهم ، لأنهم وجدوا فيها عوناً لهم على أن
يداروا ضعفهم .

٤ — كان هذا العصر فى جملة عصر محنة واضطراب ، ولذا قلت
أسباب اللهو وفراغ البال التى تدفع أحياناً بلابل الشعر إلى التفريد .

٥ — ظهور الزجل الذى زاحم الشعر القصيح لقربه إلى أفهام الناس .

ومع ضعف الشعر في هذا العصر فبح بعض الشعراء ، وأجادوا
للأسباب الآتية :

١ — ميلهم الفطري للشعر ورغبتهم في نقله حياً فيه لا طمعا في
الكثافة عليه .

٢ — توافر ظروف خاصة لهم ، ساعدتهم على الاجادة ، كاليثية
أو الوراثة ، أو الانتقال والارتحال .

٣ — التنافس بين شعراء مصر والشام في إجادة شعرهم ، فلم يكن شاعر
في أحد القطرين ينظم قصيدة طريفة ، حتى يتناولها شعراء القطر الآخر
بالنقد والمعارضة .

هذا وقد كان التنافس بين شعراء مصر وشعراء الشام كبيراً ؛ وكان
هذا التنافس من أسباب تجويد الشعر ونهضته ، فلم يكن شاعر كبير في مصر
ينظم قصيدة في غرض من الأغراض إلا ويبادر شعراء الشام فيتناولونها بالمعارضة
أو الاحتذاء أو التهكم ؛ ومثل ذلك كان يفعل شعراء مصر ، حين يسمعون
بقصيدة شامية . . . ويرى أن ابن نباتة كان إذا ما اخترع معنى أخذ الصغدي
بلفظه أو بتغيير فيه تليل فألف ابن نباتة رسالة جمع فيها ما قاله فأخذ منه
الصلاح وسماها « خبز الشعير » .

وكان الشعر في الشام يغلب عليه شيوخ الوصف ، وخاصة أوصاف
الطبيعة ، لجمال البيئة واعتدال الجو وحسن مناظر الطبيعة هناك ، وكان الشعر
للمصري يغلب عليه الرقة والفكاسة وتناول الأحداث السياسية الكبرى .

حرمان وشكوى :

وقد أصاب الشعراء ما أصابه في هذا العصر من الحرمان والفقر ، وسوء

الحال ، فكثرت شكواهم ، وصوروا في شعرهم ما كانوا فيه من آلام ومسنية ،
فهذا شاعر يقول :

زهر الوعد ذوى من طول مطلقكم لأنه من نذاكم غير محطور
وهذا البوصري يقول في ضعف وابتذال وعامية ، يصف حاله وحال أولاده
وقد أقبل العيد :

وأقبل العيد ولا عقدم قبح ولا خبز ولا فطرة
فأرحمهم إن أبصروا كعكة في يد طفل أو رأوا ثمرة
تشخص أبصارهم نحوها بشبهة تتبعها زفرة
فكم أفاشى منهم لوعة وكم أفاشى منهم حمرة
وهذا ابن نباتة يقول :

لا عار في أدبي إن لم يفل رتبا وإنما العار في دهرى وفي يلقى
هذا كلامى وإذا حظى فيا عجباً منى ثروة لفظ وانتقار يد
ويقول :

فكفى من وضوح حال أذى في زمانى هذا من الأدباء
ضاع فيه لفظ الجهر وفضل ضيعة السيف في يد سلا
ويقول أيضا :

أسقى على الشعراء إنهم على حال تنير شماعة الأعداء
ولا عجب ، فقد جف النبع ، وكثر المثل ، وعم البخل ، وغاض العين ،
وقانى الشعراء في هذا العصر الحزن والآلام .

الفن والتقليد :

وعندما نقرأ شعر هذا العصر نجد في الكثير منه ضعفاً وابتذالاً وسوقية وعامية وركاكة وعيا ، ونجد القليل الأقل منه يسلم من ذلك ، وتسرى فيه روح العربية الأصيلة وموهبتها .

إلا أن الشعراء قد غلب عليهم التقليد ، وصار الشعر لا ينبع من عميق إحساسهم ، ولا من دفين تجاربهم الشعرية ، ولا هو يعبر عن حسياتهم وشخصياتهم ، ولا عما تيمش به قلوبهم ، وتمتلئ به قلوبهم ، من ألم وأمل ، وحزن وفرح ، وحسوم ومسررات . . إنما هو صور بيضضة لمحاكاة سقيمة ، وتجربة عقيمة ، وفكرة جائرة ، ومعنى مبغزل ، والفن عدو التقليد ، بل هو يعد فناً حتى يتحرر من إسار التقليد وقيوده ، ويظهر بنفسه عن نفسه في طلاقة وحياة وقوة .

وزاد من خطر التقليد على الشعر في هذا العصر حرصهم على مذهب الوشى والتصنيع والتحسين حرصاً شديداً ، حتى أتمتوا الشعر بالطل ، وقيدوه بالبديع والمحسنات ، وغالوا في ذلك غلوا شديداً ، انظر إلى شاعر من شعرائهم وهو يقول :

إذا سألتني عن حوى قد كتمته ظلت أراعى وأشيا ورقبيا
وجاب عنى سائل من مدامعى فله دمعى سائلا ومحيبيا

فلا نجد فيها يقول روح الشعر وفكرته وشخصيته ، إنما نجد الصنعة وقيودها الثقيلة المرهقة ، فهذا الغالب بين « سألتها » وجاب ، وبين سائل

ومجيب ، وهذه التورية المتكافئة في « سائل » إذ تحتل معنى قريباً متبادراً هو السؤال ومعنى بعيداً مقصوداً هو الميولة ، وقد جاءت متكافئة بمقوِّنة ، لا حياة فيها ولا روح ولا معنى .

خصائص الشعر :

وقد تميز الشعر بميزات كثيرة في هذا العصر ، في ألفاظه وأساليبه ومعانيه وأخيلته وأغراضه .

(١) فأما من جانب اللغة ، فهي غالباً معان قديمة معطوِّقة ، فهذا شاعر يقول في عامية وضعف وتذلل إلى محبوه :

يا غاية منيتي ويا مخلوق من بعدك لم أمل إلى مخلوق

وهذا شاعر يقول في بلده « حماة » ونهرها « العاصي » :

حماة في بهجتها جنة وهي من الغم لنا جنة

لا تياسوا من رحمة الله قد أبصرتم العاصي في الجنة

والتورية في « العاصي » ظاهرة ، فهي إما نهر العاصي وإما من العصيان . والتصنيع في البيتين ظاهر ، والتكلف باد عليها ، ولا شيء فيهما سوى الرشى والتزيين .

وانظر إلى الوداعي يقول :

من آخذ من خده بدم الشهيد المفرم

فالريح ريح المسك * نه ولونه لون الدم

فالمتى قديم : الحب صار شهيداً، والمحبوب أصبح قاتلاً، ودم الشهيد المسفوك
تجمع في خد هذا المحبوب المرموق ، فلوته لون الدم، وإن كان يرجه ريح المسك،
والشاعر يطلب من يتجده فيأخذ به بنأره .. ومع كل هذا التصرف في المعنى ليصور
في صورة الجديد ، تحس روح التقليد والأخذ والتصور ، أنظر إلى الحصري
م ٤٨٨ هـ وهو يقول :

يا من ججدت عيناك دمي وعلى خديك توره
خداك قد اعترفا بدي فعلا م جنونك تجده
إني لأعبدك من قتل وأظنك لا تعتمد

معنى واحد متصل بحكم دقيق عميق ، صورة الحصري في أرفع صورة ،
وأروع الخيال في أبياته الثلاثة ، تأتي به شاعراً الوداع في قصور وتقصير
شديدين ، وهذا شوقي يقول متابعاً للحصري :

ججدت عيناك زكي دمي أكذلك خدك يجده
قد عز شهودي إذ رمنا فأشرت نفسك أشهده
وهمت بحمدك أشركه فأني واستكبر أصيده

هذا وتتنازع معاني الشعر في هذا العصر أيضاً بالوضوح وقلة العمق .

ب - وأما من حيث الخيال فهو خيال ضعيف سقيم ، فهذا شاعر يقول :
سألوا عن طاشق في قسر باد سناه
أسقمته متلصاه قلت لا بل شفتاه

عبر بلى عن اللام في قوله قرء والصواب « لقرء » ، وخیال الشاعر لم
يستطع أن يربط بين البيتين ، ولا أن يوضح لنا : كيف أستمته شفتاه ؟ ولا
أن يوضح المعنى ويحلوه ، ولا أن يفتن في التصوير والتخیل .

وهذا شاعر آخر يقول :

كسفتى ضنى جسمى سهام جفونه * فبرد سقامى فى هواه مسهم
فتجد خيالا مضطربا أشبه بأخيلة الخبولين ، لا يكسب الشعر رونقا ،
ولا يجعل المعنى موقعا ، ولا الأسلوب شيئا .

عبر بلى عن اللام في قوله قرء ، والصواب « لقرء » ، وخیال الشاعر لم
يستطع أن يربط بين البيتين ، ولا أن يوضح لنا : كيف أستمته شفتاه ، ولا
أن يوضح المعنى ويحلوه ، ولا أن يفتن في التصوير والتخیل .

وهذا شاعر آخر يقول :

كسفتى ضنى جسمى سهام جفونه * فبرد سقامى فى هواه مسهم
فتجد خيالا مضطربا أشبه بأخيلة الخبولين ، لا يكسب الشعر رونقا ، ولا
يجعل المعنى موقعا ، ولا الأسلوب شيئا .

وانظر إلى الشاعر الأحمق ، وخیاله المستوع الثير للضحك :

أمدیه لدن القوام منقطقا یسل من مقلتيه سيفین
أما من حيث ألقاظ الشعر ، فقد غلبت عليها العامية والابتذال
والسوقية والركاكة ، فهذا ابن الوردي يقول :

قلت وقد عاتقته عندي من الصبح قلق

قال وهل يحسدنا قلت نعم قال اخفاق

ونقطة « انقلب » عامي مبذول ، وهذا البوصيري يقول :

إليك أشكو حالنا إننا عائلة في غاية الكثرة

أحدث للولي حديثاً جرى لي معهم بالخطب والإبرة

وهي تعبيرات عامية مرفوضة ، ويقول شاعر آخر :

كل في الأيام سحر ولكن * أنا والسحر باطل بطل

ولنقطة بطل عامية سوقية ، ونكثرت في ألقاظ الشعر الألقاظ الاصطلاحية ،
كقول الشاعر :

فوالف قلبى على عيش ظفرت به * قطعت مجموعة الخنثار مختصراً

وقول آخر :

إذا ما المرى المقصور حيج عاشقاً * أنت المرى المعدود من كل جانب

د - وأما من حيث أسلوب الشعر ، فنستطيع أن نقول عنه إنه امتاز
بميزات ظاهرة عديدة منها :

١ - لأن أسلوب الشعر كان ليناً واضحاً باعداً بين أصالته العربية وجزالته
القوية ، وكأننا ضعفت قراءاتهم وقل محفوظهم من جزالة التنبى وحكمته ،
وقوة أبى تمام وعروبة ، انقل إلى ابن الوردي يصف ناعورة فيقول :
ناعورة مذعورة ولحانة وحائرة

الماء فوق كنفها وهي عليه دائرة
فتجد أسلوباً ليناً ضعيفاً لا قوة فيه ، ولا جزالة تمشي في نواحيه . .
وانظر إلى قول الشاعر :

يا أهل بيت النوى بعدكم والله ما دقت لذة الوسن
وكيف يلتذ بالنعام نفي طارق وجه الحنين والحسن

فلاحظ ابن الأسيوطي حتى في مقام المدح الذي يستدعي الجزالة ، وكان
للبيهاء زهير أثر في تسميل الشعر وتطويع أسلوبه لغة المخاطبة . ولكنه لم
ينزل إلى هذا المستوى من اللين والضعف ، لقوة ملكته ، وسلامة طبعه
وصحة ثقافته ، وأخذ الشعراء بعده يقلدونه جايعين إلى اللين والسهولة حتى
وصلوا بأساليبهم إلى مستوى العامية وأساليب الجاهل ، ومن ثم أخذ أسلوب
الشعر فيه الأساليب العامية كقول الشاعر :

قلت علام اقتلوا هكذا * قال على عيتك يا قاتل
وقول شاعر آخر يخاطب وجلاً طلق زوجته دنيا :
ظلمت دنياك وطلقتها فأصبحت لا دنيا ولا آخرة
ومع ذلك فقد كان أئمة الشعر في هذا العصر يقولون الشعر في بعض
الأحيان قوياً جزلاً رائعاً في بلاغته ، فهذا ابن حجة الحموي يقول :
يا غائبين تملأنسا لغيبتهم بطيب عيش فلا والله لم يطب
ذكرت والكأس في كفي ليا ليكم فالكأس في راحتي والقلب في تعب

٢ - الإكثار من ألوان البديع ومحسناته من نورية وجباس وطباق ومقابلة وتضمن واقتباس واستخدام ومراعاة نظير وسواها ، فن مراعاة النفاير

قول الشاعر :

أذن القمرى فيها عند شهرىم النجوم

فأتى النصف يضى بضحيات النسم

ومن النورية قول الشاعر :

فالوا فلان قد جفت أنكاره نظم القريض فلا يكاد يحويه

حيات نظم الشعر منه بعدما سكن التراب وليده وحييه

فالوليد والحبيب المعنى القريب الظاهر منهما الابن والمحبوب وهو تير مراد ، والمعنى البعيد البحترى وأبو تمام وهو المراد . وللصالح الصفدى كتاب (نبض الاجام عن التورية والاستخدام) ، ولابن حجة الخوى كتاب (كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام) ، ويقول فيه :

وهذا الفوع أعنى التورية ما تنبه لحاسنه إلا من تأخر من حذاق الشعراء ، وأعيان الكتاب ولرى إنهم بذلوا الطاقة فى حسن سلوك الأدب إلى أن دخلوا إليه من كل باب ، فإن التورية من أعلى فنون الأدب ، وأعلاها مرتبة ، وسحرها ينفث فى القلوب ، ويفتح بها أبواب عطف ومحبة . . . ثم يقول فى مقام آخر بعد أن يوازن بين أمتلة من التورية وقعت للسابقين وأخرى لأهل زمانه : قلت ولهذا وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين

«هوا إلى أفق التورية ، وأطلعوا شمسها ، ومازجوا بها أهل الذوق السليم لما
أداروا كرووسها . وقيل إن التنازى الفاضل هو الذى عصر سلاقة التورية
لأهل عصره ، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها فى قفله و (شره) .
ويقول صلاح الدين الصفدى فى كتابه (فض الختام عن التورية والاستخدام)
ومن البديع ما هو نوع التورية والاستخدام ، فإنه نوع تقف الأنعام حسرى
دون بلوغ غايته من مراعى المرام .

نوع يشق على النسي وجوده من أى باب جاء يندو متقلا
لا يفرح هضيقه قارع ، ولا يفرح بابه إلا من تدعو البلاغة نحوه فى
الخطاب ، وتجري ريحها بأمره رخاء حيث أصاب .
ومن الاقتباس قول ابن عفيف الفيلسافى .

يا عاشقين حاذروا مهتجا عن نفسه
فطره الساحر مذ شكتم فى أمره
يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره

ومن التضمين قول الجزار فى وصف أسنانه البالية :

قنائيك من ذكرى قميص وسروال ودراعة لى قد عفار سمها البالى
وما أنا من يبكى لأسماء إن فأت ولكفى أبكى على قد أسمائى
ومن الاستخدام قول ابن حجة :

واستخدموا العين منى فهى جارية وكمنحت بها أيام هجرى

٣ — كثرة ميلهم إلى المقطوعات القصيرة في شعرهم إذ كانوا يرونها أكثر تصويراً لما في قلوبهم من إبراز معنى لطيف ، أو فككة بديعة . أو محسن جميل ، أو تورية رائعة ، وكانوا كثيراً ما يتراسلون بالشعر ، والمقطوعات الصغيرة في هذا الباب أسهل وألطف لأنها تعبر عما في قلوبهم ، وتصف ما في قلوبهم ، وتتناول شتى أغراضهم ، وكان ابن نباتة ينظم كثيراً من النعائيات والتلاقيات والرباعيات .

٤ — ظهور الفكاهة وشيوعها في الشعر المصري ، وقد كان السباق في ذلك هو البهاء رهير ، وانظر إلى قول أبي الحسين الجزار يصف داره المهذبة :

| | |
|--------------------------|-------------------------|
| ودار خرابها قد نزلت | ولكن نزلت إلى السابعة |
| فلا فرق ما بين أني أكون | بها أو أكون على القارعة |
| تساورها هفوات النسيم | فتصني بلا أذن سامعة |
| وأخشى بها أن أتيم الصلاة | فتسجد حيطانها الزاكمة |
| إذا ما قرأت إذا زلزلت | خشيت بأن تقرأ الواقعة |

ويقول ابن نباتة يشكو سوء حاله في خفة روح وخلاقة تعبير :

| | |
|------------------|-----------------|
| لقد أصبحت في حال | يرق لثنها الحجر |
| مشيب وافتقار يد | فلا عين ولا أثر |

جولة المؤثرات في الشعر في هذا العصر :

تأثر الشعر في عصر المهاليك كما أسلفنا بمؤثرات كثيرة ، بعضها يضعفه ،
والأخرى تنهض به .

فن العوامل التي أضعفت الشعر :

- ١ — عدم تشجيع أ كثر الملوك والحكام للشعر والشعراء ، فلم تعد
بيوتهم مفتوحة للشعراء ومجالس الشعر ، ولم تعد أيديهم سخية بالعطاء .
- ٢ — ضعف ملكات الأدب عند الحاككين ، فلم يهتزوا لسجاع الشعر ،
ولم يطرؤوا لإنشاده .

٣ — روح التقليد التي صرت بين الشعراء فأضعفت الشعر ، وأذاعت
الصناعة اللفظية فيه ، وجعلته ألفاظاً بلا معنى ، وجسماً لا حياة فيه .

أما المؤثرات التي كانت تعمل على استمرار نهضة الشعر وازدهاره فهي :

- ١ — التناقص بين شعراء مصر والشام ، وكثرة معارضة بعضهم لبعض ،
ولم يكن يظهر لشاعر في أحد القطرين قصيدة تنير الاهتمام والتقدير إلا عارضها
شعراء القطر الآخر ، أو تناولوها بالنقد أو اقتبسوا من معانيها ؛ وكذلك كانت
الصلوات الأدبية قوية بين شعراء الإقليمين ، وكثيراً ما وجدت مراسلات
ومداعبات بينهم .

٢ — جمال العليمة في مصر والشام ، فن مزروعات ونخيل وحدائق
ومنتزهات في مصر ؛ وجبال شاذقة تكسوها الثلوج البيضاء شتاء في
الشام . إلى الجو المعتدل والسم الغليل في الإقليمين .

٣ — الفخر والحرماني الذي عاش فيه الشعراء ، والحرماني يتلقى التنوع والعبقرية ، ويعطى ألسنة الشعراء بروائع القصائد في الشكوى والألم ، مما يفسد واضعاً في شعر ابن نباتة ، ومن قبله الشاب الظريف .

٤ — أميل بعض سلاطين مصر للشعر ، وحبهم لمجالسه ، كما حدث من آل قلاوون ومن المؤيد شيخ والنصوة العوري ، إذ كانوا ينظمون الشعر ويحبونه ، ولقائهم النصوة الموري ديوان دقيق .

٥ — مجالس الشعر ؛ التي كان الشعراء ينظمونها في بيوتهم ، وفي أندية الخاصة ، حيث كانوا يتقارضون الشعر ، ويتعارفون القريض ، وينقد بعضهم البعض الآخر ، ويسجلون ما يدور بينهم في هذه المجالس من آراء في النقد ، أو من نظم جيد جاءت به قرائهم ..

٦ — روح الدمثة والرفقة التي اشتهر بها المصريون ، وما كان في طبعهم من ميل إلى الدعاية والفاخرة ، جعل الشعر المصري يشتهر بالفكاهة . وجعل أسلوبه رقيقاً رقة التسميع العليل ، صائباً صفاً : ما النيل . . . إلى غير ذلك من العوامل التي عاونت على استمرار الشعر ، وجعلت قرائح الشعراء تجود به ، سواء في ذلك الشعراء الذي تفرغوا للشعر ، أو الذين جمعوا بينه وبين الكتابة ، أو الذين طارت شهرتهم في التأليف والشعر ، كأبن نباتة الشاعر مؤلف « شرح العميون في شرح رسالة ابن زيدون » ، وكصلاح الدين الصفدي م ٧٦٤ هـ مؤلف

التذكرة الصلاحية ، في نحو ثلاثين مجلداً ، والوفاء في الوفيات في تحسين
جزءاً ، وكان حجة الحقوى صاحب خزانة الأدب « وثمرات الأوراق » ،
وغيرهم ، وقد اشتهر بالكتابة والشعر والتأليف شهاب الدين محمود الحلبي م
٢١٩ هـ وكان كاتباً لمر الملك الناصر . ومن الشعراء الذين غلبت عليهم
الكتابة ابن عبيد القاهر ، وابن فضل الله العمري .

أغراض الشعر في هذا العصر :

نظم الشعراء الشعر في شتى الأغراض القديمة من غزل ومديح ورمثاء وهجاء
وشكوى ونفر ووصف ومجون وطرد .
وزادوا على ذلك نظمهم في أغراض جديدة منها :

١ — نظم العلوم ففي النحو مثلاً نجد مفلوحة الفية ابن مالك ، والكافية ،
ولامية الأفعال ، له ، وألفية ابن معلى ، وفي البلاغة نجد عقود الجمان لاسيوطي ،
وفي القراءات نجد الشاطبية . . وهكذا .

٢ — النظم في التاريخ وهو وإن كان قديماً إلا أنه كان في تاريخ حكم
ملك كما فعل ابن المعتز مثلاً في أرجوزته في المتضد ، أما في هذا العصر فقد
أرخ الشعراء لمصوياً كملها ، فنظم ابن دانيال أرجوزته فيمن ولى القضاء في
مصر (١) ، وذيلها السيوطي (٢) . ونظم ابن فضل الله العمري قصيدة سماها
حسن الوفاء بمشاهير الخلفاء (٣) ، ولجمال الدين الجزار أرجوزة سماها المقود
الدرية في أمراء مصر من عهد عمرو بن العاص إلى الملك الظاهر (٤) وقد ذيلها
السيوطي (٥) .

(١) ١٠٤:٢ حسن المحاضرة :

(٢) ١٠٨:٢ المرجع :

(٣) ١٧:٢ المرجع :

(٤) ٣٦:٢ المرجع :

(٥) ٨١:٢ المرجع :

٣ — النظم في الألفاظ وقد تابعوا فيه شعراء الدولة العباسية ، فقد نظموا منه في أواخر خلافة العباسيين وتابعهم في ذلك الشعراء للصربون وخاصة في عصر المماليك ، ومن أمثلة ذلك قول ابن نباتة ملفزا في قلم :

مولاي ما اسم لناحل دقت وما به علم ولا ضخم
لسان قوم فإن حذفت وإن صحت بعض الحروف فم
(٤) المدائح النبوية ، وهي غرض نظم فيه الشعراء في عصر المماليك ، ولوقوه بلون جديد ، وضمنوه الكثير من الحكيم والأمثال التي صارت مسير الشمس ، وجرت (١) على الألسنة وحلقت في سماء الروحانيات وصورت شعور صاحبه نحو اللقائم الكريم مقام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكل ذلك جديد لم يطرقه شاعر قبل البوصيري المتوفى سنة ٦٩٥ هـ ذلك الشاعر المبدع الذي برع في هذا الباب حتى استحق أن يسمى مخترع المدائح النبوية . وليس هذا الفن وليد الحوادث الجارية في هذا العصر كما كان الحال في الأندلس فإن مدائح الرسول هناك اشتملت على الكثير من الشكوى والاستغاثة والاستنجاد ، وهذا مما أحاط بالأندلس من البلياء والكوارث التي صيها المسيحيون على رؤوس المسلمين باستقلالهم على بلاد الأندلس الزاهرة ، وفي هذه الحوادث للدهمة كانت سيوف المسيحيين تعمل في رقاب المسلمين وترتكب في حرمان الإسلام أفظع الأثام وطبي أن ترتفع أصوات الشعراء في هذه الأحوال بالاستنجاد برسول الله والأولياء الصالحين ، وقد ظهر ذلك في شعر لسان الدين

ابن الخطيب وغيره من شعراء هذا العصر بالأندلس ولم يكن الحال كذلك في مصر وإن لم تخل من موجبات الأسف والألمى من مظالم الحكام وانتشار الأوبئة والجهالة والفقر المدقع ، غير أن ذلك لم يبلغ مبلغ الألمى الأندلسية .

لقد ابتكر البوصيرى في مصر هذا اللون من اللحن مديح الرسول استجابة لداعى نفسه للتعلمة بالرسول الأمين ، وقد أحسن في شعره كل الإحسان ؛ وأصاب الشعراء بعده موجة التقليد ، فأخذوا ينظرون في مدائح الرسول تقليداً لقصيدة البوصيرى السجاء بالبردة ولكنهم لم يأتوا فيها بدليل على تأثرهم بصفات الرسول وشعورهم نحو مقامه الكريم ، ذلك الشعر الذى لا يدع لشاعر مجالاً إلا لحشو شعره بالمحسفات البديعية فجاء صورة مشوهة لقصيدة البوصيرى . وأول من نظم في ذلك صفي الدين الخلى اللغوى سنة ٧٥٠ هـ فأنشأ قصيدته التى مطلعها :

إن جئت مسلماً تسلم عن جيرة العلم وافر السلام على عرب بذي سلم
ثم جاء جمال الدين بن نيانه للغوى سنة ٧٦٨ هـ فنظم بديعيته التى أولها :

صحا القلب لولا نسمة تهخطر ولعة برق بالقضا تسمر

ثم جاء بعده عز الدين اللوصلى سنة ٧٨٩ هـ فنظم بديعيته التى أولها :

براعة تسهل الذم في العلم عبارة عن نداء المفرد العلم
ثم جاء بعده ابن حجة الجوى المتوفى سنة ٨٣٧ هـ فنظم بديعيته التى أولها :

لى فى ابتداء مدحك يا عرب ذى سلم براعة تسهل الذم في العلم
وقد ضمن بيته شعراً من مطلع عز الدين اللوصلى إماماً في التقليد ، ثم جاء

جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ معارض بديعية^١ الحمري بأخرى معالها:

من العقيق ومن تذكّار ذى سلم براعة العين في استهلاكها بدم

مّم جاءت الشبيخة الصالحة عائشة الباعونية فكانت لها بديعية أولها :

• في حسن مطلع أهاز بذي سلم أصبحت في زمرة العشاق كالعلم

وهكذا نشأت البديعيات في الشعر العربي هذا العصر، وهي قصائد من بحر

اليسيط في مدح النبي صلى الله عليه وسلم يشتمل كل بيت منها على نوع بديعي

وقد يشير الشاعر في البيت إلى اسم النوع .

ومنشأة هذه البديعيات يرده أبو صيرى، إذ عمد الشعراء بعده إلى معارضة

وفوقه بإظهار قدرتهم في البديع ولكنهم لم يوفقوا إلى الإجابة فجاءت هذه

البديعيات صوراً مشوّهة من الكلف الملقوت والنسج السخيف وجرت (١) على

الأسننة وحلقت في سماء الروحانيات وصورت شعور صاحبها نحو القمام

الكرّم مقام الرسول ﷺ ، وكل ذلك جديد لم يطرقة شاعر قبل أبو صيرى

المتوفى سنة ٦٩٥هـ ذلك الشاعر المبدع الذي برع في هذا الباب حتى استحق

أن يسمى مخترع المداخل النبوية . .

• — ومن الأغراض الشائعة في الشعر المصنوع في هذا العصر شيوع

الوصف للأشياء التافهة ، من مثل وصف سبيحة أو مروحة أو (سجادة) ، أو

دواة ، أو ما شابه ذلك ، ومن أمثلته قول التواحي الشاعر المصري القاهري

الشهور المتوفى سنة ٧٤٩ أو ٨٥١هـ يصف نخدة .

(١) ص ١٣ دراسات للأدب .

هي نفع وائنة للنفوس وحياة وراحة للجسد
كم قدیم أرحته بانسكاه وتواضعت عند رفع الروس

٦ — التاريخ الثموى وقد نظم منه الشعراء في آخر هذا العصر، يؤرخون به حادثة من الحوادث أو خطباً من الخطوب فيأنون في آخر بيت من القصيدة، بملقطة أو بحملة إذا حبت بحساب الجمل يكون عددها موافقاً للعام الذي وقعت فيه الحادثة، ويسبق ذلك ذكر « أرخت » أو « قلت مؤرخاً » أو ما شابه ذلك، ومن مثل ذلك تأريخهم لفتح التسطنطينية عام ٨٥٧ هـ يقولهم « بلدة طيبة » ، وقال شاعر يؤرخ وفاة ابن المؤيد عام ٩٢٢ هـ بقوله :

قل للذي ينتهي تأريخ رحلة نجل المزيه مرحوم ومبروك

أوزان الشعر وقوانينه :

٦ — وقد جرى الشعراء على النظم من البحور السبعة عشر ، ثم راجح الموشح في هذا العصر فأكثروا من النظم منه ، استطرافاً له ، وكذلك نما الأديب العامي وتمثل في الزجل الذي ذاع وشاع في هذا العصر ، ومن أشهر الزجالين في مصر ، خلف الغباري ، وقد نظم الزجل في جميع أغراض الشعر ، ويذكر الدين القرشي ، وأحمد الدرويشي ، وسواهم ، وكان إمام الزجل في الشام أحمد الأمشاطي المتوفى عام ٧٢٥ هـ . وفي المغرب نشأ شعر عامي سموه « الأصمعيات » وفي المشرق سموه الشعر البدوي الذي نظموا منه قصص الزبير سالم والزنادي خليفة . . وكانوا يسمون الفناء بالشعر البدوي « الحوراني » ، ومنه قول الشريف ابن هاشم ببكى الجازية بنت سرحان في قصيدة مطلعها :

قال الشريف ابن هاشم على ترى كيدى حرى شكت من ذفيرها (١)

وفى مقدمة ابن خلدون أمثلة كثيرة له.

٢ — وقد نظم الشعراء كذلك من الأوزان المستحدثة الأخرى مثل :
القرما والدويت وكان وكان وللواليا .

٣ — كما أكتروا من التشطير والتخميس ، وتداولوا القصائد المشهورة
كمعلقة امرئ القيس وبانت سعاد لكعب بن زهير — بالتخميس والتشطير .

ومن ذلك قول ابن داود القرشي المصري المتوفى عام ٨٧٨ هـ فى تخميس
بانت سعاد :

قل للعواذل مهما شئتوا قولوا فليس لي بعد من أهواء مقول
ناديت يوم النوى والدمع مسبول بانت سعاد فقلبي اليوم مقبول
مقيم إثرها لم يفد مكبول

شاعر مصر في عصر المماليك

جمال الدين بن نيانة

٦٨٦ — ٧٦٨

تمهيد :

يعتبر شاعر مصر الكبير ابن نيانة أمير الشعر والشعراء في عصر دولة المماليك البحرية ، وقد خلف لنا ديواناً ضخماً يقع في نحو ستائة صفحة ، وقد طبع في مصر لأول مرة عام ١٩٠٥ مرتباً على حروف الهجاء . . . وهو أحق الشعراء المصريين في العصور الوسطى بالدراسة والنقد . . . وهذه الدراسة على إنجازها تحتوي على توضيح خصائص الشاعر ومباهات الفنية ؛ ورسم صورة كاملة لشخصيته الاجتماعية والفكرية .

عصر ابن نيانة الميانى :

عاش الشاعر جمال الدين محمد بن محمد المعروف بابن نيانة في عصر المماليك البحرية ، هذا العصر الذى امتد أكثر من قرن أو ربع من الزمان (٦٥٧ — ٧٨٤ هـ) .

والذى مهد لقيام هذه الدولة هو السلطان عز الدين أيبك التركمانى الذى حكم مصر سبع سنوات (٦٤٩ — ٦٥٥ هـ) ، وتزوج شجرة الدر ، ولما مات

خلقه ابنه المنصور ، وكان صبيا فتولى الوصاية عليه القائد سيف الدين قطز .
وأعلن هذا القائد عام ٦٥٧ هـ خلع المنصور ؛ وتولى ملك مصر مكانه . وبهذا
بدأت دولة المماليك البحرية .

وملوك هذه الدولة هم في الأصل من مماليك الصالح نجم الدين الأيوبي .
وكان قد أكثر من شرائهم وصعدوا في جيشه إلى الرتب العسكرية الكبيرة ،
وانتخب منهم أمراء لدولته ، وأسكنهم معه في قلعة الروضة وسماهم « البحرية » .

ومن أشهر ملوك هذه الدولة : قطز الذي هزم التتار في عين جالوت
بفلسطين عام ٦٥٨ هـ هزيمة ساحقة وقتل وهو عائد من المعركة . ثم
الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ) وهو أشهر سلاطين
المماليك البحرية ، وهو الذي بايع في مصر أحد أبناء الخلفاء العباسيين بالظلمة
ولقبه « المنصور » واستمد سلطنة الملك منه نائبا عنه عام ٦٥٩ — ٦٦١ م .

ومن ملوك هذه الدولة أيضا : الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالح
(٦٨٧ — ٦٨٩ هـ) وفي أواخر عهده ولد ابن نباتة شاعرنا الكبير عام ٦٨٦ هـ
٦٨٧ م ، وقد بقي الملك في بيت المنصور أكثر من مائة سنة وساد في عهده
العمل والسكينة .

وعاصر الشاعر من ملوك مصر : الأشرف خليل بن قلاوون ٦٨٩ — ٦٩٣ هـ
ثم الملك الناصر بن قلاوون (٦٩٣ — ٧٤١ هـ) ثم السلطان حسن بن الناصر
وقد تولى بعد أبيه ، ثم الملك الأشرف شهبان الذي مات الشاعر في حكمه .

وتمتاز عصر هذه الدولة بأنه من أزهى عصور مصر الإسلامية سياسيا ، فقد أصبحت مصر فيه دولة ضخمة تمتد من برقة غربا إلى الفرات شرقا ومن آسيا الصغرى شمالا إلى النوبة جنوبا . . وكانت الحجاز واليمن والشام ومصر تكون وحدة عربية كبرى وامتدت سيطرة مصر البحرية بفضل أسطولها وجيشها إلى جزر البحر الأبيض المتوسط وإلى الخليج العربي والمحيط الهندي ، وسارت تجارتها في كل طريق ، وقد طردت هذه الدولة الصليبيين نهائيا من الشام (١) وهزمت التتار وردتهم على أعقابهم خامسين مدحورين . . وتزعمت مصر العالمين العربي والإسلامي ، وأخذت تزعم الأمة العربية التي كان لصالح الدين الأيوبي الفضل في الفضال عنها ، وفي جمع شمل العرب حولها .

البيئة الثقافية التي عاش فيها ابن نباتة :

ولد ابن نباتة في القاهرة وعاش أكثر سنى حياته فيها . . وكانت القاهرة عاصمة العالم الإسلامي .

فقد انتقلت إليها الخلافة العباسية بعد سقوط بغداد ٩٥٦ هـ في أيدي التتار ، وهاجر إليها العلماء من بغداد وغيرها من عواصم العالم الإسلامي للضربة التي دمر الكثير منها التتار والصليبيون . . وأصبحت القاهرة مركز العلم والثقافة لبلاد الإسلام جميعا . . وكثر فيها المدارس والجامعات ، وازدهرت بسبب

(١) كان ذلك في عهد الملك الأشرف بن قلاوون عام . ٦٩٩ هـ وهو العام الذي فتح فيه هذا السلطان عكا مقر الإمارة الأخيرة للصليبيين ، ودمرها ، ولم يترك في بقية الساحل أحداً من الفرنج .

ذلك الحياة الثقافية ، حيث كثر العلماء وتعددت تأليفهم وموسوعاتهم ، ومن بينهم : ابن هشام للمصرى (٨٧٦١) ، وابن عقيل (٨٧٦٩) ، وابن فضل الله العمري (٨٧٤٩) صاحب كتاب مسائل الأبقار ، وابن الوردي (٦٨٩ — ٨٧٤٩) ، وأبو حيان (٦٥١ — ٧٤٥) ، وتوفي الدين السبكي (٨٧٥٦) ، وشهاب الدين الدورى (٨٧٣٣) صاحب كتاب « نهاية الأرب » .

والتراث العلمى الضخم الذى ينسب لهذا العصر كان الفضل فيه للأزهر الشريف وعلمائه ، وللعلماء للذين وفدوا على مصر من كل مكان فى الأرض ، مهاجرين من غزو التتار للعالم الإسلامى . وهو أضخم تراث فى تاريخ مصر العلمى .

البيئة الأدبية التى عاش الشاعر فى خلالها :

وقى عصر ابن نباتة كثر الأدباء والكتاب والشعراء ، فمن الشعراء : ابن دانيال للوصلى (٨٧١٠) ، ونصير الدين الحامى للقرقى عام ٧١٤ هـ وشمس الدين محمد بن الغيف للقرقى عام ٦٨٧ هـ ، وعلاء الدين الوداعى للقرقى عام ٨٧١٦ هـ ، وشهاب الدين بن أبى حجلة المغربى (٨٧٧٦) ومهر بن الوردى (٨٧٤٩) ، وصلاح الدين الصمدى (٨٧٦٤) وابن اللبانة (٨٧٥٣) ، والتيراملى (٨٧٨١) وصفي الدين الخلى (٨٧٥٠) ، والوطواط (٨٧١٨) .

ومن الكتاب محبى الدين بن فضل الله العمري (٨٧٤٩) ، وولده شهاب الدين (٨٧٤٨) وأخوه علاء الدين ، وشهاب الدين محمود الخلى (٨٧١٩) وابن حبيب الخلى للقرقى ٨٧٧٩ وهو صاحب كتاب « نسيم الصبا » ، وسواهم .

وكانت الكتابة تعتمد على طريقة القاضى الفاضل مع كثير من المبالغة والصنعة البديعية . وكانت الخطابة ضميعة ، ومن أعلامها ابن جماعة (٧٧٣هـ) ، وجماعة آخرون .

أما الشعر فقد كسدت سوقه بضعف الملوكات ، وقلة تشجيع الحاكمين وولاتهم — وهم كلهم أو جلهم من الأعاجم — للشعراء . ومع ذلك فقد نبع فيه الكثير من الشعراء ، ومن بينهم ابن نباتة شاعرنا ومناقبه أخرى من أعلام الشعراء . في ذلك العهد — وإن غلب على الشعر والشعراء طابع الصناعة الانغليزية والوشى البدعى الذى بعد أكثره عن الطبع والقطرة والموهبة الخالصة الصادقة في تعبيرها وتصويرها .

وفي هذه البيئة الأدبية السامة عاش ابن نباتة ، ونبع في الشعر ، وطارت شهرته فيه .

حياة الشاعر

ميلاده وأمرته :

ولد ابن نباتة ، جمال الدين ، محمد بن محمد بن محمد الشاعر المصرى بمصر في القسطنطينية في « زقاق القناديل » في ربيع الأول عام ٩٦٧هـ ١٢٨٧ م وهو من سلالة ابن نباتة الخطيب عبد الرحيم خطيب سيف الدولة الحمداني القوي عام ٩٧٤هـ ، وكان والده شمس الدين بن نباتة (٦٦٦ — ٧٥٠هـ) عالماً أدبياً شاعراً راوية للحديث ، تولى دار الحديث النورية .

وهكذا ولد الشاعر في بيئة علمية جلييلة ، ونشأ في بيت مفعمة وأدب ، مما
انفخر به ابن نباتة فيما بعد في شعره إذا يقول :

لي حين أنصب أسرة عربية كانت تعد الشهب من أخلاق
ويقول :

ورثت اللفظ عن سلفي وأكرم بآل نباتة النور الخراة
فلا عجب للفظي حين يحلو فهذا النطر من ذلك الغيات

نشأة الشاعر وحياته :

نشأ ابن نباتة في بيت سرى ؛ وبين أسرة ظاهرة الجاه والنفوذ ، وفي ظل
أب عطف حنون ، أب ذاع صيته في العلم ، والفضل والأدب ، وكثيرا ما ردد
شاعرنا الفخر بأبيه وآله ، ويمجد بيته .

وكان والده الأستاذ الأول له ، أخذ عنه مبادئ العلوم والأدب ، كما أنه
درس على كبار العلماء علوم الدين والحديث والفقه والأدب .

وقد شاهد الشاعر اختلاف السلاسل حول العرش بين الماليك ، والكنهر
من مظاهر الانقسام والاضطراب بين الأمراء . وهي هذه الأحداث والتي أثرت
في نفسه وفي خلقه تأثيراً كبيراً .

وهكذا نجد البيئة العلمية التي عاش في وسطها ابن نباتة قد أثرت فيه تأثيراً
واضحاً ، وكذلك تأثر بالبيئة الأدبية تأثراً واضحاً ، تلقى العلم والأدب على كيد

الشيخ في القاهرة ، وعلى رؤساء الدواوين ، وأكبر على قراءة شعر القاضي
الفاضل ورسائله ، فوسخت في نفسه طريقته من الولوج بالقرينة والعباق
والتضمن وعمل على تأييدها والإشادة به وبها ، فكان بعد الفاضل إماماً لهذه
الطريقة في الشعر والنظم على حد سواء .

قال ابن نباتة الشعر وقد اجتاز الثالثة عشرة من عمره وذلك يدل على
موهبة صادقة ونظرة خالصة وإطلاع كبير ، فقد حدث عن نفسه أنه أخذ
بقرض الشعر عقب دخوله على ابن دقيق العيد مع والده عام ٧٠٠ هـ . حيث
ناول ابن دقيق كتاب الحماسة وجزءاً من الأخيرة لابن بسام فأقبل عليهما ابن
نباتة الشاب الصغير يشنف وشغل بهما حوله ، فتنبأ له الشيخ بمستقبل باهر في
الأدب وبشر والده بذلك على مسمع منه ، فكان لهذا أثره في نفسه .

وما لبث ابن نباتة أن علا نجمه في الأدب والكتابة والشعر وظل يترقب
عملاً رسمياً تظهر فيه مواهبه وخاصة في ديوانه الرسائل فلم يفلح ، فهاجر إلى
الشام عام ٧١٦ هـ حيث درس الحديث في بعض مدارس دمشق ، ثم تولى نظارة
تلك المدرسة ، وأخذ عاصمة الأمويين دار إقامة ، وأخذ يتردد على مدن الشام
يساجل الشعراء ويتأطر الأديباء ويمدح الأمراء ، وله قصائده المؤيدات في مدح
المؤيد ملك حماة وكان المؤيد يثق عليه عطفه ، وعين له راتباً سنوياً يصرف له .

وعلى يدى شهاب الدين أحمد بن يحيى العمري تقلد منصباً في ديوان الرسائل
بدمشق عام ٧٤٣ هـ ، ثم جعل شرفاً على تحصيل رسوم الخراج المسيحيين
الوافدين لزيارة كنيسة القيامة ببيت لحم . وفي عام ٧٥٧ هـ أو عام ٧٦١ هـ عاد

إلى مصر حيث استلغاه الناصر حسن وأسند إليه عملاً حكومياً وأعفى من الحضور إلى الديوان الكبير سنة وكانت أهم الأحداث في حياته هي: فقره وغربته وفقده أولاده صفاراً، حتى قيل إنه دفن نحو سبعة عشر ولداً كلهم ماتوا أطفالاً.

وقد ذاق ابن تيمية في حياته ألم الفقر وشقاء وعاش متمسكاً بضرع يقدب حظه في الحياة، ويعلم قصيبه منها .

وقد كانت منافسة معاصريه الأدبية له ، وحسبهم إياه على تفوقه في الشاعرية ومساجلاته معهم مما يذكر في نفسه روح الشعر والصبر مما .

وعاش يكافح في سبيل الحياة والعيش ، يمدح الملوك والأفراد دون أن ينفعه ذلك بطائل ، وأخيراً اختلط في أواخر عمره ، ومات بالبيارستان للنصوري بالتحسين عام ٧٦٨هـ — ١٣٦٦م عن اثنين وثمانين عاماً ، ودفن الصوفية (١) .

(١) راجع : الجزء الثالث من الدور السابعة ، الجزء السادس من طبقات الشافعية للسيدي ، شرح العيون ، الجزء الثاني من المفصل ، جمال الدين بن تيمية للشيخ حامد مصطفي ، تاريخ آداب اللغة العربية لجوحي زيدان ، جزء ١١ ص ٢٠ النجوم الزائرة لابن تيمية بردي - خزافة الأدب لابن سحبة الخوي ، بدائع الزهور جزء ١ ص ٢٢١ ، شذرات الذهب :

بمصادر إلهامه الشعرى

لقد كانت كل الأسباب تتجمع لتخرج من ابن نباتة شاعراً ضخماً يمثل عصره الأدبى ، وعصره السياسى والاجتماعى ، وكانت هذه الأسباب تعمل عملها فى نفس الشاعر وعقله وفنه .

وأولى هذه الأسباب نشأته فى أسرة مشهورة بالعلم والأدب ، فأخذ عن والده حب الأدب وتذوقه ، مما نى فى نفسه روح الأدب والشعر ، وهو لما يزل صبياً فى المهد ، ولا يقع كان لتوجيه والده له أمر فى نفسه وعقله وأدبه وفى شعره وشاعريته .

وثانى هذه الأسباب البيئة الأدبية التى عاش فيها ابن نباتة ، بيئة القاهرة التى كانت تنوع بالأدباء والشعراء مما حوّل فى الأدب ، وقرب الشعر من نفسه . وثالثها : ثقافته الأدبية الواسعة التى تلقاها فى الأزهر وفى مدارس القاهرة . ورابعها : منافساته ومساجلاته الأدبية ومطارحاته الشعرية مع طبقة من الشعراء ولداته من الأدباء .

وخامسها : شقاؤه ومقره وحزنة النفس العميق وخاصة لفقد أولاده ، والحزن دائماً مما يثير الشاعرية ويغذيها .

وسادسها : ما تجمع فى نفسه من موهبة أدبية أصيلة وملكة فى الشعر عريقة ، إلى شدة ذكائه ، وقوة صناعته الفنية ، وحيه للشعر وتذوقه له مما ظهر فى شعره ظهوراً واضحاً ، وقد حاكاه فى ذلك شعره أدباء عصره : كصلاح الدين

الصفدى الذى كان كثيراً ما يغير على معانيه وتقرباته ، وكزين الدين بن الوردى وغيرهما ، ولم يأت بعده من شعراء مصر والشام من بلغ غايته فى لطف التصور ورقة المنظّم والتسليم المبالغة واستعمال المعانى البليدة .

ولقد طاش ابن نباتة فى أزهى أيام الأدب فى عهد المماليك ، وعاصر كثيراً من رجال اللغة والأدب مثل جمال الدين بن هشام المصرى وابن منفلوط وابن سبيل الناس وغيرهم ، وعاصر من الشعراء كثيراً منهم نصير الدين الحامى وشمس الدين محمد بن العفيف وعلاء الدين الوداعى وشهاب الدين بن أبى حجلة المقرئ وزين الدين بن الوردى وصلاح الدين الصفدى وابن اللبانة والقيراطى وابن دنيال الموصل ، وصفي الدين الخلى ، وخالد كثيراً من كبار الكتاب مثل : عى الدين ابن فضل الله العبرى ، وولده شهاب الدين ، وشهاب الدين محمود الخلى ، فكان لهذه المعاصرة الأدبية أثر فى نفسه وشعره .

شخصية الشاعر

وشخصية الشاعر تضح بوضوح وجللاء فى ابن نباتة وتتصل به اتصالاً وثيقاً .

فهو من جانب يعرف مواهبه القوية فى الشعر ، ويدرك تفوقه الشديد على شعراء عصره ، ويعرف مدى قوته وضعفهم . . ومن ثم كان كثير الزهو بنفسه كثير الإعجاب بشعره وشاعريته ومواهبه فى التريض . . يقول من قصيدة له فى الملك الأفضل :

فما الدر إلا دون نظم أنصه وما القصر إلا دون بيت أشيده

ويقول من مدحة نبوية نظميا في الرسول الأعظم :

ونظمت شعري نيك تزهى قصيدة على كل ذى بيت من الشعر يصر

معظمه للمنى يكرر نظنها فيحلو نياى الكلام السكر

دنت من صفات الفضل منك وإنها لتفضل ما قالته على ويحتر

وهو من أجاب آخر يقو به البش في وطنه مصر ، وتضيق به الحياة
وأسيابها ، ويقبض أمامه اليأس والحرمان شيحا رهيبا يطاردته فلا يذهب ،
ويصاوله فلا يهرب ، فيهاجر إلى الشام عام ١٢١٦ هـ ، كثير الميل ، مضطرب
الأحوال ، كما يقولون . وفي ذلك أيضا قال الشاعر :

متعللا بيد الأيام مضطربا كأنما استقسمت منى بأزلام

وفي الشام عمل في ديوان الرسائل للملك المؤيد صاحب حماة : اسماعيل بن

على التتوي عام ١٢٣٢ هـ ، وقد أصبح شاعره المقرب عنده ، وللتقدم لديه ، وجعل له
راتبا سنويا يصله بدمشق كل عام ، ثم بيته شهاب الدين بن فضل الله بديوان
الإنشاء في دمشق كما يقول ابن نباتة في قصيدة يمدح بها أخاه علاء الدين بن
فضل الله :

يلتقى يا ابن فضل الله مطلبيا لم أرجه من بنى الدنيا ولم أخل

فلت العلا وكبت الحاسدين على يد اعتنائك لا خيل ولا حيل

وقد سموت لديوان الرسائل في على أركانك لا كفى ولا رسل

(م ١١ - الحياة الأدبية في مصر)

مدى أخوك إلى سرقاه أوصلنى ولو ترقى إليه النمر لم يصل
ومن جانب ثالث فقد كان الاستبداد السياسى فى عصره يحول بينه وبين
تصور حياته وحياة المجتمع وآلام الشعب وآماله فى شعره ، ففى شعره لا يمثل الحياة
فى عصره ، لأن أثر البيئة فى نفسه كان شديداً ، ولأن الشاعر لم يتحرر من هذا
الأثر فى شعره ، ففرزة الخوف وحسب السلامة جعلته يبتعد عن المخاطر والشجاعة
وعن النقد وعن الاعتزاز بنفسه ورأيه ، وجعلته يؤثر الأمان ويميل إلى
الاستسلام والاستكانة . . . بينما كان للصنذى وابن الوردى وبعض الشعراء
الآخرين صور شعرية تمثل — وإن قلت — عصرهم ، وآثار الحياة فيه تصوراً
بيناً بعض الشيء . .

فن ابن نباتة الشعرى

يرى النقاد أن ابن نباتة أشعر شعراء عصره وحامل لواء الفن الجديد بعصر
والشام . والحق أنه بلغ النفاية فى إجادة الصنعة البديعة وفى العمق حتى أصبح
العلم للفرد فيها ، وساعده على إتقان فنه الشعرى استمداد قطرى سليم وذوق
مصرى دقيق ، وقدرته على صياغة النكتة والترشيح لها وعكوف على قراءة أدب
القاضى القاضل حتى امتزج بنفسه وتمثل فى ممتداه ولفظه ، وقد عرفنا كيف نشأ
فى ظلال الأدب منذ طفولته صباه ، وكيف تأخذ من شعراء عصره ، حتى إذا
حذق أديبهم ووعاه ، يذم جميعاً فيه ، وجرى مقبراً إلى النفاية . ثم إنه لم يكن
بالقطرة الشعرية ، كما هو الشأن فى كثير من شعراء عصره ، من أصحاب
الصناعات كإبنى الحصين الجزار ، ونصير الدين الحامى وابن دانيال السكحال

وغيرهم؛ بل إن القارىء لشعره ليرى فيه شاعراً مثقفاً اطلع على دواوين الشعراء، وأحاط كثيراً بكتيب الأدب وأخبار العرب، وألم بحملة صالحة من العلوم.

وقد كان لكثرة انتقال ابن نباتة في بلاد الشام أثر في اتساع مدى فكره الشعري، وكان ابن نباتة على تواضعه واستسلامه يدرك جمال شعره، وكان مغروراً به تياها، فلا تكاد تخلو له قصيدة من الإعجاب بمواهبه الشعرية، والإدلال بها : يقول في آخر قصيدة له :

من مبلغ العرب عن شعري ودولته أن ابن عباد باق وأبن زيدونا
حبرتها فيه زهراء اللعاطف من أعلى وأفنى ما يهدى الجيدونا
إذا رأيت قوائها وطلعتها فقد رأيت مقلتك البحر والنونا
كأن ألفاظها في سمع حسنها كواكب الرجم يحرقن الشياطينا

وفي قوله : « لقد رأيت مقلتك البحر والدون » تورية ظاهرة، مع مراعاة النظير المعروف في البلاغة بحمالة، ويقول فيه معاصره ابن حجة الطوى للترقى سنة ١٠٣٧ هـ في خزنة الأدب عند الكلام على التورية : « ابن نباتة » وإن تأخر في الحق عن قول المتقدمين عصره فقد تقدم عليهم بيديهم وغريبه بياناً وسجراً؛ ونقته في الطريقة الناضلية لمذاهب ما سلكها المتقدمون وما نحن نستجدي من خواصها نظماً وثراً؛ وكم سأله عالم في سلوك هذه الطريقة فقال : لن تستطيع معي صبراً، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً؟ وإن قيل إن الفاضل تذهب بهذا المذهب، فذهبي — وأنا أستغفر الله — أن ابن نباتة وصل فيه إلى درجة الاجتهاد، وهذا القول يقول به من دفع الخلاف وتأديب، فإن هذه الطريقة

ما أمها فاعظم ونأثر في الأيام الأموية بخولا ابتسمت ثغورها في الخلعة المباسية،
ولما انتهت الغاية إلى الفاضل أتى بهذه الفضيلة الغريبة ، وأظهر منها الزيادة
للمستفادة ، واعتادها بقاء للتأخرين بعد ما شهدوا بسبقه ، فأكرم بها عادة
وشهادة . ولما اتصلت بالشيخ جمال الدين ابن نباتة أهل عربها وشرف بأصل
شجرته النباتية نسبها ، وأسكن في أبياته من يدع النظم كل قريبة صالحة ،
وأمسك سواجم إنشائها على فروعه النباتية صالحة .

ويحل مذهب ابن نباتة في الشعر قوله يرئى ولدآ له مات صديراً :

الله جارك إن دعى جارى يا موحش الأوطان والأوطار (١)
لما سكنت من التراب حديقة فاضت عليك العين بالأنهار
شعان ما حالى وحالك : أنت في غروف الجفان ، ومهجى في الفار
كما يمثل منه الشعرى تصيدته الأخرى التي قالها يمدح بها السلطان الأفضل
ويعز به في والده للؤيد :

هنا عها ذلك العزاء للقدما قسا عيس الحزون حتى تيسما
تنور ابتسام في ثغور مدايح شيبهان لا يمتاز ذو الصبق منها
تفيض بجارى الدمع والبشر واضح كوايل غيث في ضحا الشمس قد هي
سقى النيث عنا تربة لللك الذى تدانت له الدنيا وعز به الحى
مليكان ، هذا قد هوى لفرجه برغى وهذا للأسرة قد سما

(١) الأوطار . جمع وطر ، الحاجة تهتم لها وتعنى بها .

ففي القصيدة الأولى نرى من الشاعر حرصاً على الجناس وعلى الطباق
ومراعاة النظير والمبالغة والتورية ، وعلى فنون كثيرة من البديع والصنعة
الشعرية ، التي يحتفل بها الشاعر احتفالاً شديداً ، والتي تنعكس على روح الشاعر
وموهبته النظرية وعلمه الشعري . ونجد خصائص مذهب الناضى الناشئ
واضحة كل الوضوح في القصيدة .

والقصيدة ، مع عذوبة ألفاظها وقوة ما يبدو فيها من حرارة عاطفة ،
لا تمثل روح الشاعر ، إنها كالرأفة الجميلة تلبس حلياً كثيرة تنعكس جمالها ،
وتحول دون اليقظة بحسنها وروعيتها .

وفي القصيدة الثانية ما فيها من بلاغة الاستهلال ، وروعة المطلع ، وحسن
الدلالة على المقصود ، ولكن سرعان ما تظهر الصنعة . وما ينجفى الطبع ،
وما تلاشى بهجة الفن وروعته بهذه الحلى الكثيرة التي ينقل بها الشاعر إقبالاً .
وهكذا تبدو الصناعة اللفظية كالشد ما تكون ثقلاً ، وكأقوى ما تكون
تأثيراً على نظرة الشاعر وعلى معانيه معاً .

آراء النقاد والأدباء فيه

يقول السيكي فيه : هو حامل لواء الشعر في زمانه ، وما رأينا أشعر منه :
ويقول فيه ابن حجة الخوى : هو إمام الصناعة في عصره وحامل لواء
الشعر في عصره ، مع معرفتي بمن عاصره من خصول الشعراء ... ويقول فيه
كذلك : « مشت ملوك الأدب قاطبة — بعد القاضي — تحت أعلامه » .
ويقول ابن لاس فيه : كان من خول المولدين وله شعر جيد فاق به على
من تقدمه من الشعراء .
وقال الصفي : تفرد بلطف النظم وعدوية اللفظ وجودة المعنى وغرابة
الاختراع وجزالة الكلام وانسجام التركيب .
ويرى حامد مصطفي أنه أشعر شعراء عصره عصر الماليك في مصر
والشام ، فقد كان زعيم الشعر في هذا العصر ، وحامل لواء الشعر بينهم .

أغراض شعره

نظم ابن نباتة الشعر في أغراض كثيرة :

١ — نظم في المدح ، وكان المدح أشهر أغراض الشعر في عصره ، وقد مدح
به الملوك والأمراء والعلما وأصحاب النفوذ في عصره . وإن كان قد جدد في
المدح فمدح به الرسول صلوات الله عليه ، ومن مدائح فيه :

كان الوري في حيرة حتى آتى يحلى أخبار وعاما من يبي
من سفع عدنان التي شرفت به مع ذلك الشرف التلميم للمهيم
ما الهدر في صدر السما كسفاه في قباب الخيس ولا يصدر الجمع
تقدي الهدور بيوم يذر وجهه ما بين معشره الهدور الطلمع
يا سيد الخلق الذي مدحته من آى الكتاب فواصل لم تقطع
ما ذاعى للدهج الطهور يدير من كأس التنا بعد الكتاب للترع
بعد الحواميم التي يستأنها هبعت إليك من الحبل الأرفع
من كل خوف عن سواك يندحها ورفاء ذات تعزز وتجمع

وهو هنا يضمن شعره بمض أعجاز قصيدة ابن سينا في النفس ..

ومن مدائح قوله في الملك الناصر حسن وقد أمره أن يكتب نسخة من
ديوانه ليحفظ بها في خزانة كتيبه :

أحبنا داركم والعيش نعمان والسفح دمي ودار القلب حيران^(١)
أشكو اشتياقا وما بالوصل من قدم كأن وصلى لقرط الحب هجران
وربما رمت أن أشكو المهاد إلى عدل للنعام ، وقلت : النوم سلطان
يأبها الفاصر السلطان لا غمضت عين لها عن سنى مرآكسلوان^(٢)

(١) العوش : الحياة . و نعمان : واد في طريق الطائف يخرج إلى عرفات يقال
له نعمان الأراك ، و نعمان أيضا ، صفة مشبهة من الفعل نعم نعم أى صار ناعما
لينا . حيران : بلد يشمال الشام .
(٢) السنى : ضوء البرق و . النوم سلطان : في البيت السابق تمييز عانى مبتذل

كم في ملوك الورى فضل ومعرفة لديك قد زانه بين وإيمان
أمرت شعري يا خير للوك على أشعار قوم قلى أمر وديوان

وأكثر شعر ابن نباتة في اللديح ، لأنه شاعر فقير يعيش من فنه ، وأكابر مدائحه في النبي ﷺ ثم في الملك لأؤيد صاحب حماة وأبنائه وآل فضل الله والشهاب محمود وابن الأثير صاحب ديوان الإنشاء ، ومدح الملك الناصر والسلطان حسينا ، ثم طائفة كبيرة من القضاة والولاة المختصين : وله شعر في التهئة لا يخرج عن المدح كنهاية لبعض الأصدقاء يقدمهم من الحج وغير ذلك

٢ — وابن نباتة كثير الغزل ، وغزله معظمه صناعى ، يحمله طليعة لقصائده ويستعمل في أكثره ضمير المذكر كما هي عادة شعراء عصره ومن قبلهم وأحسن ما قاله في الغزل قوله من قصيدة في مدح الرسول :

صاح القلب لولا نسمة تخطر ولمة برق بالنضا تشعور
وذكر جبين البابلية إذ بدا هلال الدجى والشى بالشى يذكر
نفا الله أكتاف النضا سائل الحيا وإن كنت أسقى أدمعاً تنهدر
٣ — وله قصائد في الحمريات وقد كان في هذا الباب مقلداً قليل الابتكار ، ومما أحسن فيه قوله :

عوض بكأسك ما أتلفت من نشب فالكأس من فضة والراح من ذهب
واخطب إلى الشراب أم الدهر إن فسدت أخت المسرة والاهو ابنة العنب

غراء حالية الأعطاف مخطر في ثوب من النور أو عقد من الحبيب

٤ — وله شعر كثير في الرثاء ، ومنه مراثيه المشهورة في ابنة ؛ ومن رثائه قوله يرثى أبنا له :

يا ظاناً ذهبت أيدي الحمام به بعدا ليومك ماذا بالحشا فعلا
هلا بنيرك ألقى الموت جانيه لقد تلتق نيك الموت واحتضلا
هلا قضى غصنك الزاهي شبيبته فما ترعرع حتى قيل قد ذبلا

وعاطفته هنا في الرثاء ضعيفة ، وكان ابن نباتة م . يثند أولاده ، قال الصندي : إنه لم يمض له ولد ، حتى دفن سبعة عشر ولداً .

٥ — وليس له في الهجاء إلا أبيات قليلة هي إلى الدعاية أقرب منها إلى الهجاء ، ولكن لسانه لم يقف عن هجو الكلام حتى في القصائد بمدح بها الكبراء ، وهذا يدل على تنحور الآداب العامة في عصره . ومن شعره في الهجاء قوله :

أما الرجاء فما راعيتموه فقد غرت بدوركم آمال سارينا
كيف السبيل إلى إنصاف قصتنا إذا خصمنا في سبيل الحكم قاضينا
كونوا كما شئتمو فإيا ومفتروا إن لم تكونوا من الدنيا كما شئنا

٦ — وله شعر في وصف يؤسه وحرمانه يقول في هذا الباب معللاً لظهور الشيب في قوده بعملة حسنة :

من يحارب خواص الدهر يخفى لون فوق في غبار الحروب

من يعم في بحار هي بظهور زيد فوق قرعه الغريب

أى فرع جون على عنت الأيام ينقى؟ أى غصن رطيب.

وهو هنا يمزج الشكوى من الحرمان بالحديث عن الثيب والحرم . .

ويقول من قصيدة طريلة :

لا عار في أدبي إن لم يفل رتبنا وإنما العار في دهرى وفي بلدى
هذا كلامى وذا حظى فيما عجباً منى لثروة لفظ وافقار يد
أما المعلوم فيبحر خضت زاهره ترى فرق رأسى فائض الزيد
وعشت بين بنى الأيام مفرداً ورب منقعة فى عيش مفرد
أصبحت لا أجتوى عيش المحول ولا إلى المراتب أرمى طرف مجتهد
جسى إلى جدنى مهواه من كذب فكيف يعجبنى مهواه من صعد

ويقول أيضاً فى الحديث عن يؤسه :

منعنى الدنيا جنى قزهد عن لقاء المكروه والمحبوب
ووجت قوتى فأعوضت كرها عن لقاء المكروه والمحبوب

ويقول أيضاً :

لقد أصبحت ذا حمر عجيب أنفى فيه بالأنكار وقتى
من الأولاد خمس حول أم فوا حرباً من خمس وست
ويقول يشكو حظ الشعراء جميعاً :
أسقى على الشعراء لآتهم على حال تثير شجاعة الأعداء

خاضوا بحور الشعر إلا أنها مما ترقى وجوههم من ماء

٧- وله شعر كثير في الحنين إلى وطنه مصر حين فارقه إلى الشام
يقول من ذلك :

بأي الخلود العاربات من البكا اللابسات من الحرير جلابيا
النايات بأرض مصر أزاهرا والزاهرات بأرض مصر كواكبا
أها لمصر وأرض مصر وكيف لي بديار مصر مراتما وملاعبا
حيث الشبية والحبيبة والوفا في الأقربين مشاربا وأصاحبا
والدهر سلم كيفما حاولته لا مثل دهرى في دمشق محاربا
وهو في هذه القصيدة مقلد للثني يضمنها شعر الثني مع ظهور قصور عنه :
٨- وله قصيدة طويلة في مائة وسبعين بيتا وقد نظمها من بحر الرجز ،
وقلد فيها الشعراء العباسيين الذين أجادوا في هذا الفن ثملى ابن المعتز وأبي
نواس ، ومنها قوله :

حتى نزلنا بمكان موثق إخوان صدق أحذقوا بالحملق
فياله في الحسن من محل مراد جسد ومراد هزل
للطير من مياهه مواقع كأنها من فوقه فواقع
حتى طوى الأثني رداء الورس والتقم المغرب قرص الشمس
وله مرشحات ومقطوعات كثيرة ، منها الثلاثيات والرباعيات
والخماسيات .

٩- ولابن نباتة شعر كثير في الوصف ولا داعي للاطالة بذكر نماذج

الصناعة الشعرية في شعر ابن نباتة

والصناعة الشعرية في شعر شاعرنا أم سمة تميز شعره ، وهي وإن كانت ظايع عصره إلا أنها في شعره تنقسم بسمة التمدد والتلون والكثرة والقوة وحسن السبك .

ويجمع النقاد على تقديم ابن نباتة في الصناعة الشعرية اللغوية ، ويعدونه إماماً في الطريقة الفاضلية .

أكثر ابن نباتة في شعره من ألوان البديع ، وخاصة التورية والاستخدام والتضمين وحسن التعليل ومراعاة النظير وتأكيده المدح بما يشبه الدم وحسن التخلّص وبراعة الاستهلال .

وهذه قصيدة تبرز فيها أم ملامح هذه الصناعة اللغوية التي عرف بها ابن نباتة وعرفت هي به ، قال الشاعر يحيى القاضى نور الدين بن حجر يقدّم من السفر :

قدم الحبيب من السفر أرايت بدرا قد سفر
بلد يقر العين لكن ما على وجه أثر
كيناء نور الدين ذى الأفضال والفضل الآخر
ذمت بنى حجر الكرام لكم فخر معبر
أهل المعالي والعلوم لمن وعى ولمن نظر
والنسبة للملياء قد شيدت بأبناء آخر
شيم زكت من أول وسادة لحقت حجر

فتجد هنا جناساً ضعيفاً في البيت الأول ، وكذلك بين المعالي والعلوم

جئاس ناقص ، وبين قوله وعى ونظروا هاهنا الخفاير ، وفي قوله حجر توردية ،
والشعر في جملته ضعيف وألفاظه العامية فيها كثيرة .

ومن شعره قوله :

يا أقرب الناس من مدح ومن كرم وأبعد الناس من هاب ومن عار
أقسمت لولا أياديك التي اشتغرت فأولأنى الزمن المودى بأشعارى
دع المكارم لا ترحل ليغيبها واقعد فانك أنت الجائع العارى

ففي قوله عار وعاب جئاس ناقص ، وقوله « دع المكارم » تضمنين من
شعر الحطيمية . والآيات من لزوم ما لا يلزم .

خصائص شاعرية ابن نباتة

أولاً في صناعة الشعر :

أجاد ابن نباتة في شتى ألوان البديع من تورية وعلجاق ومراعاة النظير وتضمن واستخدام وحسن تعليل وتشبيه واستجارة ومجاز ، وقد بلغ الغاية في التورية حتى أصبح العلم للمفرد فيها وكان لا يحفل بالجناس كثيراً وإن وقع في شعره ، وكذلك كان ابن الوردي وابن حجة . . وقد عكف ابن نباتة على أدب القاضى الناضل وعلى مذهبه الأدبي وطريقته الفاضلية حتى امتزج منه بنفسه وتمثله في شعره وأدبه ، وأصبح ابن نباتة إمام الشعراء في هذا الضمار وحامل لواء صناعة الشعر في عصره في مصر والشام .

وقد أدى حبه للصناعة النفضية إلى قلة عنايته بالألفاظ المعنوية الشديدة التي تبدو في شعر بعض الشعراء ، وكان كثيراً ما يستعمل الألفاظ البلدية ، والأساليب السوقية في شعره كقوله :

ظلمت دنياك وطلقتها فرحت لا دنيا ولا آخره

ثانياً في المعاني والأخيلة :

تقافة ابن نباتة وكثرة رحلاته وقوة ذكائه وخصب ملكاته لها أثر في معانيه وأخيلته ، ومع ذلك فقد كان قليل الابتكار للمعاني ، كثير التكرار لها ، يكتفى بمعاني السابقين . وانظر إلى معناه السمج في الرثاء حيث يرى والده صديق له :

أذات الحجبى إن الحساب لم يمنع عن النظم حتى فى رثائك يسمع

ماذا يقول الشاعر ؟ يقول إن البيت امرأة ؛ وإن ذلك يمنع من الكلام فيها والحديث عنها حتى فى مواقف الرثاء ، وهو معنى ضئيف تخيف ، وقد فاته أن موقف الرثاء يذهب للام عنه وهو يتحدث عن المرأة ، ويقول :

رأى النفس أعطاف التزال للفرطى فقام مقام المجتهدى للتعلق

يريد أن يقول : إن هذه المادة هيئاً القامة ، تستعير من النفس اعتدال القامة ، أو يستعير النفس منها طولها القارع .. وهو معنى عادى علمى وقد حجته بهذه الصناعة اللفظية المقوتة . ، ومن معانيه الجيدة قوله :

نهجت فى الظلام إلى شعاع كأن شعاعها قيس بلوح
وحينئذ بصائية شموس كما يترقرق الدمع الصفوح
كأننا قد سلينا الديك عينا فقام من الكرى فرعا يصيح

وكثيراً ما كان يأتي بيمان علمية مبتذلة تحط من مكانة الشعر والشاعر .
وخيال ابن نباتة على أية حال خيال ضعيف عقيم لا يبتدع فيه بل يقع ويقلد *

ثالثاً من حيث القيمة الفنية :

وقى شعر ابن نباتة كثير من العيوب والأخطاء ، ومن أخطائه ما وقع فى شعره من ضرورات شعرية ، ومن حشو ، ومن إسفاف فى الصناعة البيديية ، ومن أساليب ومعان عامية مبتذلة ، ومن حقائ لتفوية ؛ كقوله :

إليك مدير الكأس عنى فائق رأيت دموع الخوف تنقع للصدى

فقد عدى النمل تنقع باللام وهو يتحدى بنفسه . . . وكقوله :

وما أبهى إذا استكثرت عائلة فقد كفى هم إصباحي وإمساى

ولفظ عائلة ليس عربيا :

وكان ابن نبانة كذلك كثير الإهارة على شعر علاء الدين الوداعى
للقوف عام ٧١٦ هـ وعلى يدائه وقد أورد ابن حجة الحموى فى خزنة الأدب
مائة من ذلك قال الوداعى :

والنهر كالبرد يملو الصدى ببرده من قلب ظمآنه

أخذه ابن نبانة قتال :

والنهر فيه كبرد فلاجل ذا يملو الصدى

وقال الوداعى :

ما كنت أول مغرم محروم من ياخل هادى النقاد كرم

أخذه ابن نبانة قتال :

مينخل يشبه ريم القلا يا طول شجوى من نخل كرم

منزلة ابن نباتة الشعرية

يجمع النقاد على أن ابن نباتة كان زعيم الشعر والشعراء في عصره ، وكان مع ما أخذ عليه من أكثر الشعراء تجديداً ، وأبدعهم صنعة وأقلهم خطأ وأحرصهم على سلامة اللغة ، وأكثرهم فنون شعر وطول قصيدة .

وقد كان ابن نباتة رائداً للشعراء في عصره يتبعونه في مذهبه وطريقه فظلمه ويحتذونه في أساليبه ومعانيه ، وقد ألح صلاح الدين الصفدي للثغرى عام ٧٩٤ هـ بالشام على معاني ابن نباتة بمصر ، فلم يترك معنى حسناً إلا أغار عليه حتى اضطر ابن نباتة إلى أن يؤلف كتاباً يجمع هذه السرقات ، ويسماه « خبز الشعير » ، ومما جاء فيه قول ابن نباتة . وقلت أنا :

أسعد بها يا قمرى برزة سعيدة الطالع والنارب
صرخت طيرا وسكنت الحشى فإ تعديت عن الواجب (١)
فأخذ الشيخ صلاح الدين وقال من البحر :

قلت له والطير من فوقه يصصره بالبندق الصائب
سكنت في قلبي غركته فقال : لم أخرج عن الواجب
وأحسن ما وقع في هذا الباب للشيخ جمال الدين أنه قال :
بروحى عاطر الأغاس إلى ملء الحنن حالى الوجنتين

(١) طيور الواجب أربعة هشر طائرا وهي على ضربين : طيور الشتاء وطيور الصيف . . صبح الأعشى جزء ٢ صفحة ٦٢ .
(١٢ م — الحياة الأدبية في مصر)

له خالان في ديفار خد تبايع له القلوب بجيتين
فأخذ الصلاح وقال :

بروحي خذه المحرم أضحت عليه شامة شرط الحية
كأن الحسن بعثته قديما فقطعه بسيفار وحية

فلما وقف الشيخ جمال الدين على هذين البيتين قال : لا إله إلا الله ،
الشيخ صلاح سرق ، كما يقال من الحيتين حية .

وحقا إن ابن نباتة لم يدر الشعر والشعراء في عصره ، وقصد اعتراف له
معارضوه بالإمامة . وشعرا . طبقه هم : برهان الدين القراطبي ، وصلاح الدين
الصدقدي ، وصفي الدين الحلبي .

وهؤلاء على تجويدهم لا يبلغون مبلغ ابن نباتة في روائعه وبدائمه وفنه
الشعري ، ولا يكادون يصلون إلى منزلة الشعرية ، وإن كان صفي الدين الحلبي
أقل احتضالا من ابن نباتة باليديع ، وأكثر قربا بديباجة إلى العربية السليمة
وأكثر جزالة ، من حيث كان ابن نباتة أكثر رقة وإبداعا .

نثره النقي

ولأن نبانة نثره نقي بليغ ؟ فقد كان كاتباً كما كان شاعراً ، وكأنه يصف نفسه وهو يخاطب مدوحه فيقول :

يعظم من كان ليكم شاعراً . فكيف وهو الشاعر الكاتب

وأسلوبه في الكتابة هو أسلوب عصره ، أسلوب القاضى القاضى يجرى فيه على طريقته ، مع تحيزه للسهولة ، وبعدة عن التعمير والتعميق والغزابة ، يسلط فيه سبيل صناعة البديع في يسر وهوادة ورق ، مما جعل نثره حسن النسيج ، كثير الجلال النقي .

قال على لسان القلم برد على السيف ، وذلك من رساليه في المفاخرة بين

السيف والقلم :

أنا فخري وأنا الموصل وأنت للقطع ، وأنا للعطاء وأنت للنعيم ، وأنا للصالح وأنت للضراب ، وأنا للعمارة وأنت للخراب ، أعلى منى يشق القول . ويرفع الصوت والصول ، وأنا ذو اللفظ الكثير ، وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى : أو من يتشأ في الخلية وهو في انحصام غير معين لا فقد تعددت حديثك ، وطلبت ما لم تبلغ به جهتك ، هبها أنا التائم بمصالح الدول ، وأنت في النمد طرح ، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح ، والساعي في تدبير حال القوم ، واللقى لفتهم العور ، إذا كان فمك يوماً أو بعض يوم ، فاقطع عنك أسباب المفاخرة ، واستر أفتابك عن الكاشفة ، فما يحسن بالصامت بمجاورة المنصيح ، والله يعلم للفسد من الصالح .

مدارس الأدب في عصره

هذا ويلاحظ أن الأدب المصري إلى عصر ابن نباتة كان مذاهب أو مدارس .

الأولى : مدرسة البديع وزعيمها القاضي الفاضل ، ومن أعلامها : ابن مناء الملك ، وابن الفقيه ، وعمر بن القارص ، ومحي الدين بن عبيد الظاهر ، وابن نباتة ، وغيرهم .

الثانية : مدرسة الماعاني وزعيمها : البهاء زهير وصديقه جمال الدين بن مطروح ، ومن أعلامها : أبو الحسين الجزار ، والسراج الوراق ، ونصير الدين الجامى . . . وسواهم .

آثار ابن نباتة ومؤلفاته

١ — ديوان شعره وهو مطبوع في بحر السمتانة صفحة بالقاهرة عام ١٩٠٥ م وصرت على حروف المعجم .

٢ — شرح الميمون في شرح رسالة ابن زيدون المزيالية .

٣ — مطلع القوائد ومجمع القوائد ، وهو كتاب في الأدب .

٤ — خبز الشعير . وهو في تعداد مبرقات الصفدى من شعره .

٥ — ومن اختياراته : الفاضل من إنشاء القاضي الفاضل ، وهو مجموع رسائل إنشائية اختارها ابن نباتة من رسائله الكثيرة .

٦ — وله كتاب ، سلوك دول الملوك ، ومعه نسخة خطية في أكاديمية

فيها ٢٠٠ ومن مؤلفاته : القطر النبأى اختار فيه كثيراً من مقطوعاته الشعرية في النزل ، ومتنخب الهدية في المدائح المؤيدية ، وتلطيف الزاج بشعر بن حجاج . . وله اختيارات من شعر الشعراء . . وله مناظرة طويلة من إنشائه بين السيف والقلم أوردتها ابن حجة في خزائنه .

التورى وأثره في الأدب

كان السلطان أبو النصر قانصوه التورى من أنذاذ ملوك مصر وحكامها في عصر المماليك، وقد جلس على العرش ستة عشر عاماً (٩٠٦-٩٢٢:١٥٠١-١٥١٦ م) .

وايمه للمماليك والعلماء والأعيان وأرباب الدولة . وكان تقياً مخلصاً عفيفاً، لا يدخل في خصومة ، ولما بلغه أمر مبايعته صاح قائلاً : لا أخالف لكم أمراً إنما أراى غير لائق بهذا المنصب، لأنى لم أعتد معاقلة الأحكام والأمر والنهى، فأجابوه « إن صدق نيته وإخلاصه وثقة الناس فيه كافية لامتدحاقه هذا للنصب » . ولم يريد أن يقبل ، لكنه قال لهم : أكون في غاية السرور إذا جتمعتم يوماً تبنوننى بالإقالة من هذا المنصب ، فأرجع إلى مساكنته من معيشة السكينة ، فولوه في غرة شوال من عام ٩٠٦ هـ ، والقبوه بالملك الأشرف .

نشر التورى الأمن والسلام والطمأنينة داخل مصر ، فاطمأنت البلاد ، وسكنت الفتن ، وأخذ يقوم بسلسلة كبيرة من الإصلاحات الداخلية ، وبنى

مسجد النوري ومدرسة سميت بإسمه أيضا * * ولكن حظه كان سيئا للغاية فقد ورث تركته منقلة بالديون والتبعات ، فقبل حكمه بثلاث سنوات أو عام ٩٠٣ - ١٤٩٨ كشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح ، وأخذت التجارة الشرقية تتحول إلى هذا الطريق بدل مرورها على مصر * وخسرت مصر الأروة الطائلة التي كانت تتدفق على خزائنها من رسوم التجارة ، والتي كانت هي المصدر الرئيسي لميزانية مصر . وللإبقاء على الجيش والأسطول ، وفوجي النوري ينمو قوة البرتغاليين في الهند واستعمارهم لأطراف منها فخير أسطولا بحريا ضخما ، ولكن أساطيل البرتغاليين بمعاونة بعض السفن الأوروبية هزمت الأسطول المصري وقضت عليه ، وفوجي النوري كذلك ينمو قوة الهنانيين على مشارف الشام ، ثم بالفتح كركور أخى السلطان سليم الأول إلى مصر خوفا على حياته من أخيه ، ورحب به النوري زحاما عظيما ، وجهز له عشرين بارجة حربية لفتح القسطنطينية ، إلا أنها هزمت في البحر وغرقت كلها كذلك .

وبدأ سليم يستعد لفتح مصر ، فنزا حدود الشام ، وتحالف النوري مع شاه إيران على حرب سليم ولكن القوة المصرية الفارسية هزمت شر هزيمة ، وعندئذ أدرك النوري الصور الأليم الذي ينتظره غطاب سايا في أمر الصالح وبعث إليه بوفد مصري ، فرد عليهم ردا قاسيا ، وقال ، لقد فات الأوان ، اتهموا وارجعوا إلى سلطانكم وقولوا له إن الرجل لا تثر بحجر واحد مرتين ، وما أنا ذاهب إلى القاهرة فليستعد للدفاع عنها إن كان له أعلا ، وعزم النوري شر هزيمة بفعل خيانة قواده ، وذلك في مرج دابق قرب حلب ،

وقتل النورى في المعركة تحت سنابل الخيل في ٢٤ رجب ٩٢٢ هـ وذهب ميكيا عليه من جيشه وشعبه ، وأسلم مصر وطفه لأقصى محنة عرقها مصر الخلافة الحرة ؛ وتابع سليم سيره إلى القاهرة فهزم قوات طومان باي ابن أخى النورى ودخل القاهرة ، وقبض على طومان باي بعد فترة وأعدمه رميا بالرصاص في ١٩ ربيع الأول ٩٢٣ هـ ؛ وبذلك انتهت دولة المماليك في مصر ، وحكمت تركيا أرض الوطن ، واستولت على إمبراطورية مصر العربية الإسلامية وعلى أسطول مصر ، وقضت على الجيش المصرى ، ونهبت بلادنا ، وقتلت الخلافة من القاهرة إلى القسطنطينية ؛ واستولت على مقاصف مصر وكثروها وأموالها ومخطوطات مكتباتها حتى العلماء والفكرين والصناع الناهرين بعث بهم إلى القسطنطينية وأسلمت مصر للدمار والخراب ، ومن يجب أن يسعى باسم السفاح الأعظم سليم العثمانى شارح في مصر ، وهو الذى قضى على حرية بلادنا واستقلالها وكرامتها .

ويقال إن سلسيا خرج من مصر ومعه ألف جمل محملة ذهبيا وقضبة عدا ما نهبه من نقاش ومحف وآثار ، وأقل سليم الخليفة العباسى المتوكل على الله إلى الأسمانة وعاش فيها أسيرا بعد أن أمضى صك التنازل عن الخلافة لسليم ، وبعد فترة قصيرة عاد المتوكل إلى مصر وعاش فيها منفردا حزينا مرموما مخجورا عليه في حريمه ، إلى أن توفاه الله عام ٩٤٥ هـ ، وهو آخر خلفاء بنى العباس فى القاهرة ، ومات سليم عام ٩٢٦ هـ ١٥٢٠ م وخلفه على عرش تركيا ابنه سليمان القانونى .

وكان سليم فظا غليظا شديدا البطش لا يرحم ، قتل أخوين له ، وقتل

خمس من أبناء أجددها ، ولما كان في مصر دعا إلى حضرته ثلاثة من الشعراء ،
فدنا وقفوا بين يديه سلوا عليه بكيفية أثارت حفيظته فأمر بضرب أعناقهم (١) .

وكان النورى من الحظ كذلك في نظرة الناس إليه ، وكان الإمام
الجليل شمس الدين النيرى على الدهياط يندد في مجالسه به لأنه ترك الجهاد
في سبيل الله فاستدعاه السلطان فذهب إليه ، وألقى تحية الإسلام على النورى ،
فلم يرد عليه ، فقال له الشيخ إن لم ترد السلام فسقت وعزلت فقال له النورى :
وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، ثم قال النورى : علام نخط علينا
بين الناس في ترك الجهاد ، وليست لنا سراكب تجاهد فيها ؟ فرد عليه الشيخ :
عندك المال الذى تمر به ، وطال بينهما الجدل والحوار ، فقال الشيخ للسلطان :
« قد نسبت نعم الله عليك ، وقابلتها بالعصيان ، أما تذكر حين كنت فىرافيا
مم أسروك وباعوك ، ثم من الله عليك بالحرية والإسلام ، ثم صرت سائطانا
على الخلق ، وعن قريب تموت وبخفون لك قبرا مظلا ، ثم يدعون
أفكك في التراب ، ثم تهبط عريان عطشان جوعان ، ثم ترقف بين يدي الحكم
المطل الذى لا يظلم متقال ذرة ، ثم ينادى المنادى : من كان له حق أو مظلمة
على النورى فليحضر ، فيحضر خلائق لا يعلم عددها إلا الله ، فتغير وجه
النورى من كلامه ، وخرج الشيخ فلما أفاق السلطان من تأثره دعا الشيخ
وعرض عليه حشرة آلاف دينار يسمين بها في بناء البرج الذى بينيه
في دمياط ، فردها الشيخ عليه ، وقال : أنا رجل ذو مال ولا احتياج إلى

مساعدة أحد ، ولكن إن كنت أنت محتاجا أقرضتك وصبرت عليك (١) وهكذا كان النورى يجد من الشعب من يقول أعامه كلمة الحق لا يخاف فيها لومة لائم . .

وكان النورى على حظ كبير من الثقافة ، فهو ضليع في علوم الدين ، من تفسير وفقه وتوحيد وتشريع ، وهو على ثقافة واسعة في التاريخ ، يعنى بقراءة مصادره ، عنايته بسماع القصص ، إلى ثقافته الأدبية العميقة ، فهو ذو علم بالأدب والشعر ، ينظم القصائد بالعربية والتركية ، وله مشاركة في الموسيقى والشغامة . وله موشحات غنى بها . . وفي تاريخ ابن عباس « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ما يكفى لتأييد كل ذلك .

وبروى للنورى ديوان شعر ، وله كتاب ، المفتاح الظريف على الموشح الشريف .

وقد ورد ذكر السلطان النورى في التراث الأدبي الذى خلفه عصره ، وهو :

أولاً : الكوكب الندى في مسائل النورى : فرغ مؤلفه من تأليفه في مستهل ربيع الآخر عام ٩١٩ هـ ، وتمة نسخة خطية بدار الكتب المصرية ويقول في المقدمة : « وبعد فأتى لما رزقنى الله سعادة الدارين وتشرفت مدة عشر ستين بخدمة سلطان المؤمنين الشريفين ، خان الأعظم ، وخاقان

(١) ١ : ١٦٤ الطبقات الكبرى لشعراوى .

المعظم ، مولى ملوك الترك والعرب والعجم حافظ بلاد الله ؟ ناصر عبد الله ،
وارث ملك يوسف الصديق ، إمام الأعظم بالحق والتحقيق ، مظهر الآيات
الربانية ، مظهر الأُمُرات الروحانية - أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، الملك
الأشرف قصدت أن أجمع درر فوائده في سمط العبارة والكفاية ، وأنظم
جواهر زواهره في الاستبصار والكفاية . لأنه ورد في كلام بعض الأئمة : كلام
الملوك ملوك الكلام سيما إذا كان المبحوث عنه تفسير كلام رب العالمين ونكت
أحاديث سيد الأئمة عليه الصلاة والسلام ، ومباحث سلطان الإسلام الخ ..

إلى أن يقول : « وجمعت شيئاً يسيراً » . فأننى منه شئ كثير . . فجمعت
من بحار فوائده قطرة ، ومن شمس بحاسه درة ، ولم أقدر أن أجمع إلا
واحداً من ألف بل من مائة ألف . . فجمعت من المسائل المشكلة ألفي
مسألة ، وسميته بالكوكب الدرى في مسائل القورى .

والكتاب ليس مقصداً على المجالس ؛ بل المسائل فيه متقاربة بغير فصل ،
والطلع على الكتاب يرى صوراً من أفكار علماء مصر وأمرائها في ذلك
العصر . يرى إلى المسائل الدينية وهي معظم الكتاب ، مسائل تاريخية وجغرافية
ويرى انتقال الحديث من تفسير آية أو حديث إلى السؤال عن بنى الأعرام
أو عن سبب زرقه السماء ، أو السؤال عن كبروت أول ملوك الشاهنامة أو كان
قبل نوح أو بعده ، أو عن شهر الحرم لماذا جعل أول التاريخ الهجرى ، أو
أهل الأرض أفضل أم السماء . ويعرض في المجالس لذكر الملوك المعاصرين ،
والأمراء الذين وفدوا على السلطان كابن السلطان سليم ، وبعض الأسئلة الدينية
التي سألها هو لأمير الأمراء ، وجواب السلطان أو بعض علمائه عنها والكتاب

على ثقافة مغلق المسائل التي يدور عليها البحث، يصور بعض النواحي الفكرية والاجتماعية في مصر والعالم الإسلامي في ذلك العصر ..

ثانياً ترجمة الشاهنامة بالتركية :

كان حسين بن محمود الحسيني الآمدي أحد شعراء العثمانيين في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجري في مصر وشهد عهد السلطان النوري وإليه فر من الأستانة إذ كان من المترين إلى الأمير جم بن محمد القناج.

وتوفي بمصر سنة ٩٢٠ هـ . وقد أمره السلطان النوري أن يترجم شاهنامة الفردوسي إلى اللغة التركية فترجمها في عشر سنين آخرها سنة ست عشرة وتسعمائة . وقد نظم الشاعر في مقدمة الكتاب فصلاً يبين فيه سبب نظمته وخلاصته ، أن السلطان كان ولما بقراءة التاريخ القصص ، وكان في خزانته كتاب الشاهنامة . فدعا الشاعر وقال له ، أفي أحب هذا الكتاب وأعرف ما تضعه من المواعظ والأخيار ، وأريد أن يترجم إلى اللغة التركية ، ليحمل عليك ادراك معانيه ، وأعرف أن لك مقدرة على فطامه . فترجمه إلى التركية . فقال الشاعر ، أيها السلطان العظم ؟ كيف تريد أن تسهل عليك معانيه بالترجمة وأنت تعرف لسان المعجم ؟ بل هو أسهل عليك من اللغة التركية وليس بك حاجة إلى ترجمته ؟ قال السلطان ، أريد أن يبقى ذكر آ بعدى يخلد الإنسان بالذكر الحسن . قال الشاعر : ولكن نظمى ليس بالبلاغة والسلاسة بحيث يعجب السلطان . وليس يسيراً أن يبلغ الكلام الدرجة التي ترضيك . والشاهنامة كتاب عسير الترجمة . قال : دع جذاوشر للأمر ، وإن لم يكن كلامك مزخرفاً مصطنعاً نلت أباي ،

لست أكلفك كلاماً ملوكياً ، ولكن أريد أن أقول باللسان التركي قولاً
درويشياً ، يقول الشاعر فلم أجد بداً من امتثال الأمر على ثقل العبء . وعلى
بعد ما بينى وبين الفردوسى . وشرعت فى نظم الكتاب فى وزن واحد آخر
غير وزنه الفارصى أبلغ . »

وفى مقدمة الكتاب وخاتمة نحو ألف بيت ، يبدأ الكتاب بالحميد ،
ومدح الرسول والخلفاء . على سنة شعراء الفوس والترك ، ثم يذكر سيرة جماليك
مصر منذ سنة ٩٠٠ هـ ، يذكر قايتباى والملك الذى خلفوه فى فترة الاضطراب
التي بينة وبين النورى . ثم يفيض فى مدح السلطان ثم يبين سبب نظم الكتاب
ويشرح فى ترجمة الشاهنامة . وفى الخاتمة يمدح السلطان وسياسة وشغفه
بالعلم والأدب ومعرفة لغات كثيرة ومشاركته فى الإنشاد والشعر ونظمه
فى توحيد الله ومدح الرسول وإلمامه بالموسيقى ونظمه موشحاً للغناء ، وولمه
بقراءة القوافى أبلغ .

ثم يصف مجلس السلطان واجتماع العلماء فيه لذاكرة العلم ، ويذكر المنبئين
والموسيقين الذين يطربون السلطان فى مجالسه . ثم ينتقل إلى وصف عبارات
السلطان وصفا مفصلاً فيمدد نسا منها . وهكذا نجد أن فى مقدمة الكتاب
وخاتمة ما يكشف بعض تاريخ الفورى ولا سيما الجانب الأدبى والفنى منه ،
ويبين طرفاً من تاريخ مصر لا نجد فى أى مرجع آخر ، ولهذا الكتاب قيمة
عظيمة فى تاريخ اللغة التركية وأدبها ، فهو سجل حافل لألفاظ اللغة التي كانت
مستعملة فى القرن العاشر الهجرى . ولا سيما شرق الأناضول ، والقواعد النحوية
والصرفية التي كانت متبعة إذ ذاك . وفيه كذلك صورة مفصلة للعمرورات

الشعرية التي كانت نفايساً اللغة من بعض الشعراء في ذلك العصر؛ والتي ذكرها ضياء باشا في مقدمة « الخرابات » .

وفي مصر النسخة الأصلية من هذا الكتاب؛ وهي النسخة التي كتبها المترجم بخطه وقدمها إلى السلطان، وكتب على صفحة العنوان فيها: برسم خزانة مولانا المقام الشريف السلطان، مالك رقاب الأمم، السلطان المالك، الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري، عز نصره وخلد ملكه وفي آخر الجزء الأول ما نصه:

« وقع الفراغ من تحرير المجلد الأول في أول ليلة من شعبان المبارك في محروسة مصر، صلها الله عن الآفات، في قبة الحسينية لأمر يشيك، نعمده الله بالرحمة والغفران . وكان به وناظمه أضعف عباد الله حسين بن حسن بن محمد الحسين سنة ثلاث عشرة وتسعمائة والحمد لله إلخ . . . » . وفي آخره الجزء الثاني، ثم الكتاب بعون الملك الوهاب ضحوة النهار يوم الأحد ثاني شهر ذي الحجة الحرام عام ست عشر وتسعمائة من هجرة النبوية عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات، وكان به وناظمه وهو أضعف العباد حسين بن حسن بن محمد الحسيني الخنفي . في مدينة مصر حرسها الله من الآفات والبلهات فجامع^١ المرحوم المغفور السعيد الشهيد المالك المؤيد شيخ سقى الله عهذه بالرحمة والمغفرة .

وهذه النسخة في ١١٧٥ ورقة كبيرة أي ٢٣٥٠ صفحة في كل صفحة ٢٥ سطراً وهي مذهبية، وبها اثنتان وستون صورة ملونة . وإزاء كل صورة

في الحاشية عنوائها بخط مذهب . وهذه الصور قيمتها في الدلالة على التصوير
المصري في ذلك العصر . وفي آخرها بالتركية أن الشاعر بدأ تنظيم الكتاب
في أول سلطنة النوري وأتمه في عشر سنوات . . . وفي الكتاب زهاء ستة
وخمسين ألف بيتا من الشعر التركي .

ثالثا : كتاب « فتاوى المجالس السلطانية في حقائق الأُمُرات الفَرَآئِدَة » :

أنه حسين بن محمود الحسيني التركي الرحالة ، وقد وفد على مصر ،
وأقام بها عشرة أشهر شهد فيها مجالس النوري ، وجمع في كتابه هذا بعض
البحوث التي كان السلطان والعلماء يخوضون فيها ، وقد كتب من هذا
الكتاب نسخة رغبها إلى السلطان ، وكتب عليها : « برسم خزنة المقام
الأشرف ملك البرين والبحرين مولانا السلطان المالك الملك الأشرف قينصوه
النوري خلد الله ملكه » ، وهي مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية .

ويقول المؤلف في مقدمة الكتاب : « أما بعد فإني لما تشرفت في خدمة
أشرف الملوك وأعظم السلاطين « ظل الله في الأرضين » ناظر أربع حرم رب
العالمين ، سلطان العرب والمعجم ، صاحب البند والعلم ، حافظ بلاد الله ، ناصر
الله ، أمير المؤمنين ، وخليفة المسلمين . ملك الأشرف ، عزيز مصر ، أبو
القصر النوري . أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره — ولازمت بابه الشريف
عشرة أشهر ، وجمعت درر فوائده في سبط العبارة ، ونظمت جواهر زواهره في
خيوط الكتاية . فإن بابه الكريم مجمع الأفاضل وجنابه العظيم بحر الفضائل .
والفواضل هذا ما خصه به الله تعالى من الفضائل النفيسة واللقب الشريفة

اللطيفة ، أعطاه من الفهم أوفره ومن الذهن أغزره ؛ ومن الخلم أشرفه ؛ ومن العلم أطقه ، ومن الرتب أقواه . ومن الملك أعلاه . ومن الشجاعة أبلىها ، ومن السخاوة أعظمها ؛ كل هذه الصفات خصه الله تعالى بمجموعها . ولهذا ارتقى إلى القدوة العالی التي كانت نهاية درجات الأفاضل الأعلی ، وفضل هذا السلطان على سلاطين الدنيا كفضل سلاطين الدنيا على الرعايا .

وكل هذه الأوصاف والثناء بما قرن به على محبة العلم والعلماء ، والفتيش عما وضعته الحكما ، في كل نوع من العلوم ، لو يقول البشر في وصف هذا للظهور إنه هو سلطان العلماء المحققين ما هو كذب في حقه أو يقول في مدحه إنه سلطان العارفين وهو عيب في وصفه » .

وجعل كتابه في مقدمة وعشر روضات . والمقدمة قصيرة تتضمن كلام بعض السلاطين ومنهم القوري ، والروضات العشر يذكر في كل واحدة منها مجالس السلطان في شهر وكانت المجالس تجتمع في كل أسبوع مرة أو اثنتين أو ثلاثاً وأولها مجالس رمضان سنة عشر وتسعمائة وأول مجلس منها يوم الخميس الثالث والعشرين من الشهر وآخرها مجالس رجب فهي عشر روضات في أحد عشر شهراً لأن السلطان لم يجلس في شهر ذي القعدة لوفاته ولده محمد . والمؤلف يصف كل مجلس وتاريخه ومدته ويذكر الإمام الذي يحضر المجلس ، وكبار الحاضرين ثم يذكر المسائل التي طرحت لايبحث في المجلس . يقول في المجلس الأول : « طلعت يوم الخميس ثالث وعشرين رمضان المبارك في تاريخ سنة عشر وتسعمائة : وكان في خدمته ناصح الملوك والسلاطين شيخ حسين جيلبي .

وكان الإمام في تلك الليلة شيخ شمس الدين السديسي ، وقعدوا في الأشرقية
سنتين درجة ، ووقع في تلك الليلة أسئلة — السؤال الأول ألخ . . » ويقول
في المجلس الثاني من شوال : طلعت يوم الأحد تاسع شهر شوال . وقعدوا
خمسین دقيقة في البيسبرية الأشرقية . والإمام كان شيخ محب الدين المسكي ،
وشيخ الإسلام كان حاضراً وخواجه غيث الدين ده دار ، وقاضى جمال الدين
الطشاب ، وكثير من الناس كانوا في الخدمة الشريفة والمعية العلمية . . . »
يبدأ السلطان أكثر الأحيان بسؤال يجيب عنه أحسن الحاضرين فيرفض
السلطان جوابه أو يناقشه ، وأكثر المسائل دينية وبعضها تاريخية ، فمنها
ألتاز في موضوعات شتى وقصص عن الملوك وغيرهم . وأحياناً يصف المؤلف
مشاهد ، ويروي أحاديث لها في التاريخ خطر كبير . فيصف إحياء السلطان
المولد النبوي . ويذكر طوائف الناس الذين اجتمعوا ، وما فعلوا في الحفل ،
ويبين عدا هذا كيف جلس السلطان ليلاً وكيف يتقدم إليه كبار الدولة
ينشد كل منهم شعراً في مدحه ، وكيف يقابلهم السلطان ، وقد ذكر أن
الخليفة يعقوب المستمك يأتى خليفة مصر تقدم « وهما الأرض كفرض العين
وعين القرض » وأنشد :

إن الخلافة ثوب قد خصصت به إذا ليست لم يفضل ولم يمر
ما أودع الله في أحداً بعدراً إلا لفرق بين الدر والخرز

وكذلك يمر القارىء بمسائل ذات خطب في التاريخ والمهاسة إذ ذاك
كقول السلطان : الجركس من الفسافة فهم عرب . وكأليبحث في شروط
الإمامة في مجلس السلطان ، وقول مؤلف الكتاب ، فإن لم يوجد من يسترقى

الشروط من ولد اجتماعيل جاز أن يولى واحد من العجم أو من ولد إسحاق وجميع هذه الشرائط موجودة في السلطان الأعظم . ونجد في الكتاب بحثاً صريحاً في نيابة النورى عن الخليفة المباسى وهل هذه النيابة لازمة لصحة أحكامه في الأمور الشرعية . ويشهد الخلاف بين المؤلف وأحد العلماء في هذه المسألة فيمدح المؤلف الخليفة ومعظم السلطان ويستغنى العلماء ويأخذ خطوطهم بأن نيابة السلطان عن الخليفة غير لازمة . ويرى القارىء أحياناً إعيام السلطان بتعليم الماليك واحضارهم من حين إلى آخر إلى مجلسه ليتروا أمامه ويمتحنهم وهكذا يجد القارىء في الكتاب مسائل مهمة لا يظفر بها في كتب التاريخ، ويرى صوراً من آراء السلطان وعلماء عصره ، ويتبين مقدار اضطلاعهم ودرجة تفكيرهم .

وفي الكتاب إشارات إلى أن للسلطان نظاماً بالعربية والتركية ، وفيه نماذج من نظم السلطان في موشح ، وفيه له قصيدتان وموشحان بالعربية وموشح بالتركية .

القسم الثاني

الحياة الأدبية في مصر في ظل العثمانيين

الأدب العربي في ظلال العثمانيين

٩٢٣ — ١٢١٣ هـ : ١٥١٧ — ١٧٩٨ م

تمهيد :

دب المرم في جسم دولة المماليك ، وأصابها الضعف الذي يتقدم فناء الدول ، فزالت هيبة الدولة واستهان الجنود بالملك وتفرقوا بينهم شيئا وأحزابا ، وكثرت الغارات على حدود الشام ، وزادت تورات العرب على الحكام والأهلين ، وخلت خزائن الدولة من المال ، لكثرة ما كان ينفق على طارات الفاتحين ، وقع صولة التأتين ، حتى قيل إن ما ألقته الأشراف طائباى على الغزوات بلغ سبعة ملايين وخمسة وسبعين ألف دينار .

وكان من أسباب ضعف دولة المماليك كشف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٠٣ هـ في أيام الناصر محمد الثانى ، لأن التجارة الهندية الداهية إلى أوربا سبكت هذا الطريق ، بعد أن كانت تضطر إلى اجتياز البحر الأحمر وتنقل من السويس إلى الإسكندرية ، وكان المماليك يفرضون على هذه المتاجر ضرائب عقيمة ينفقونها في غزواتهم ومظاهر عظمتهم ، فلما انقطع عنهم هذا المدد انصرفوا إلى الأمة المسكينة يرمونها بألوان المظالم ، وضروب شتى من الضرائب .

الفتح العثمانى لمصر :

١ — نهأت الدولة العثمانية في آسيا الصغرى عام ٧٠٠ — ١٣٠٠ م

من عدة قبائل تركية ، ورث عثمان بن أرطغرل قيادتها عن أبيه ، واستقل بحكمها عن علاء الدين سلطان السلجوقيين في آسيا الصغرى ، وكان عثمان أول ملوكها فنسبت الدولة إليه ، وتوسع خلفاء عثمان في آسيا الصغرى ، فوسعوا رقعة دولتهم فيها ؛ ثم عبروا البحر إلى أوروبا ، وفتحوا القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م ، وأقاموا دولتهم في الأناضول والبلقان على انقاض الإمارات التركية وأملاك الدولة البرنقلية - وقد ظل الأتراك العثمانيون حتى أوائل القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي يتجهون في فتوحاتهم في البلقان إلى وسط أوروبا ، أما في الشرق ، فلم يظهر لهم مطمح إلا في تأمين حدودهم على مشارف إيران والعراق والشام ، ولما تولى الشاه إسماعيل الصفوي حكم إيران (٩٠٥ - ٩٣٠ هـ) وحاول نشر المذهب الشيعي في العالم الإسلامي ، وبدأ ففتح بغداد عام ٩١٣ هـ ، وألزم أهلها باتباع المذهب الشيعي ، استعصرخوا القوى الإسلامية الأخرى لإيقادهم من زحف الصفويين ، وكانت السلطة العثمانية أكثر هذه القوى استعداداً للعدو ، ولا سيما أنها تماهى في الحسك بالسنة ، وتمتثل والدفاع عنها ؛ وأمام سعي الشاه الصفوي لنشر المذهب الشيعي في الأناضول ، بدأ الأتراك يوجهون اهتمامهم إلى حدودهم الشرقية ، وبدأوا يستقرون إلى سرخات جيرانهم العرب أهل السنة في العراق ، وقد انتهى هذا كله باصطدامهم بالدولة الإيرانية الصفوية ، وبالتوسع العثماني الكبير ، على حساب العرب ، فهزم السلطان سليم الأول الإيرانيين عام ٩١٩ هـ ودخل عاصمتهم تبريز ، ثم ارتد عنها ، وبدأ من جديد يفسر في مصر

وأملأها في الشام والحجاز وسراعا ، وضمها إلى مملكته ، لتصبح الدولة العثمانية دولة إسلامية كبرى :

وأمام الخطر الإيراني والخطر البرتغالي تجدد خطر أخويهدو مصر وسلامتها نهديداً شديداً وهو خطر الغزو العثماني . . وزاد من خطر الغزو حماية مصر لأخى سليم الأول حين لجأ إلى ساطعها .

٢ — سادت العلاقات السياسية بين السلطان قانصوه الغوري المملوكي وسليم الأول العثماني ، وبدأت جيوش سليم في غزو الشام وهي جزء من الأمبراطورية العربية التي أسسها المماليك ، وقد أخذ سليم من مفتحيه جمال الدين فتوى يجوز إعلان الحرب على مصر ، لأنها تحالفت مع الإيرانيين الشيعة أو كما تقول الفتوى : الملحدين ، ولأنها تؤثر تزديج أبنائها من الشراكسة — أو السكفار كما تقول الفتوى — ولأنها تنقش الآيات القرآنية على الدرهم والدنانير مع أن النصاري واليهود يقدوا ولونها . . ودارت الحرب حول مرج دابق شمال حلب عام ٩٢٢ هـ ، حيث هزم الجيش المصري بسبب خيانة بعض القواد المماليك وقتل الغوري ، ودخلت بلاد الشام كلها في حكم الأتراك العثمانيين ، وتولى طومان باي حكم مصر ، واستعد لرد الغزو العثماني ، إلا أنه لم يستطع المقاومة ، ودخل جيش سليم الأول القاهرة وقبض على طومان باي ، وقتله في ١٩ ربيع الأول ٩٢٣ هـ — ١٥١٧ ، وبذلك أصبحت كل من مصر والشام ولاية عثمانية ، وتحت تأثير الإرهاب تنازل الخليفة العباسي في بصرى الثامن عشر ، وهو محمد المتوكل على الله عن الخلافة

إلى سليم ، وبذلك انتقلت خلافة المسلمين إلى تركيا ، وقتل الخليفة العباسي إلى الاستانة ، ثم أذن له بعد حين بالعودة إلى مصر ، ومات بها عام ٩٤٥ هـ .

٣ — ورث العثمانيون ملك مصر في الشرق العربي ، وأخذوا الحجاز واليمن وسواكن ومصر وحرر ، ووضعوا أيديهم على عدن ، ثم فتحوا الغرب العربي ، وبذلك ضموا إليهم العالم العربي كله ، وخضع العرب لسلطانهم ، وانزعوا منهم لواء الزعامة في العالم الإسلامي .

آثار الفتح :

١ — الآثار السياسية : خضع الشرق العربي وقلبه النابض مصر لحكم العثمانيين ، وانتقلت الخلافة الإسلامية من القاهرة إلى استانبول ، وانتقلت زعامة العالم الإسلامي إلى العثمانيين أيضاً .

٢ — الآثار الثقافية : إنهار صرح الثقافة الإسلامية ، باستيلاء الأتراك على مصر ، أثر ألاضطراب أحوال المجتمع وتفكك عرايه من جانب ، وللأدهاب التركي في البلاد العربية من جانب آخر ، ولأن الفتح العثماني قد قضى على شتى مظاهر النشاط العسكري والثقافي في مصر من جانب ثالث ، وفي الحق أن النهضة الثقافية قد أصابها الجمود والشلل والاعياء ، فأصاب المدارس ، والمعاهد وجامعة الأزهر الركود ، وتقلص ظل الازدهار العلمي ، وحرمت دراسة علوم الفلسفة والرياضة ، وجردت مصر الإسلامية من كنوز الثقافة وفخاثرها الفسفية من الآثار والكتب ، وحمل كل ذلك إلى

القطرطلية ، وألزم الفاعون العلماء ، والفكرين ورجال الفنون ، والصفاغ
المسهرين بالحياة في تركيا ، فجددوهم جميعاً ، وبنوا بهم إلى تركيا ، وهكذا
انهار صرح الحركة الفكرية في مصر الإسلامية ، ونضال شأن العلوم
والفنون ، وفقرت المهمة عن البحث العلمي والتأليف ، وانصرف العلماء
إلى الراحة ورضوا بالتقليد ، وآثروا العزلة فجعلوا الحياة ، وعرائق التفكير
والبحث قدير إلى الانهيار .

الحياة السياسية في مصر في العصر العثماني :

خضعت مصر للحكم العثماني نحو ثلاثة قرون ٩٢٣ - ١٢١٣ هـ (١٥١٧ - ١٧٩٨ م) ، كان يحكمها فيها وال تركي ترسله الأستانة ، وله السكامة العليا ، وبجانبه قائد تركي ، وجيش احتلال ضخم العدد ، وكانت البلاد مقسمة إلى أربعة وعشرين إقليما ، يحكم كل إقليم منها سنجق من البكوات المماليك .

ونشأ عن تضارب الولاى والقائد والجيش ازدياد نفوذ المماليك في مصر : فعاد السلطان القلى إليهم ، ولكنهم كما يقول المؤرخون كانوا قد اعتادوا حياة الجرائم والعدو والؤامرات والدسائس ؛ وانغمسوا في حياة الترف واللهو ، وثأوا عن الشعب ونأى الشعب عنهم وذهبت عنهم الروح الحربية التى كانت أغلب الخصال عليهم .

وكان من نتائج كثرة التغيير والتبديل في الولاة ، أن أخذ جيش الاحتلال كذلك يهتس بالنظام ، ويقتل الولاة ، ففي سنة ١٠١٣ هـ قتل الجيش إبراهيم باشا الولاى وعلقوا رأسه على باب زويلة وأخذوا ينهبون أموال الناس .

وازداد نفوذ البكوات من المماليك ، وخصوصاً زعيمهم شيخ البلد ؛ فصاروا أصحاب السلطان القلى ، وضعف نفوذ الولاة بجانب نفوذهم ، وأخذ شيخ البلد على بك الكبير يعمل على فصل مصر من الدولة ، وأعلن استقلاله عن تركيا عام ١١٨٤ هـ (١٧٧١ م) وطرد الولاى العثماني ؛ ثم حكم مصر بعده محمد بك أبو الذهب ، ولما جاءت الحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٣ هـ ١٧٩٨ م كان يحكمها إبراهيم بك ومراد بك ، وبدخول جيش فرنسا مصر انتهى العصر العثماني ، الذى يعد أسوأ عصر شهدته مصر في تاريخها الطويل .

الحياة الاجتماعية :

١ — عاشت مصر في ظلام دامس ، وظلم فادح ، وعين قاسية خلال حكم العثمانيين ، وانقسم الشعب إلى فلاحين في كل قرية يزرعون ويعملون ثم يحمل بهم الملتزم آخر العام فيأخذ ما زرعوأ وما حصدوا ، وتجار وصناع في المدن تنفذهم طوائف الخرف ، لكل حرفة طائفتها ، ولكل طائفة نظامها وتقاليدها ، ويتولى رؤساء الطائفة تنظيم العلاقة بين أفراد الحرفة ، ويقومون على رعاية تقاليدها ، ويمثلون أتباعهم في دوائر الحكومة ، ثم أتبع طائفة العلماء والمجاهدين وطبهم فقوذهم وأوقانهم ، ويتولى رئيسهم « شيخ الجامع الأزهر » الإشراف على نظام الدراسة ، وهو الرئيس الروحي الأكبر للمسلمين في مصر ، ومن وراء هؤلاء طائفة الأجناد ، الذين يتسكون منهم الجيش .

وفي ظل الحكم العثماني نجد أن سكان مصر جميعاً كانوا يمدون رعية تركيا منفلوبة على أمرها، أما السادة فهم طبقة الحكام من الأتراك والماليك الذين لا هم لهم إلا الثراء من أية سبيل .

٢ — وقد حرصت الدولة العثمانية على أن تعزل مصر عن شتى التيارات الفكرية والعلمية التي كانت تزخر بها الحياة في ذلك الوقت . وفي ظل الحكم العثماني أهملت وسائل الري ، فضعفت الزراعة ، وأجدبت الأرض ، وأهمل الحكام كذلك شئون الأمن ، وتدهورت الصناعة ، وانتشر الجهل ، وأغلقت المدارس ، وانتشرت الخرافات ، ولم يبق مشعل من نور يضيء للناس إلا الأزهر الشريف .

٣ - وقد ساءت الحياة الاقتصادية في مصر في ظل الحكم العثماني ، وفرضت الضرائب الباهظة على السكان فأرغقتهم إرغافاً شديداً ، وحل الجذب بالبلاد ، فصارت أخصب البقاع فلوات جرداء ، وشلت حركة التجارة والزراعة والصناعة ولم يكن لأحد في مصر ملك أو حق في الميراث ، والحكومة هي المالكة لكل شيء ، وكانوا لا يسمحون للفلاح إلا بما يتسلك به رفقته .

وضاعت الحريات الشخصية والحرمات ، وكان أفراد الشعب يطرحون أرضاً فيجدون أو يقتلون دون أية عناية .

الحياة الثقافية :

نفي العثمانيون العلماء المصريين إلى القسطنطينية (١) وانتزعوا الكتب من المساجد والمدارس والمجموعات الخاصة ليودعوها مكتبات العاصمة التركية . وما زالت منها إلى اليوم بقية كبيرة في مكتبات استانبول ، ومنها مؤلفات خطية لكثرة من أعلام القرن التاسع الهجري للمصريين مثل : المقريزي ، والسيوطي ، والسعاوي وابن إياس ، مما يندر وجوده في عصر صاحبة هذا التراث العثماني .

وهكذا انهار صرح الحركة الفكرية في مصر عقب الفتح التركي ، كما

(١) في كتاب ابن إياس ، مؤرخ الفتح العثماني فصل خاص يذكر فيه أسماء علماء مصر من الأكاوي والعلماء المصريين الذين تنافه السلطان سليم إلى قسطنطينية (بدائع الزهور ج ٣ ص ١١٩ وما بعدها) .

انهارت عناصر القوة والحياة في المجتمع المصري ، وتضائل شأن العلوم والآداب ، وانحط معيار الثقافة واختفى جيل العلماء الأعلام الذين حفلت بهمسم المصور السالفة ، ولم يبق من الحركة الفكرية الزاهرة التي أطلتها دولة السلاطين المصرية سوى آثار دراسة يبدو شعاعها الفئيل من وقت إلى آخر .

وقد أصاب الأزهر ما أصاب الحركة الفكرية كلها من الانحلال والتدهور واختفى من حلقاته كثير من العلوم التي كانت مزدهرة به من قبل ، حتى إن العلوم الرياضية لم تكن تدرس به في أواخر القرن الثاني عشر وقد لاحظ ذلك الوزير أحمد باشا والى مصر سنة ١١٦١ هـ (١٧٤٨ م) في نقاشه للشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الأزهر يومئذ وأنكره في حديث أورده الجبرتي (١) مما يدل على ما آلت إليه أحوال الدراسة بالأزهر خلال العصر التركي من الركود .

وكان من بين الأساتذة الذين كانت لهم حلقات في الجامع الأزهر في أوائل العصر العثماني : نور الدين علي البحيري الشافعي المتوفى عام ٩٤٤ هـ ، والعلامة شهاب الدين بن عبد الحق السنباطي المتوفى سنة ٩٥٠ هـ ، وعبد الرحمن المناوي المتوفى سنة ٩٥٠ هـ والإمام شمس الدين الصفدي المقدسي الشافعي المتوفى في حدود التسعين وتسعمائة (٢) .

(١) عجائب الآثار .

(٢) وراجع : الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ، وهو محفوظ بدار الكتب

وكان منهم في أواسط العصر العثماني: عبد الباقي الزرقاني المالكي القوفي
عام ١٠٩٩ هـ؛ وإبراهيم البرماوي القوفي عام ١١٠٦ هـ، والشيخ حسن بن علي
بن محمد الجبيري جد المورخ وقد توفي عام ١١١٠ هـ، والعلامة عبد الحلي الشرنبلالي
القوفي عام ١١١٧ هـ، ومن شيوخ الأزهر في هذا العصر: الإمام الطبرسي
١١٠١ هـ والنسفي م ١١٢٠ هـ، والشيخ الشبراوي م ١١٧١ هـ، والشيخ
الحفني م ١٨١١ هـ، والشيخ عبد الله الشرفاوي.

اشهر العلماء والأدباء :

١ — البديس، (١٠٧٣ هـ) هو يوسف البديس دمشقي . خرج من
دمشق في صباه، وحل في حلب وذاعت شهرته . ومن مؤلفاته ، هبة الأيام فيما
يتعلق بأبي تمام — والصحيح المثني (١) .

(٢) البقداوي (١٠٩٣ هـ) هو عبد القادر بن عمر البقداوي تزيل القاهرة
وكان فاضلاً بارعاً واسع الإطلاع على كلام العرب نطقاً ووثراً ، وكان يحفظ
مقامات الحريري وكثيراً من دواوين العرب ، وهو أحسن المتأخرين معرفة
باللغة والأشعار والطرائف البديعة . خرج من بغداد إلى دمشق وتردد على
القاهرة . وأخذ العلوم الشرعية والعقلية عن الشهاب الخفاجي وغيره . ومن
أشهر كتبه : خزنة الأدب ولب لباب العرب ، وهو شرح لشواهد شرح
الكافية يتضمن تراجم كثير من الشعراء والأدباء ، وهو من المراجع

(١) خلاصة الأثر ٤ : ١٠٠ .

الثامنة (١) وكان البغدادي غزير المادة ؛ محباً لاقتناء الكتب ، فكانت خزانة مكتبه تستعمل على كثير من الكتب النادرة .

٣ - ومن أشهر المؤلفين في هذا العصر : الزبيدي وهو محمد بن محمد الشهير بالمرتضى الحسيني الزبيدي ، ولد سنة ١٠٤٥ هـ ، ونشأ باليمن ، ورحل في طلب العلم فنزل مصر عام ١١٦٧ هـ . واشتهر أمره وذكره بين العلماء والأمراء . وألف رحلات لأصفاره ، ثم تجرد لشرح المحيط فأتته في سنين عديدة ، وسماه « تاج المروس » ولما أنشأ محمد بك أبو الذهب مكتبته في جامع ، أوعز إليه أن يقتني تاج المروس فاشتراه من مؤلفه بمائة ألف درهم ؛ وكان السيد مرتضى يعرف التركية والفارسية والكردية ، وقد عول في شرح القاموس على لسان العرب ، واستدرك على صاحب القاموس بعد كل مادة ما غفل عن ذكره من المفردات الآتية . ومن مؤلفاته « إتحاف السادة المتقين » وهو شرح لإحياء العلوم للغزالي ونوقى سنة ١٢٠٥ هـ .

٤ - الحبي (١٠٦١ - ١١١١ هـ) هو محمد أمين الحبي بن فضل الله ابن محب الله بن محمد محب الدين . ولد في دمشق ونشأ بها ثم سافر إلى الأسمانة وأدركه وانتقل إلى القضاء بها . ومن مؤلفاته : خلاصة الآثار في أعيان القرن الحادي عشر .

٥ - المقرئ المتوفى عام ١٠٤١ هـ ، وهو أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ التلساني ، تعلم بفاس ومراكش ، ثم نزل القاهرة ، وتزوج بها ، وحج

خمس مرات وأشهر مؤلفاته : نفع الطيب ، في غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، وهو في أربعة مجلدات : نفي الأول والثاني : وصف الأندلس ، وبين محاسنها ، وما امتاز به أهلها من توفد الذهب وحرص على العلوم ، ثم تناول فتح المسلمين لها ، وما تعاقب عليها من الدول ، وذكر من رحل منها إلى المشرق ، ومن تزح إليها منه . وفي الجزءين الثالث والرابع ، ترجم لسان الدين بن الخطيب ، وتوسع في ذلك ما شاء ، فذكر آباءه وشيوخه ، وروى شعره ونثره وفصل تصرفه وما ختمت به حياته . وهي ترجمة مطولة لم يمد في العربية ترجمة مثلها في الطول ، اللهم إلا ما كان من سيرة رسول الله ﷺ ، وهذا إسراف من القري : لأن الإعجاب بنبوغ ابن الخطيب لا يصل إلى هذا الحد من الإنراط والإسهاب .

٦ — ومن أعلام هذا العصر الجبerty ١١٦٧ - ١٢٣٧ ١٧٥٣ - ١٨٢٤م ، وهو مؤرخ مصر في العصر التركي وأوائل حكم محمد علي ، شهر بكتابه المشهور الذي يقع في أربعة مجلدات كبار .. وفكرة كتابة التاريخ أو عريبها إلى الجبerty أستاذة الشيخ مرتضى الزبيدي صاحب قاموس « تاج المروس » ولكن الشيخ مرتضى مات بالعناصون سنة ١٠٠٥ ولم يستفد من فكرته . وازدهمت الأحداث بعد ذلك فجمعت الحلة الفرنسية وأعقبها الإنجليز والأترك وعمت القوضى من جديد إلى أن تولى محمد علي مصر عام ١٢٢٠ ، وكان الجبerty قد تجاوز الخمسين من عمره فراح حيفنذ بفكره في كتابة تاريخه الذي راودته فكرته منذ خمس عشر سنة فجمع ما كان تناثر عنده من أشقات اللغات

الأوراق والسكراريس وشرع يدون أحداث الساعة التي سبقتها على ما هو معروف حتى وصلها بالأحداث التي عاش في مدتها ، ثم بقي يقتنع الأمور عشرين سنة لا يني تحريراً وتحيراً . وتنقيحاً وتنقيراً . وقد وصف هو نفسه طريقة كتابته حيث قال ، « إنني لم أعتز على شيء » من تراجم للقدمين من أهل هذا القرن ولم أجِد شيئاً مدوفاً في ذلك إلا ما حصلته من وفياتهم فقط ، وما وعيته في ذهني ، واستشعلته به بعض أسانيدهم ، وإجازات شيوخهم . على حسب الطاقة » ، وقال في مكان آخر : « ولم أخترع شيئاً من تلقاء نفسي ، وإنما مطلق على أمرى وخدمى » . وهو يؤكد دائماً أن روايته : « بحسب التيسير ، إذ التفصيل مقصود ، وجع الشوارد في القلام متعمر ، وذلك بحسب الإمكان ، وما وعاه الفكر والذهن خوان » .

وتاريخ الجبرتي هو تاريخ عربي مصري شرقي ، فهو يأتي مباشرة في الترتيب بعد للفرزي وابن إياس ، ولو لم يقبض الله الجبرتي لهذه الفترة من الزمن لما علمنا اليوم أفياءها إلا من مراسلات قناصل الدول وتجار الإفريقج وهم إنما يكتبون حسب أهوائهم ويذهبون الخفايا التي رجحتها لهم دولهم في تنقيح الحوادث والنظر إليها والحكم عليها . وحسب الجبرتي نفراً أنه أطلعنا على حقائق راحنة من وجهه نظرنا نحن ، أما عن غير الحوادث فقد سابر الحركة الإقتصادية والحياة الثقافية وعصور الماديات والرجال أحسن تصوير ، وأرض للقاهرة وشوارعها ومتنزهاتها وقصورها وجمال جولة واسعة واسعة في كل مرافق البلاد ، فهو إذن صورة صحيحة لعصره .

إن لكتاب الجبري « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » أثرًا كبيراً
في تاريخ مصر ، وقد أرخ فيه الجبري لمصر في القرن الثاني عشر ولست
وثلاثين سنة من سني القرن الثالث عشر ، مؤرخاً للأحداث يوماً بعد يوم
وسنة بعد أخرى . ويختتم الكلام على كل سنة بذكر من مات فيها من العلماء
والأدباء والأمراء ، وله كتاب آخر هو : « مظهر التقديس بذهاب دولة
الترقيس » .

بعض مجالات الأدب في العصر العثماني :

كانت أمور مصر في منتصف القرن الثاني عشر الهجري قد خلعت إلى يدين من الزعماء : أحدهم الأمير إبراهيم ، والآخر الأمير رضوان . وقد أصبحا صاحبي الأمر في البلاد لا يتنازعهما إلا المنافسون في دنائيل صدورهم ، وأما ظاهر الأمر فلم يكن لها فيه شريك . حتى إن الباشا العثماني الذي كان يمثل السلطان لم يكن له إلا جانبهما أمر ولا نهى . وكان لكل من هذين الأميرين اتجاه يقبضه إليه في ، ياسته ، فكان إبراهيم صاحب السلطان ، وقائد الجيوش ؛ ومدير السياسة ، على حين كان رضوان مؤلف القلوب ، وقبلة القصاد ؛ وكان الأميران على اختلاف اتجاهيهما متفقين متآلفين ، فقصيا في رياستهما صميم سدين وثيقاً . وكان بيت رضوان يتألق بالأنوار الساطعة ، ويخلع عليه الفن المصري . واء ، وتجمع في أبيهاته هاملات العصر من الأدباء والاداء . وقد كان بمصر حينئذ أدباء وعلماء كثيرون على الرغم مما كان من يهتم به هذا العصر بالقلبة ولا تحطاط .

وهناك على ضفة الخليج المصري كما يقول بعض المؤرخين اشترى رضوان داراً من أحد أكاير التجار ، كانت واقعة على الأربكية ، وموضعها اليوم ما على حديقة الأربكية وميدان الأوبرا ، وكانت تلك البركة إذ ذاك مغترها من منزها القاهرة ، تحيط بها بيوت أعيان التجار والأمرأ . وكان للأمير رضوان فوق ذلك في الناحية الشمالية الغربية من هذه البركة . منظره بدية تطل من الغرب على الخليج الناصري ، ومن الجنوب على بركة الأربكية، ومن الشمال

على بركة أخرى استحدثها الأمير بهوسيع مجرى لنا، في الخليج القاهري مما إلى
قنطرة الذكة . وقد نسق الأمير قصره أبدع تنسيق ، وجعل لها حدائق
فنيحة نقل إليها بديع الزهر والشجر ، وأقام في أركانها الجواسق الجميلة .
وجعل في جوانب الحدائق مما إلى البركة قناطر تجري المياه من تحتها ، وأخذ
فوق تلك القناطر مجالس للفرجة والاسترواح ، أما داخل القصر فكانت
القباب العالية المحلاة بذوب المسجد ، واللآلئ ، والزجاج الملون ؛ وقد
نقشت أعاليها وأسافلها بأروع النقوش وأدقها وكانت الأنوار تسطع في هذه
القباب في أثناء الليل . فكانت تحطف الأبصار من بهائها وروائها .

وفي هذه الأيها التي تأخذ بهجامع القلوب كان يجتمع أدياء العصر وأعيان
العلماء يتسامرون في حضرة الأمير ، ويتجاذبون أطراف الملح والنوادر في
حشمة ووقار لا يخرج عنهما أحد . وكان من هؤلاء أديب العصر الأعظم :
قاسم بن عطاء الله المصبي ، وصديقه مصطفى أسعد الدجاوي ، وإلى جانبيهما
جمع باهر من شيوخ وشبان ، بعضهم للجد والوقار كالشيخين : النبراوي
والحقي ، وبعضهم للفكاهة كالشيخ عامر الأنبرطي المشهور في المعاء .

اجتمع مجلس الأدياء يوماً في القصر ، وإذا الأمير يسأل عن أحدهم فلا
يجده قال : « أين ابن الصلاحى » ، ولم يكذ ينهى من سؤاله حتى رد في جانب
البو صرت جهورى ينشد :

شاق طرف النور طرف الربيع فتبلى بحسن تلك الربوع
ما ترى الزهر ضاحكا لبكاء ال ملل من در قعلة بالدموع

فالتفت المجلس كلهم نحو القادم فإذا هو الذي كان يسأل الأمير عنه
وصاح الشيخ عامر قائلاً : « لقد ذكرنا القبط . . . » فضحك الجميع ولم
يتمتع عن الضحك الأمير ، وجلس الأديبا . بعضهم إلى بعض في أنحاء البهو
الأعظم من قصر رضوان ، وجلس الأمير على سرير عال من آيات الفن المصمى
جوانبه من الخشب المخروط تكفنه وتغطاه رسوم من العناخ والأبنوس
والصدف ، وقد كسيت جوانب السرير بالحرير الملون البديع ، تتميز ألوانه
في ضوء المصابيح المتألقة كما تتميز الألوان إذا وقع الضوء على رقاب الحمام
القرمزي الداكن .

وانجبه الأمير إلى الأديب الأكبر ابن عملاء ، وأقبل عليه باسماء وقال له :
« ما ذا جئت به اليوم يا ابن عطا ؟ لقد رأيتك بالأمس تسير بين أشجار
البستان ، فقلت في نفسي لا بد أنك ستتحفنا اليوم بشيء جديد » .
فابتسم الأديب وقال : « الحق ما تقول أيها الأمير ، دامت نعمتك ،
وأقر الله بك ، وميندا ببقائك ، وعلو دولتك » .
فقال له الأمير : « إذن ضهات ، فأنتشد بقول :

بكت بدمع الحال عين الترجس فأضحكت نثر الأفاح الألس
واستمر في مزوجهته يصف البستان حينما وال . حينما . ثم تخلص إلى ذكر
الصعب على سنة الأقدمين من الشعراء ، ثم إلى مدح رضوان فقال :
دع علة التعليل بالأمانى واقصد حى الموصوف بالأمان
وأغف لباس البؤس والأحزان واسأل عن النعم من رضوان
سل ما تريد ، لا تخف من ود
إلى أن أكل مدحته بين اهتزاز الأمير وإعجاب السامعين .

الحياة الأدبية في العصر العثماني

كانت الحياة الأدبية في عصر المماليك - على الرغم من العوامل التي تعوق أطراد سيرها - أقوى منها في العصر العثماني ، وكانت الاداب العربية في ظل سلاطين المماليك أرسخ قديما ، ذلك لأسباب كثيرة :

١ - كانت القاهرة في العصر المملوكي هي عاصمة مصر وقلب العالم الاسلامي ، والصيغة العربية للناهرة واضحة ظاهرة . أما العصر العثماني فقد كانت عاصمة العالمين العربي والاسلامي هي استامبول التي لايلس أحد لها صيغة عربية .

٢ - كانت اللغة العربية في عصر المماليك هي اللغة الرسمية للدولة بها يتكلمون ويتخاطبون ، وبها تكتب الأوامر والمنشورات السلطانية . أما في العصر العثماني فقد كانت اللغة التركية هي اللغة الرسمية .

٣ - كان المماليك يشجعون الأدب والثقافة ، تشجيعا ظاهرا ، إن قليلا أو كثيرا ، فكأنوا يأخذون بناصر العلماء والأدباء ، أما الأتراك فكان اهتمامهم بكل ذلك أقل ، وعنايتهم أضعف .

٤ - ظهرت آثار العصر المملوكي في الأدب في العصر العثماني ، وهي آثار ونتائج ليست في صالح الأدب ، أما في عصر المماليك فقد كانت آثار المصور السابقة تظهر بوضوح في الاداب ، وهي عصور قوة للآب ، وازدهار لفنونه .

٥ - كانت بيئة الأدب العربي في عصر المماليك هي مصر ، والشام ، ومايليهما . من مواطن للآب في العالم العربي ، وقد ظهر بعض الشعراء والأدباء

في بلاد فارس وماوراءها ، ومع استعمار الحركة الأدبية في الأندلس . .
أما في العصر العثماني فقد تمكن الضعف من النفوس وقصدت ملكة الآسان
وجددت القرائح ، فلم ينبغ شاعر مشهور خارج البلاد العربية ؛ لأن بيئة الأدب
قد انكسحت انكاشاً مدوساً . فانتحست في مصر والشام وحدهما .

وبتأثير ذلك كله فثرت الحركة الأدبية في العصر العثماني ، ووهت قوتها
فكان هذا العصر أضمت العصور الأدبية في العالم العربي . . الحركة الثقافية
هرمت والذرة الفن تحاذل حق أو شك أن يكون أسلوبه عالياً ، والشعر
كذلك أصابه ما أصاب الذرة من وهن وانهدار ، وأصبح الأدب لا يجد رعاية
ولا عناية ، والأدباء لا يلقون تشجيعاً أو تسكريماً ، وهكذا كسدت بضاعة
الأدب ؛ وامتنحت الأدباء امتحاناً شديداً ، وقد وصف ذلك صاحب « العقد
المنظوم في أمناضل الروم » المتوفى عام ٩٢٢ هـ فقال : « قد انتهت إلى زمان يرون -
أى يرى أهلة الأدب عيباً ، ويعدون الفضل من الفنون ذنباً ، وإلى الله الشكوى
من هذا الزمان » .

وقد اضطرت الظروف كثيراً من الأدباء إلى الإقامة في المملكة العثمانية ،
أو الرحلة إليها ، وبقي جيد مصر والشام عاجلاً من الأدباء الأعلام ، والشعراء
للرهويين ، والكتّاب المشهورين ، على أن حال المملكة العثمانية لم يكن أحسن
من حالها في مصر والشام في الثقافة والأدب في هذه الفترة ، فقد كان الجاهل فيها
فاشياً ، حتى إن القاضي المصري الشهاب الخفاجي يقول : « ولما عدت إلى
القسطنطينية رأيت تفاهم الأمر ، وغلبة الجاهل ، فذكرت ذلك للوزير ، فكان
ذلك سبب عزلي وأمرى بالخروج من تلك المدينة (١) » .

(١) ١٧٢ الرحلة للشهاب الخفاجي .

وكان الأدب التركي في هذا العصر يمر بفترة امتدت قرناً من الزمان ،
حقق فيها سوق الأدب الفارسي ، واصرف الأدياء الترك عن التركيات
إلى الفارسيات فأنعموا لغتهم التركية بكثير من الألفاظ الفارسية ، وأصبحت
التركية لا يفهمها إلا الخواص من الناس يسكتون ويقلون لأنفسهم دون
سواهم ، وهكذا طغى ركود نسبة على الإلحاح التركي ، فكان صدق الملاحظة
يعوز الشعراء (١) .

(١) راجع ١٧٠ وما بعدها تاريخ الأدب التركي تأليف حسين نجيب المصري
١٩٥١ .

شأن اللغة العربية في العصر العثماني

تدهور اللغة وضمها في هذا العصر :

كان الفتح العثماني للعالم العربي نكبة قاسية منى بها العرب ، وتأثرت بها
أى تأثر لغة العرب . فلقد يادر الأتراك فأقصوا اللغة العربية عن مكانها ،
وأخروها عن منزلتها ، وجعلوا اللغة التركية هى اللغة الرسمية لدولتهم فى كل
أعزاء البلاد العربية بعد أن كانت اللغة الرسمية فى عصر المماليك هى اللغة
العربية ، التى كانت تكتب بها مراسلاتهم ، وتسجل بها عيودهم ، وبدون بها
كل ما يتعلق به فى العمل دواوينهم .

وقد كان لإقصاء اللغة العربية عن أعمال الحكومة أثر فى فتور العزائم ،
وضعف المهتم ، وقلة الرغبة عند المتأدين فى تحصيل علومها ، والاطلاع على
كثورتها ، وفى انعدام الحرص على تحصيل ملكتها ؛ ولم يقل المأمانيون على
على تلم اللغة العربية اكتفاء منهم بلغتهم ، فأصاب العربية فى هذا العصر
ما أصابها من شيوخ الامم والمساكنة والقهارة ، ومن غزو العامية لها غزوا
مؤثراً . بل إن اللهجة التركية أثرت فى ألسنة أهل مصر تأثيراً كبيراً ،
وكذا فى ألسنة الشعوب العربية ، وذاع كثير من الألفاظ التركية على الأتراء ،
وتداولت فى الكلام وظهرت فى الأساليب ، وخاصة ما كان من هذه الألفاظ
يمثل متاعب أو رتبا أو ألقاباً حكومية ، مثل : سعادتو ، ونخامتو ،
وفضيلتو . ومثل : جاویش ، وصول ، ويوزباشي ، وكذلك ما كان من

هذه الألفاظ يعبر عن أمكنة مثل : أجزاخانة وسلخانة ، وكشبخانة ، أو عن حرف وصناعات ، مثل قهوجى وجزشى ومطبخى ومكوجى ، وغير ذلك ، مما منيت منه اللغة العربية بالى الأكبر ، ولا زلنا نحاول التخلص منه حتى اليوم .

وقد تميع انتشار الى والاسكنة على الأسنة أن حرف الناس فى هذا العصر بعض الألفاظ العربية تحريكاً ظاهراً ، فنعطوا كلمة « جوش » فقالوا فيها « جوشن » وكلمة « خوسن » حرفوها إلى « هويس » .

وهكذا عزلت اللغة العربية عن الحياة ، وإن بقيت لغة الدين والعلم والأدب .

اللغة العربية والتعليم :

فى العصر العثمانى أغلقت المدارس والمعاهد ، وأصاب الحياة العلمية فى مصر والشام نكسة خطيرة ، فقد انهارت الحياة الاقتصادية واضطرب الأمن واستشرى الفساد ، فى ظل الحكم العثمانى ، ونهب بعض الولاة الأوقاف المحبوسة على العلم والعلماء ، فعجز الطلاب عن الاقتطاع للعلم ، ولم يجد المدرسون من التشجيع ما يحملهم على التفريغ والإفادة ، ومن ثم تفرق الطلاب ، وانصرفوا عن أبواب العلم وخسدت جذوة الحركة الثقافية ، ولم يبق فى مصر إلا مقبرة واحدة ، تضى « عقول الناس وقلوبهم » ، وهى الأزهر الشريف ، ومع ذلك ، فقد تناقص عدد طلابه وضعفت إنتاجه العلمية ، ولكنه بقى مع ذلك مقبرة هادئة يحمل رسالته الروحية والثقافية . ويؤديها فى قوة وعزم وتصميم .

وقد كان الاتجاه متصرفاً إلى العلوم الدينية والعربية فحسب ، وكانت لغة التعليم هي العربية التي خالطها الدخيل ، وأنسدها الي ، ولكنها العامية ، ومع ذلك فقد كانت الأساليب العربية تجري على الشفاه ، وتنطق بها الألسنة ، وكانت لغة الكتب اللؤلؤة ضعيفة سقيمة ، يكثر فيها الخطأ ، ولا تسليين منها قصد المؤلف أو معناه ، وكثيراً ما تكون لغة التأليف هي العامية .
لذلك كله نجد أن اللغة لم تزدهر في حلقات التعليم ، كما أنها لم تزدهر في الحياة العامة كما عرفنا من قبل .

اللغة العربية والتأليف :

ضعفت في هذا العصر اللواحب ، ووهت الملكات العلمية ، ووهنت قوة العلماء ومثابرتهم ، ولم يجدوا نصيراً أو مشجعاً ، وأثر ذلك على حركة التأليف والتدوين تأثيراً ينفك :

فأصبحت لا تكاد نجد أحداً يسد الفراغ ، الذي أوجده الفتح العثماني ، من العلماء المشهورين ، أو المؤلفين للمقارن ، وقل فتاج العلماء ، وأصبح عملهم نافها ضئيلاً ، قاصراً في أغلب الأمر على اختصار المطولات ، أو شرح المختصرات .

وقد ذاع في هذا العصر التقليد ، وأقبل باب الاجتهاد ، وكثرت الأساطير والخرافات والشعوذات ، والطلاسم والسحر ، والنوادر ، ومنها نوادر الحشاشين . وكثير التأليف في هذه اللوضوعات ، كما كثرت كتب التمام « والأاجبة » ، والكتب المأجبة الخليفة .

ومع ذلك فقد غلغل العلماء ، وخاصة علماء الأزهر الشريف ، يتابعون السير في ميدان التأليف ، والنشاط العلمي ، ولكن على وعين وضعف ، وكانت تآليفهم على الأكثر تدور حول العلوم الإسلامية والعربية أو الكتابة في التاريخ .

وقد غلب على مؤلفات هذا العصر ما يلي :

أولاً : قلة الابتكار والتجديد ، والاكتفاء بالشرح أو التلخيص للكتب المشهورة ، والمقنونات والشروح المروية .

ثانياً : قلة التحري ، والندم الدقة ، وكثرة المبالغات ، وكثرة للمبالغات ، وتحريف الروايات ، والخطأ العروضي في رواية الشعر والجهل في أكثر الأمر بقاتليه .

ثالثاً : مخالفة أساليب التريسة السليمة في التأليف للطلاب والمتأدبين والناشئين .

رابعاً : ضعف أسلوب التأليف ، وهبوطه إلى مستوى العامية ، وأكثر ما يكون في المؤلفات في التاريخ ، من مثل تاريخ ابن إياس ، وتاريخ الجبرتي .

خامساً : مؤلفات هذا العصر أكثرها مختارات مختلفة من كل فن وموضوع وترى ذلك مثلاً في كتابي الكشكول والمجلة للعالمى م ١٠٠٣ هـ .

سادساً : أكثر مؤلفات هذا العصر ، إماميون أو شروح أو حواشي أو أو تقارير على الحواشي وقد سمي بعض الباحثين هذا العصر « عصر الشروح والحواشي » كما سمي عصر المأليك « عصر الجامع والموسوعات » .

أشهر العلماء والمؤلفين :

نبغ في هذا العصر علماء ومؤلفون ، كانت لهم شهرة علمية وأدبية في عصرهم ، وسوف نذكر طائفة من هؤلاء العلماء على سبيل المثال والإيجاز .

١ - نبغ في علوم اللغة : الشهاب الخفاجي م ١٠٦٩ هـ صاحب شفا العاقل بما في كلام العرب من الذخيل ، وشرح درة القواص في أوهام الطواص للحريري ، و « طراز المجالس » وسواها . . وكذلك نبغ في هذا العصر عبيد القادر البغدادي م ١٠٩٣ هـ صاحب كتاب « خسرانة الأدب ولب لباب لسان العرب » . والسيد عمر بن الزبيدي (١١٤٥-١٢٠٥ هـ) مؤلف تاج العروس ، ومحمد المصباح صاحب الحاشية على شرح الأئتموني على الألفية ، وسوام .

٢ - وآلف في الأدب كثير من العلماء والأدباء ، منهم : الشهاب الخفاجي مؤلف « ربحانة الألبا ونزهة الحياة الدنيا » وخبيايا الزوايا بما في الرجال من البقايا . . . ويوسف البديهي الدمشقي م ١٠٧٣ هـ مؤلف كتب في « حياة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام » ، و « الصيغ اللغوية عن حذيفة المتنبي » . ودرويش الطالوي الدمشقي م ١٠٦٤ هـ مؤلف كتاب « سائحات دمي القصر في معطارات بني العصر » . والشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الأزهر م ١١٧٢ هـ صاحب كتاب « عروس الآداب » ، وعنوان البيان ، وحسين الأنطاكي م ١١٣٠ هـ مؤلف كتاب « دوح الأدب » ، وعمر الحلبي الشجاع م نحو ٩٤٠ هـ مؤلف كتاب « سفينة نوح » ، وابن معصوم م ١١٠٤ هـ مؤلف « -سلالة المعصر في

محاسن أعيان العصر » والمقرى م ١٠٤١ هـ مؤلف « فتح الطيب من غصن
الأندلس الرطيب » .

٣ — وفي التاريخ ظهر : المحيى الشامى م ١١١١ هـ مؤلف كتاب
« خلاصة الآثار في أعيان القرن الحادى عشر » ، والمرادى الدمشقى م ١٢٠٦ هـ
مؤلف كتاب سلك الدرر في أعيان القرن الثانى عشر ، والديار بكرى م ٩٨٥ هـ
مؤلف كتاب « الخديس في أحوال أنقس نفيس » وطاش كبرى زاده
م ٩٦٨ هـ مؤلف كتاب « الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية » ،
وحاجى خليفة م ١٠١٨ هـ مؤلف كتاب « كشف الظنون في أساسى الكتب
والفنون » ، وعبد الغنى النابلسى م ١١٤٣ هـ وله ذيل نفحة الريحانة ، والحقيقة
والجواز في رحلة الشام ومصر والحجاز ، والصحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية .
٤ — ومن المؤلفين في فن الموسوعات والجاميع ، بهاء الدين الساملى
م ١٠٠٣ هـ مؤلف ، الكشكول والمحلة .

٥ — ومن المؤلفين في علوم الدين : عبد الرؤوف النساوى م ١٠٣١ هـ ،
ونور الدين الأجهورى م ١٠٦٦ هـ من إشبوخ الأزهر المالكية ، وعبد الوهاب
الشرافى م ٩٧٣ هـ وله كتب كثيرة في التصوف منها : البراقيت ، والجواهر ،
والعليقات الكبرى ؛ وسواها ، وشمس الدين الشريفى الخطايب م ٩٧٧ هـ وله
تفسير كبير وكتب في الفقه الشافعى .

٦ — ومن المؤلفين في العلوم العقلية والطلب وغيرها : داود الأنطاكى
م ١٠٠٨ هـ صاحب كتاب (التذكرة في الطلب) و تزين الأسواق بتفصيل
أشراق المشاق ، والمروى بوله كشف في الفناء ، والأخضرى بوله كتاب السلم في المنطق .

الكتابة الفنية في العصر العثماني

كانت الكتابة الفنية في عصر المماليك موشاة بحلى اللفظ ومحسنات البديع، مثقلة بعبود الأداء اللفظي، مع ازدهار اللغة، وتشجيع المماليك، وقيام ديوان الإنشاء.

فما جاء العصر العثماني، لم يكن للأدب من يشجعه، ولا لغة العربية من يعطف عليها، وأغلق ديوان الإنشاء، وسادت التركية والعامية، وزهدت العربية وعظمتها، وأثر كل ذلك في الكتابة الفنية فأورثها ضعفاً ووهناً، وزادت قبحها الفنية التي اكتسبتها سقماً وتخاذلاً، وأصبحت مجرد ألفاظ لا تكاد تفهم منها معنى ولا تسقين منها فكرة، ولا تهتدى بها إلى غاية، وجنى إهمال الملوك والجهل بأصول الكتابة على أسلوبها الذي صار مزيجاً من العامية والعربية، واستعمل الكتاب الألفاظ التركية نظراً وتأثراً بلغة الإنجليز، وأصبح التقليد هو البلاغة وعجز الكتاب عن أن يفتشوا أدباً قديماً من أحماق النفس، مصوراً لمشاعر الكاتب ووجدانه وعواطفه وأخذ بعض الكتاب يفتشون نماذج قيمة غريبة من الرسائل، ليكتفوا من ريد هذا الموضوع أو ذاك، ومن أمثلة ذلك كان بديع الإنشاء والصفات في الكتابات والمراسلات للشيخ مرعي ١٠٣٠ هـ، ثم كتاب إنشاء العطار لشيخ الإسلام الشيخ حسن العطار ١٢٥٠ هـ، وهما يجعلان ألواناً من الرسائل في الشوق والشكوى والتهنئة والتمزية والعتاب والوصف والندح وسواها من الموضوعات وقد ذاعت هذه الكتب وتداولها الناس، وصارت كذلك مصدر خيال على الكتابة الفنية الهلينة.

وقد تميز أسلوب الكتابة في الركائز ، والحرص على البساطة وعلى البديع
والجاء إلى التقليل من التكلفة من تورية واستخدام جفاس وإقتباس . وأفقرت
الكتابة من المعاني الطليقة ، والفكرة السرية ، والخيال البديع .

وقد أصبحت موضوعات الكتابة محدودة ، فكتابة الرسائل الديوانية
أصبحت بالتركية .

واقترنت الكتابة على الرسائل الإخوانية ، وعلى الرسائل الأدبية ، وعلى
التأليف في الموضوعات النسانية والمالية وما إليها ؛ وقد ظل الكتاب
يكتفون المقامات ، ومن بينهم الشهاب الخفاجي ، ويوسف الحفني المصري
م ١٧٧٨ هـ ، وله مقامات الحماكة بين المسدوم والزهور ، وابن سلامة المصري
م ١١٨٤ هـ ، وله مقامات اسمها المقامة الإسكندرية ، ولأحمد بن إبراهيم الرمعي
م ١١٩٧ هـ المقامة الزلازية ، ولأحمد بن قانصو خمس مقامات في الأدب والشعر
والحديث . ولكن أسلوب المقامات في هذا العصر هو أسلوب الكتابة
الذي قدمنا إليك وصفه ، وعرفت أنك بما أثر فيه وما جد عليه من خصائص
ومميزات .

* * *

ويمكننا أن تلخص أسباب ضعف الكتابة فيما يلي :

١ — عدم تشجيع الولاة من الأتراك للكتاب والأدباء لجلهم بالأدب
وبالعربية .

- ٢ — أنصرفت الكتاب من الكتابة .
 - ٣ — ضعف الثقافة وركود الفرائض والأذهان .
 - ٤ — اهتمام الكتاب بالمحذات البديعية الانفعالية اهتماماً فاقى كل اهتمام .
 - ٥ — جعل التركيبة لغة رسمية .
 - ٦ — إغلاق ديوان الإنشاء .
- وأشهر الكتاب في هذا العصر هم : الشهاب الخفاجي ، وأبو الدياس القرى ، وعبد الوهاب الحلبي ، وسواهم .

* * *

وهذه صور للكتابة الفنية في هذا العصر :

- ١ — قال الشهاب الخفاجي في ترجمة الرئيس داود الحكيم (١) :
ضرب بالفضل بصير ، كأنما ينظر ما خلف سقارة الغيب بين فـسـكو
خير ، لم تر العين بل لم تسع الآذان ولم تحدث العقول بأعجب من مساو
الركبان . إذا جس نبضاً تشخيص مرض عرض أظهر من أعراض الجواهر
كل عرض ، فيفتن الأصماع والأبصار ، ويغرب بحس النبض . لا يطويه حسن
الأوتار .

(١) هو داود بن عمر الحكيم صاحب كتاب تذكرة أولى الألباب في الطب وتوفي عام ١٠٠٨ هـ .

يكاد من رقة أفكاره يحول بين الدم والنجم
لو غضبت روح على جسمها ألف بين الروح والجسم

فصيحان من أطنان نور بصره وجعل صدره مشكاة نور ، فإنها لا تسمى
الأبصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور ، وله في كل علم سهم صيب
على تهذيب التهذيب ، وكنت قرأت عليه الطب وغيره في سنن الصغر ،
فسمعت منه ما يفار له نسيم السحر ، ويضارب من لطفه نيمات التوتر ، يشرقه
تأثر العلوم ، على عرائس النشور والمفهوم (١) .

٢ — وما كتبه عبد الوهاب الحلبي إلى الشهاب الطنطا :

« لقد طفت أئمة العلماء بشرآء ، وارتاحت أسرار الكائين مرآ
وجهرآ ، وأنعت من المدة صدور الصدور ، وطارت الفضائل بأجنحة
السرور ، يبعث قدوم من أخضرت رياض التحقيق بإقدامه ، وغرقت بحلر
التدقيق من سحائب أقلامه » .

وهذا كلام لا يحتاج إلى تعليق ، ففيه أن البحار تفرق ، وفيه أن
الفضائل تطير ، وفيه أن للتحقيق رياضاً ، إلى غير ذلك من النور والسيف
والبالغة وكبد الذهن وتكافؤ البلاغة .

(١) ربحانة الألباء ص ٢٧١ .

(٢) — ١٥ — الحياة الأدبية في مصر

الشعر في ظلال العثمانيين

صور من الشعر في هذا العصر :

- ١ — للشهاب الخفاجي : يتفزل ويتطرق إلى مدح محمد بن القاسم الحلبي :
- حجام يغزوني صدوده والصبر قد كثرت جفوده (١)
- لم أدر فآثر جفده والخصر ألتقم أم عهوده ؟ (٢)
- نشوان يعيث بي كما عيثت بأمالى وعوده (٣)
- لولا مياه الحسن جا لت فيه لا حترقت خدوده
- كالصب لولا دمه يهي لأجرة وقوده (٤)
- يخني الهوى وعيونه بقرانه المضي شهوده
- فسقى رياض الحسن من دمي حيا يهي مديده (٥)
- زمن يحيد اللهو قد تقلبت على نسق عقوده (٦)
- إذ دوح أنسى يانع بكتوسها انقيحت وروده (٧)

- (١) حتام أصلها (حتى ما) فحذفت ألف ما الاستفهامية لجرها بحق يغزوني : يسير إلى قتالي وإنهائي . والصدود : الإعراض .
- (٢) جفن فآثر : غير حاد النظر ، والخصر : وسط الإنسان . والهمود : المرواعيد
- (٣) النشوان ، السكران (٤) الصب ، المشتاق الذي يكابد
- حرارة الشوق . يهي ، يسيل . وقوده : اقتاده واشتماله .
- (٥) الحيا ، المطر . المديد : الممدود المتصل . (٦) نسق : نظام واحد .
- (٧) النوح : الأشجار النظيمة . والورود : جمع ورد .

والسكاس نجم لاح في فلك السرة لي سوره
يصور فيحلى ذكر من قد زين الدنيا وجوده
ذاك ابن قاسم الذي ما زال في تعب حسوده

٢ — وقال محمد بن القاسم الحلبي يحيب الشباب الخفافى على قصيدته
الدالية السابقة:

لأنهى الفتنة وجيده والورد ما بدأت خلوده
والد يزهر بالذى في ثمره منه فضيده (١)
ويوجه شرك العقور لى فأى عقل لا يصيده؟ (٢)
في كل يوم للهوى من حسنه معنى يزیده
يسرقف الأبصار حتى لا يسوغ لها وروده
ملك تمسك في الجا ل فقال منه ما يريد
ما زال يسطو في الزرى من قبل مثله جفوده
حتى ظفنا أنه بالأجر آثره شهيد
يهدى الصدود وكلها صانته عنه بهينه (٣)
أتراه يجمع ما تقيت به وهل ينهى جفوده
وعو النهار إذا بدا من نفسه قامت شهوره

(١) النصيد: الخسق المرصع (٢) للشرك: المصيدة.

(٣) صانته عنه، أى حاولت أن أردّه عليه، وأغريه بالوصل.

كضياء مولانا شهاب ب الفضل إذ طلعت صغوده
 ما زال يسو في سما ، الجهد زينها وجوده ؟
 حتى تقطعت المطا مع عنه واستغنى حسوده
 وفاد فكر ، أي خطاب ليس يفتنه وقوده (١)
 كرمت له هم إلى غير العلا ليست تقوده
 يتنو على جيد الزما ن بما ينمته فريده (٢)
 من كل سجع من مرزا يا الحسن قد نظمت عقوده
 وإذا ذكرت الشعر فهو كما سمعت به أيله (٣)
 قد كنت أجهد في اجتناء ، لقاء أيام تفيده
 حتى وقت لي بالذي قد كان في أمل وعوده
 فلقينه البحر انظم يفيض للعافين جوده
 مقدماً الفضل تخشى أن يفرقها وفوده
 مولاي ، عذراً لإنها من خاطر قد جف عوده
 بعدت بقول الشعر في عهد الصبا حينما عهدوه
 ما ضره عيد فأى ما دام من لقيالك عيده

٣ — وقال أحمد بن علي الملقب في الملح :

(١) وقوده افتقاده (٢) الفريد ، صفار اللؤلؤ تفصل بين العمد
 المنظوم من اللزاق والذهب ؛ ويريد الشاعر أن ما يكتبه الممدوح من شعر ونحو
 يكون كالعمد المفصل في جيد الزمن (٣) ليبيد ؛ شاعر جاهل وأحد
 أصحاب المملكات .

بأبصارنا وجهك المذهب يكاد متى بركة يذهب
وأشواقنا فيك لا تنقضى وشمس جالك لا تغرب
وحبك في الماء مستودع وأثره كل من يشرب
وفي كل عين وقاب به مشور لك المنزل الأرحب
ذاتك جنة أهل النوى ونفك عنصرنا أجليب
فن غير نطفك لا نشقى ومن غير ذاتك لا نعارب
وكم لك من رتب في الملا تعالى الملا إذا لها ينسب (١)

٤ — ولابن النحاس الحلي م ١٠٥٢ هـ :

ظلمت فؤادك أي حر لم يزع نلطب إقلبه
ودفع اللام فداء من طابت في التسليم طبه
لا تسكرون هلا فعلت عليه قالفعال ربه
المراء يصعب جهده وتلين بالقصور صعبه
لا تغمي قالوا خذ في الزمان النذل أنديه
وأنيك من رمن السخرة رع لم يزل دأبي وأدأبه
ومن العجيب لدى اللثا م عطاؤه ولدى سلبه
أنا لا أبالي إن رميت وسب عرضي من أسيه
السيف يرمى بالقول ل إذا قسا في اللد ضربه

(١) أي الملا يشرف ويسمو إذا حصلت على رتبة عالية .

والعين يدمها الذبا ب ويميز الآساد ديه
والعبر يملوه الترا ب ولا يضر القبر تربة
وأبيك ما فكب اللبيب وفكره باق ولبه

٥ — لعبد الله بن شرف الدين الشبراوى — وكان من شيوخ
الأزهر وله ديوان شعر أغلبه في مدح النبي وآله ؛ وشعره سهل ، وله غزل دقيق
يعنى به يدل على ذوق سليم وخفة روح ، وتوفى عام ١١٧٢ هـ : يتسول من
مدائحه في أهل البيت :

قال لى قاتل رأيك تهوى آل طه . ودائما ترتجيمهم
كان حقا عليك تستغرق المعر مديحا فيهم وفيمن يلدتهم؟
قلت ماذا أقول والسكون طرا يستمد السكال من أيديهم ؟
أى معنى للدمع منى وقد جا الكتاب العزيز بالدمع فيهم؟
أنا لا أستطيع أمدح قوما كان جبريل خالما لأبيهم
ويقول فيهم أيضا :

آل طه ومن يقل آل طه مستجيرأ بجاهكم لا يرد
حكيم مذهبي وعقد يقينى ليس لى مذهب سواء وعقد

(١) راجع ترجمة الشبراوى فى الأزهر فى ألف عام، الجزء الأول للذئلف،
ص ٢٤٦ اريحانة للشهاب الحفصاى ٧٣ ، ٨٧٠ و ٢٠٩ : ١ تاريخ الجبرق ط
١٢٩٥ :

مك أستمع بل كل من في الـ
يتكم مهبط الرسالة والود
ولكم في الملا مقام رفيع
يا بن الرسول من ذا يضاهي
يا حسينا هل مثل أمك أم
كون من فيض فضلكم يستمد
من ومنكم نور النيرة يهدو
ما لكم نية آل ياسين ند
لك ابتشاراً وأنت للفخر عقد
لشريف أو مثل كذاك جد (١)

وله أيضاً :

بحقك أفك المني والطلب
ولي فيك يا ها جرى صبوة
أبيت أسامر نجسم السما
وأعرض عن طائي في هوا
مولاي الله رقتاً بين
فاني حبيبك من ذي الجفا
ويا ها جرى بعد ذلك الرضا
فاني محب كما قد عهدت
معي يا جميل الحيا أرى
أشاع المذول بأبي سلوت
ومثلك ما ينبغي أن يصد
أشاهد فيك الجمال البديع
ويجيبني منك حسن التوام
وأنت المراد وأنت الأرب
تخير في صنفا كل صب
إذ لاح لي في التقي أو غرب
ك إذا تم يا منيقي أو عتب
إليك بذل الغرام اقتصب
ويا سيدي أنت أهل المسب
بحقك قل لي : لهذا سبب؟
ولكن حبك شيء عجب
رذاك ويذهب هذا النضب
وحقك يا سيدي قد كذب
ويهجرجبها له قد أحب
فيأخذني عند ذاك الطرب
ولين الكلام وفرط الأدب

وحسبك أنك أنت للريح الكريم الجود المريق النسب
أما والذي زان منك الجبين وأوجع في العظم يفت العنب
لئن جدت أو جرت أنت للزاد ومالي سواك مليح يحب

٦ — ولابن منجك — وفيه يقول الشهاب الخفاجي في ربحانة الأبناء :

« الأمير محمد بن منجك الجركسي أصلاً وعقيداً ، الشامي ، نشأ ومولداً ، أديب
أروب ، ونجيب وابن نجيب ، أورد عوده بالشام وأتمر ، فإذا عدت السجابا
عرضاً فسجابه جوهراً ، نشأ بها والدهر أبيض أقر ، وناهم العيش ، والعيش
أخضر ، لبس طبعه برد نسيمها التضفاض ، كما لبس الأهر الجاري ، درع
النسيم الساري :

وقد نمت كفافهم مضاضة عليه وما غدر الحباب لها خلق
وقد صحنى بخلق ونسيمه مسجع ، وخيوط شبيبته بيد الكهولة لم تنسج ،
ولازمني إذ رأى انعطاف عليه ، وشبه الشئ ، متجذب إليه » .

وقد اختار له الخفاجي طائفة كبيرة من الشعر ، منها :

| | |
|-------------------------------|---------------------------|
| قصر الأمير يورادى الفيرين سقى | رباك عني من الوسمي مذار |
| كم مولى فيك أباكم هو أجراها | أصائل ولياليهن أستعد |
| حيث الشيبة بكر في غضايتها | وللعصابة أحلاف وأنصار |
| حيث الرياض تقيني حاتمها | بالدف ولجلك والنورلى جبار |

وقد توفي الشاعر عام ١٠٨٠ هـ

أشهر شعراء هذا العصر :

نبغ في هذا العصر شعراء ، من أشهرهم :

١ — من شعراء مصر والشام : الشهاب خلفاين م ١٠٦٩ هـ ، الشيخ عبد الله الشبراوي م ١١٧٢ هـ ، محمد بن أحمد الانكشاري م ١١٧٧ هـ وقد نظم الأحداث التاريخية في عصره ، على نمط ما كان يفعل الفرس والترك إبان ذلك العهد ، شمس الدين محمد الصالحى الحلالي م ١٠١٢ هـ وهو من شعراء الشام ، شهاب الدين النابلسي م ١٠١٤ هـ وهو من شعراء الشام أيضا ، ابن عبد الجواد الشربيني م ١٠٩٨ هـ وهو مؤلف كتاب « زلزال القحوف في الشكوى والمحن » ، شرح فيه « حجة أبو شادوف الجونية » والشيخ عبد الله الشبراوي م ١١٧٢ هـ ، وأبو المراتب البكري ، ومحمد الفارضى وله مقصورة عارض بها مقصورة ابن دريد .

٢ — ومن شعراء العراق : ابن معنوق م ١٠٨٧ هـ وعثمان العمري م ١١٨٤ هـ
٣ — ومن شعراء الحجاز وتجد : فتح الله النحاس الحلبي ، ومن شعراء اليمن : العنوي م ١١١٠ هـ :

وصف الشعر في هذا العصر

١ - لم يكن حظ الشعر في هذا العصر بأكثر من حظ النثر ، فقد ضعفت العناية به ، وقلت الرغبة فيه ولم يجد الشعراء راعياً لهم ، يصلحهم بطلانه ، ويصلونه بمدائحهم ، لذلك انتهى التكسب بالشعر ، وعاش الشعراء في فقر وشقاء ومحنة واشتغل أكثرهم بالتأليف .

٢ - وفي هذا العصر ظهر لشعراء الشام فضل على شعراء مصر ، بينما كان السبق في ميادين الشعر في الصور الساتقة لشعراء مصر إذ كانوا أكثر تفوقاً وأعظم تجويداً وإجادة ، بل كانوا قادتهم في المعاني وسادتهم في سلامة اللدوق وحسن السبك وجمال السجع ، وفي استواء الملكة الشعرية وانسجام الكلام .

وكان للشعر في هذا العصر مميزات ظاهرة في معانيه وأخيلته وألفاظه وأسلوبه وفي أغراضه .

فأما من حيث الأخيلة فقد كانت محدودة بسيطة قريبة ، لا تعتمد إلا على التشبيه والمجاز المتكلفين .

ومن حيث المعاني ، فقد كان أكثرها معاني تقليدية ليس لشعراء هذا العصر فضل في تركيبها ولا في ابتكارها ، وكثرت سرقات الشعراء بعضهم من بعض ، ولم يصحب هذه السرقات تصرف في الأسلوب ولا في الصورة ، ولا في الخيال ، أو المعنى . . ونجد عند قليل من شعراء هذا العصر بعض المعاني الجديدة ، التي كانت آتية من آثار الامتزاج بين الثقافات .

وأما من حيث الأساليب والألفاظ : فقد كثرت في هذا العصر الزخارف اللفظية والمحسنات البديعية للمقوّة التشكّلة المتخادعة ، وعجز الشعراء عن الفطام الصريح وعن الأسلوب السهل وعن شعر الطبع واللوحة عجزاً يبتكراً .

وقد ابتدعوا في المحسنات اللفظية نوعاً جديداً سمي القاريخ الشعري وقد أنشده عبد الغنى النابلسي للوقوف عام ١١٤٣ هـ صاحب البديعية السجدة فصححات الأزهار على نسيمات الأسرار ، وقال : « وهذا نوع اخترعه للتأخرون ، ولهم فيه العجب العجيب ، وقد أدرجته في ذلك البديع لعلو مرتبته ، وسمو متلقيه » ، ولطف مسلكه ، وطلوع شمس البلاغة في أوج نلّسه ، وهو أن يأتي الشاعر أو الكاتب بكلمة ، أو كلمتين إذا حسنت حروفها حساب الجمل (بتشديد لاء) بلغت عدد السبعة التي يريد بها التكلم من القاريخ المجري ، ومن أمثلته قصيدة نظمها محمد شاكر النحلاوي من شعراء هذا العصر بمذبح بها الشيخ عبد الغنى النابلسي للقدم ذكره وقد ضمن كل بيت منها تاريخين لسنة ١١٣٦ هـ وافتتح أبياتها بحروف إذا جمعت على ترتيبها بألف منها بيتان في كل منهما أربعة تواريخ لهذه السنة أما هذان البيتان فهما :

أخذيك مدحاً بليغاً : لأرقى خدّاً بحر الفتوحات ، يا هي الفضل والنن
ألفاظه كمنجوم ، فهي تشرق ما بداسفا يدرها أرخه ، عيد غنى »

وهذا النوع الذي اعتبره بعض شعراء هذا العصر من المحسنات لا تراه إلا ضرباً من ضروب العبث الذي يذهب بقيمة الشعر ، والنابلسي مؤرخاً لعام ١٣٧٢ هـ الذي توفي فيه العلامة محمد الأسطواني :

نصر كل الأنام أرخ (مئات علامة الوجود)

٤٨٦ ٤٤١ ١٥٠

٤ — وأما أغراض الشعر في هذا العصر : فقد وقف الشعر عند أغراض
للتقدمين ، واقتصر الشعراء على تقليد السابقين .

وفد أمروء الشعراء في المجون والعيث . . ونظم بعض الشعراء في
الموشحات ، ومنهم ابن شمة م ١١٥٠ هـ وسواه .

وهكذا ضعف الشعر في هذا العصر ، وأصبح ركيز الأسلوب ،
سقيم المعاني ، كثير الأغلاط ضعيف الأغراض ؛ إذ كان أغلبه في الغزل
الصناعي والإخوانيات .

وكان من أسباب ضعفه ما يأتي :

- ١ — كان الحكام تركا مهتمين لنشر لغتهم .
- ٢ — كانوا يحولون اللغة العربية ، فأبعدوا الشعراء عن مجالسهم .
- ٣ — انتشر الجهل في عهدهم لإغلاق معاهد العلم وعدم العناية بالثقافة .
- ٤ — كثر الظلم والاستبداد ، فشتت الناس بأنفسهم عن الأدب والشعر .
- ٥ — ضعف المراءى والملوك بتأثير الفسكات التي أحاطت بالثقافة
العربية وبالعالم العربي ، ومحاربة العثمانيين للبلاد العربية حرباً خفية من شأنها
أن تمحق حضرة هذه البلاد وتقدمها وازدهار العلم والأدب والثقافة فيها .
- ٦ — فقدان روح التشجيع للشعراء والأدباء ، والأدب لا يزدهر إلا إذا
وجد من يعمل لإنعاشه ، ويشجع على خدمته .

أشهر شعراء هذا العصر

الشهاب الخفاجي المصري

٩٧٥ — ١٠٦٩ هـ

نسبه وأسرته :

والد الشهاب هو محمد بن عمر الخفاجي المصري الشافعي المتوفى في عام ١٠٦٩ هـ أخذ علما عصره ؛ وأعلام دهره . وكان من الفضلاء ، والأدباء البارزين ؛ المتعمقين للتحققين ، أخذ عن كبار الشيوخ ، وتصدر للأفادة ، فانقطع به جماعة من كبار العلماء ؛ من جعلتهم أئمة الشاعر الملامة الشهاب الخفاجي صاحب طراز الجالس وسواه من المؤلفات القيمة . ؛ وتوفى والده بعد حياة حافلة ، وخدمات جليلة أسداها للعلم والدين والأدب واللغة (١) .

أما أئمة الشهاب الخفاجي (٢) : فبحال الحديث عنه واسع ، والمراجع

(١) ٤١٩ هـ دائرة المعارف للبيهقي ، وورد في هذا المرجع أن وفاته عام ١٠١١ هـ وهو غير صحيح إذ قد ذكر الشهاب في الريحانة في ترجمته لخاله أبي بكر الشنواني أنه توفي هو ووالده في وقت واحد (١١٩ الريحانة) . وقد توفي خاله عام ١٠١٩ هـ .

(٢) ترجم لنفسه في الريحانة (٢٧٢ — ٣١٩) . وترجم له الحمي في الجزء الأول من تاريخ خلاصة الأمر (٣٣١ — ٣٤٣) كما ترجم له ابن موصوم في سلافة العصر (٤٣٠ — ٤٣٧) وأشار إلى كتابه الريحانة في ص ٨ وأثنى عليه . وله ترجمة في مصباح العصر في تواريخ شعراء مصر طبع بيروت ١٢٨٨ هـ =

التاريخية والأدبية عنه وعن حياته وشعره كثيرة ، وسأتناول جوانب هذه الشخصية الكبيرة في إيجاز .

يقول ابن معصوم في « السلافة » عنه : أحد الشهب السائرة ، ولقتحم من بحر الفضل ليله وتواراه ، فرع تهطل من خفاجة (١) ، وفرد سلك سبيل البيان ومهد فجاجه (٢) ، إلى آخر ما يقول ، ويقول فديك في كتابه « اكتفاء القنوع » : الخفاجي يرجع نسبته إلى قبيلة « خفاجة » ، وسكن أبوه في قطعة أرض بقرب مرقاقوس شمال القاهرة (٣) .

== وترجم له جورجى زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٨٧ ج ٢ . وترجم له الأستاذ محمود مصطفى في الجزء الثالث من تاريخ الأدب العربي ، وفي الجزء الثاني من المنفصل ترجمة له (٣٠٨ — ٣١١) وترجم له فديك في « اكتفاء القنوع » بما هو مطبوع ص ٣٥١ . وترجم له البستاني في دائرة المعارف ٥٨٧ و ٥٨٨ ج ١٠ — كما ترجم له كثير من علماء الأدب في شتى المؤلفات ، وله ترجمة في عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادى عشر (ص ١٧٧ من التراجم المتعلقة منه الملحقه بآخر طبقات الشافعية للأسدى رقم ٢٤٠ تاريخ — بمصرية) وله ترجمة في كتابي بنو خفاجة الجزء الثانى ص ٥٩ — ٧٣ .

(١) هي قبياته العربية التى ينتمى الشهاب إليها .

(٢) السلافة .

(٣) ٣٥١ اكتفاء القنوع وراجع خلاصة الأثر ٢٤٣ ج ١ ؛ ومقدمة الجزء الأول من حاشية الشهاب للسماة غناية القاضى وكفاية الرامى على تفسير البيضاوى ص ٧ حيث صدر بذكر ترجمة الحنبلى للشهاب في كتابه خلاصة الأثر .

حياة الشهاب :

هو محمود بن محمد بن عمر الحفاجي ترجم لنفسه في الرحانة فقال ما تنقله عنها في إيجاز : « كفت بعد سن التميز ، في مفرس طيب الثبت عزيز ، في حجر الذي غنى عن اللبس ، فلما درجت من عشي قرأت على خال سيهويه زمانه علوم العربية (١) وفانست إخواني في الجدد والطلب ثم قرأت للماني والمنطق وبقية علوم الأدب الإثني عشر ونظرت في كتب التذمين : أبي حنيفة والشافعي ، ومن أجل أن أخذت عنهم : شيخ الإسلام ابن شويخ الإسلام الشمس الرملة وأجازني بجميع مؤلفاته وصروحاته بروايته عن شيخ الإسلام

(١) خاله هذا هو أبو بكر إسماعيل بن شهاب الدين . والده شهاب الدين الشنواني القطب الرباني ، وجدّه الأعلى ابن عم سيدي وفا الشريف الوفاقي التونسي . وكان أبو بكر علامة عصره في جميع القرون وكان في عصره إمام النجاة . وله بشتوان : ودرس في القاهرة على ابن قاسم العبادي وعلى محمد الحفاجي والده الشهاب وأخذ عن كثير صراحها ، وتخرج عليه كثير من العلماء وانتهت إليه الرئاسة العلمية ، ولأزمه وتخرج عليه ابن أخته الشهاب الحفاجي وسواء من أكابر العلماء ، ثم ابتلى بالفالج فصكت فيه سنين لا يقوم من مجلسه إلا بمساعدة وله عدة مؤلفات ، وله شعر رواء الشهاب في الرحانة (١٥٥ الرحانة) وتوفي سنة ١٠١٩ عقب طلوع الشمس من يوم الأحد ثالث ذي الحجة وبلغ من العمر نحو الستين ودفن بمقبرة المجاورين [راجع ترجمته في الرحانة] [١١٤ — ١١٧] وفي الجزء الأول من خلاصة الآثار [٧٩ — ٨١] ، وفي الحفظ التوفيقية لعل مبارك باشا في الكلام على شتوان [١٣٨ — ١٤٣] .

زكريا الأنصاري (المتوفى عام ٩٣٦ هـ) وعن والده ، ومنهم أحمد العلقمي (١)
أخذت عنه الأدب والشعر ، والعلامة الصالحى الشافى (٢) والشيخ داود البصير
أخذت عنه الطب (٣) ، ثم ارتحلت مع والدى للحرمين وقرأت هناك على ابن
جاء الله وعلى حفيد المصام وغيره ثم ارتحلت إلى القسطنطينية فتشربت بمن
فيها من الفضلاء والمصنفين واستفدت وتخرجت منهم ، ومن أخذت عنه
الرياضيات وقرأت عليه أقليدس وغيره أستاذى ابن حسن ، ثم انقرض هؤلاء
العلماء فى مدينة مصر فلم يبق بها عين ولا أثر ، وآل الأسر إلى اجترار السلاطين
والوزراء يقتل العلماء وإحاثتهم ، ولما عدت إليهم - أى القسطنطينية -
ثانياً بعدما رأيت قضاء العساكر بمصر رأيت تفاقم الأسر وغية الجهل فذكرت
ذلك لوزير - فكان ذلك سبب عزلى وأمرى بالخروج من تلك المدينة (٤) .
« فإن أردت مالى من المسافر فمن تأليفى : الرسائل الأربعون ، وحاشية تفسير
القاضى فى مجلدات ، وحاشية شرح الفرائض ، وشرح الدرر ، وطراز الجلاس ،

(١) ترجم له فى الرحانة ص ١٩٥ :

(٢) هو محمد بن نجم الدين الصالحى الحلالى م ١٠١٣ هـ - ١٦٠٣ م وله ديوان
شعر اسمه ، صبح الحمام فى مدح خير الانام ، طبع فى القسطنطينية عام ١٨٩٨
[١٩٣ من اكفاء القنوع] .

(٣) راجع ٣٧٣ الرحانة وترجم له فى الرحانة ص ٢٠٥ .

(٤) راجع ٣٧٣ الرحانة .

وحديقة المنعم ، وكتاب السوانح ، والرحلة (١) ، وحواشي الرضى ، والجامع ،
ومخرج الشفاء وغير ذلك ، ولدى من النظم ما هو مخطوط في ديوانى ، ومن
اللتويد رسائل منها : الفصول القصار (٢) والمقامة الرومية (٣) التى ذكرت فيها
أحوال الروم وعلماؤهم (٤) .
والشهاب عدة مقامات نسج فيها على منوال مقامات الحريري منها :
مقامة البقية (٥) ، والمقامة الساسانية (٦) ، ومقامة عرض ما مقامة الموطأ (٧)
والمقامة المغربية (٨) . وله رسائل كثيرة . وكتاب آخر عنوانه « ديوان
الأدب فى ذكر شعراء العرب » .

(١) قرأه عليه عليه الشهاب عبد القادر البنداش وأجاز الشهاب بحاله من
التأليف والآثار وما رواه عن مشايخه الاختيار [راجع ٢٨٦ الريانة] .
وعبد القادر هذا هو عبد القادر البنداش تولى القاهرة وتلى الشهاب وصاحب
خرانة الأدب وتوفى سنة ١٠٩٣ [٩٠٦ هـ] .

(٢) نسج فيها على منوال ابن المعتز وذكر منها جزءاً فى الريانة
٢٨٦ هـ .

[٣] راجعها فى الريانة ١٧٦ هـ . ١٨٦ هـ .
[٤] ١٧٦ هـ الريانة .

[٥] راجعها فى الريانة [١٨٦ هـ - ١٩٠ هـ] وذكر شرحاً موجزاً لبعض
ما فيها من معان غريبة [راجع ١٩٠ - ١٩١] .

[٦] راجعها فى الريانة [١٩١ - ١٩٥ هـ] .

[٧] راجعها فى الريانة [١٩٥ - ١٩٦ هـ] .

[٨] راجعها فى الريانة [١٩٨ - ١٠٠ هـ] وشرحها فى الريانة
[١٠٠ - ١٠٩ هـ] .

(٩٦ م - الحياة الأدبية فى مصر)

« وكان لما وصل إلى الروم في رحلته الأولى القضاء ببلاد « الروم التي »
حتى لوصل إلى أعلى مقامها في زمن السلطان مراد ، حتى اشتهر بالفضل فوله
السلطان قضاء سلاتيك فاستضافه مالا كثيرا ، ثم أعطى بعد قضاء مصر
وبعدما عزل عنها رجع إلى الروم فمر على دمشق وأقام أياما ومدحه فضلاؤها
بالقضاء واتفق به أهلها وعلماؤها ، ودخل مدينة حلب إثر ذلك ثم رحل
إلى الروم وكان إذ ذاك مفتيا يحوى بن ذكريا فأعرض عنه فسمع مقامته التي
ذكرها في الرحلة وتعرض فيها للبول المذكور ، فكان سبب نفيه إلى مصر
وأعطى قضاء فيها ، فاستقر بمصر يؤلف ويصف وأخذ عنه جماعة اشتهروا
بالفضل الباهر منهم : عبد القادر البغدادي والحوي وأخذ عنه والد المحي وكشب
عنه أصل الرحلة الذي سماه « خبلا الزلا فيا في الرجال من البقاي (١) » ،
« وأصل والده من قرى الخانقاه (٢) » .

« وفي الشباب بمداوة بعض شعراء عصره (٣) » « وتوفي سنة ١٠٦٩ هـ
١٦٥٨ (٤) في رمضان وحمرة فوق التسعين (٥) » وإذا بسكون . يلاها نحو
عام ٨٩٧٥ هـ

[١] ١١١ و ١١٤ هـ خلاصة الأثر

[٢] ١٤١ هـ خلاصة الأثر

[٣] ٤٧ هـ السلافة لابن مصرم

[٤] ١١٥ هـ فتدليك

[٥] ١٠٣ هـ البقاي

مكانته العلمية :

والشهاب الخفاجي الحنفي قاضي القضاة المصري وصاحب التصانيف
الكثيرة وأحد الأفراد المجمع على إمامته وتفوقه وبراعته في عصره (١) «
وأجرى من ينبوع الفضل ما أخيل بمصر فيلها وبالشام سبحانه ، وأهدى
لأرباب الأدب من رياض أدبه أطيب ديمانه (٢) . وكان أحد أنزاد الدنيا
المجمع على تفوقه وكان في عصره بدر سماء العلم ونير أفق الفكر والنظم رأس
المؤلفين ورئيس المصنفين ، سار ذكره مسير الليل ، وطلعت أخباره طلوع
الشهب في القللك ، وكل من رأيناه أو سمعنا به من أهرق دمه معترفون له
بالتفرد في التقرير والتحرير وحسن الإنشاء ، وليس فهم من يلحق شأوه
ولا يدعي ذلك . وثنا لوفه كثيرة مقبولة وانتشرت في البلاد ورزق فيها سادة
عظيمة فإن الناس اشتغلوا بها ، وأشماره ومشاآته مسلة لا مجال للمخاض فيها ،
والحاصل أنه فاق كل من تقدمه في كل فضيلة وأتعب من يحس بده ، ما خولة
الله من السعة وكثرة الكتب والطف الطبع والتكثرة والذائرة (٣) . . .
وهذا ينبغي عن كل كلام في بيان منزلة الشهاب الخفاجي في عصره
وبعد عصره .

[١] ٥٨٧ - ١٠٠٠ الهناني

[٢] ٤٠ السلافة لا بن معصوم

[٣] ٣٣١ - ٣٣٢ - ١ - علامة الإثر المصبي - ١١١١ - ٧ - ١٠

حاشية الشهاب . . .

ولا يفوتنا أن نقول إن الشباب كان من شنوان — وهي إحدى قرى
الشفوية ثم أقام بأرض له بجوار سرفاقوس ، كان له ذرية كبيرة بقيت إلى
العصر الحديث في شنوان (١) وأخيرًا فإن التراث العلمي والأدبي للشهاب الخفاجي
كبير جليل .

ثقافة الشهاب :

أما ثقافة الخفاجي الأدبية فواسعة جداً يتجسّد عنها كتاباه الزماني وطراز
المجالس ؛ وبدلنا عليها أيضاً شعره ومقاماته ، ولقد كان الخفاجي مقتضياً في
علوم اللغة والأدب والبلاغة إلى حد بعيد .
وأما ثقافته الدينية فقد أهله لتولى عدة مناصب قضائية عظيمة : منها
مقصب قاضي القضاء المصري . وأما ثقافته العامة الأخرى فواسعة جداً كما
تجسّد عنها آثار الخفاجي وكما ذكر في ترجمته إنضمه وكانت له مكتبة
مشهورة وذكر بعضهم أنه وجد في خلفائه عشرة آلاف مجلد .

[١] لشنوان جديدي في المحدث والتاريخ ، طويل وقد ذكر الجبرقي هنا في
حواشي عام ١١١١ هـ أن منها التقيّة العلامة محمد الشنواني الشافعي

صورت من شعر الشهاب

١ — أرح طرف عين جفاها المبحوح فإن عناء الجفون المنسوح
حيث كزوس الموى سحرة وساقى التي لمراوى مطيع
إلى حين غابت نجوم الهدى فكان لها فى عذارى ظفر
تقبعت بالوصل من طيفه وكل محب لموى تقوع
ولى عنده حاجة الهوى وليس لها غير ذل شفع
رعت فزادى على حبه فما باله تفزادى يضيع
تقبل المحاسن فى ظله وماء الجلال عليه يضيع
٢ — قلت ' لئدمان لما مرقوا برد الاديابى
قتلتنا الراج صرفا فاقبلوها بالزاج (١)

٣ — ومن شعره (٢) :

لا وعصن راق الطرف ورق وعليه من حلال الطرف ورق

== الأزهري شيخ الإسلام بعد موت الشرفاوى ، وقد تولى المشيخة عام ١١٧٧
وتوفى فى ٢٤ من المحرم عام ١٢٣٣ هـ [١٣٥ — ١٣٧ كثر الجوهر فى تاريخ
الأزهر] وقد يكون هذا الإمام العالم العظيم من أحفاد الشهاب ومن سلالة
الحقاجيين فى شتران. ومن شتران خرج أيضاً كثير من العلماء والأدباء والشعراء.

[١] ١ : ٢٣٩

[٢] ٢٥٤ السلافة لابن معصوم .

وشموس لم تغيب عن فاطمى والشعور الليل واخذ الشفق
وعيون حرمت نوى وما حلت لي غير دمي والأرق
ما احرار الراح إلا عجل من وضاب سكرت منه الخلق
سأوله أيضاً (١) :

قل للأحبة أتم مذيعة لم ألق وبها للو جعلا

والمعنى : يا أحبتي أتم مذيعة لم ألق وبها للو جعلا
والمعنى : يا أحبتي أتم مذيعة لم ألق وبها للو جعلا
والمعنى : يا أحبتي أتم مذيعة لم ألق وبها للو جعلا
والمعنى : يا أحبتي أتم مذيعة لم ألق وبها للو جعلا

والمعنى : يا أحبتي أتم مذيعة لم ألق وبها للو جعلا
والمعنى : يا أحبتي أتم مذيعة لم ألق وبها للو جعلا
والمعنى : يا أحبتي أتم مذيعة لم ألق وبها للو جعلا
والمعنى : يا أحبتي أتم مذيعة لم ألق وبها للو جعلا

[١] د ٤ : السلافة لابن منصور :

صورة من نثر الشهاب

١ — للشهاب مقامة تدعى « اللقمة الساسانية » ، جاء منها :
حدثنا مالك بن دينار ، عن مسافر بن يسار ، قال : كفت والشهاب
غراية لا يطار ، وجرانه الجنية تجنى من رفاض الأخبار ، أخرى السباحة
والناس ناس والديار ديار ، والدهر عمر لم يقطن لظنون الليل والنهار :
ولم أر يوماً في ظلام مفارق شهاب مشيب لاح في الإرمقنا
قدمرت في الأرض لا تظفر آثار رحمة ، وأرى ما أثر العرازل الأول في
أعلام حلقه ، إن من جد وجد ، ومن ترأى فقد فقد ، رائعا عصا التسيار .
على كاهل الاعتبار ، رافعا الاستراحة في مهد الدعة ، مشيما قلبا فارقي
حيثما ودعه ، قاطعا أملا عن در أنس ارتضه . أخرب كرة الأرض بصولجان
الهمة ، لا أعيا مقامة غير قائمة وهمة (١) حمة أندرع برد الليل ، لأنه أخفى
لاويل ، وأشقى أديم النهار للسير ، ولم أقل ليس للعصاير ، كهتيم ترمه
أعاصير تدور ، وورق جف فألوت (٢) به الصبا والديور على غصن يانة
خضل (٣) ، بشفه ربيع حفا وعبا ، إوقدى في عيون البلاد ، أو غير شروود
ترمه الرواي للوهاد (٤) .
كأني من الوجفاء (٥) في متن موجة رعتي بحار مالمين سواحل

- (١) الهم والهمة بالكسر : الشيخ الفاني ، أي حمة متوفاة
(٢) ألوت به : أي طارت به : والصبا والديور : ريحان .
[٣] الخضل : اللندی المبتل .
[٤] العبور والجار ، والرواي الأمكنة العالية ، والوهاد : الأمكنة المنخفضة .
[٥] الوجفاء : الناقة الشديدة .

أدب الشباب

٢٠٠

هاش الخفاجي في عصر العثمانيين حيث للسلطات الأدبية في استيعاب وفناء والإنتاج الأدبي في الشعر والنثر سقيم مردول، ولكن الخفاجي مع هذا كله سليم العبارة قوي للسلطة حسن الأسلوب بليغ الأداء. يسير كلامه مع الطبع والذوق ولا تنبو عنه الأسماع ولا الأدواق فهو في نثره ورسائله ومقاماته وكتبه الأدبية التي أنشأ زعيم عصره في هذا المذهب الأدبي الطبع التبول العبد عن أثر الصنعة والتكلف أو الحوشية والأغراب أو الشرقية والابتذال.

10

للخضاعي ديوان شعره مفقود ذكره في الرحانة وقد عثرت بعد ذلك على نسخة خطية منه بمكتبة الأزهر (بمئة ٥٥٥ خصوصية أدب) وله عدداً فالك شعر كثير جداً ذكره في كتابه الرحانية وفي كتابه طراز المجالس، وله مقصورة في مدح النبي صلوات الله عليه عارض بها مقصورة ابن فريد وقصائد أخرى في هذا المعنى ضمن مجموعة مخطوطة بدار الكتب (٧٨) مجموع (١)

(١) راجع الجزء الثالث من فهرس دار الكتب حيث قال: وقصائد الخفاجي م ١٠٦٩، وذكر فيها ميمته التي عارض بها معلقة زهير، ومقصوده التي عارض بها ابن دريد وخمس قصائد أخرى ويدح الرسول.

ومقصوده في مدح النبي حارض بها مقصورة زهير بن أبي سلمى ضمن ترجمة له ، وحدة أشياء أخرى من آثاره ألحقت بكتاب خيايا الزوايا المخطوط (١) ، وروى الحميري في خلاصة الأثر بعض شعره ، قال (٢) : ومن أجود شعره قصيدة دالية مشهورة :

| | |
|-----------------------|-------------------------|
| فلمنت رعود البرق زندا | أضرام من أشجاننا ووجدنا |
| حتى تناب ثوره | ونمطت الأغصان قدا |
| وعلى التدبر مفاضة | سردت له النجات مرقا |
| وحيايه من فوقه | قد بات يلعب فيه زندا |
| فستى معاهد بالمحى | قد أنهت حيا ووردا |
| لذر الليالى في ثرى | من عذب للسك أهدى |
| عجبا لذر ناصع | أودعن في مسك ممدى |
| في ظل عيش قاعم | بتسيم أسحار تردى |
| والدهر عيد طائع | أهدى لنا شرفا وسعدا |
| ما زال أصدق ناصع | كم قال لى هزلا وجدا |
| سلم امرؤ عن طوره | في كل حال ما تمدى |
| فانقلب بحر زاخر | فاصير له جزرا ومدا |

(١) بالدار (١٣١٢ و ١٣١٣ و ١٣١٤) أدب .

(٢) ٣٣٦ وما بعدها ١٠ خلاصة الأثر .

في ذمة الأيام للأحرار دين قد يؤدي
إن ما طلت فلربما أجزن بعد الليل وعدا
فإذا رمى طأطأ له رأسا ، تراه عندك عدى
أنهد إخوان الألى فرجوا ، أخاف اليوم نقدا
حيث إذا استسقت بهم نظمت في الجيد عقدا
قوم لهم يدعوا التنا من شاع الأقطار وتدا

مؤلفات الخفاجي

١ — الریحانة واسمها « ریحانة الألیا وزهرة الحیة الدنیا ، ویقول فیها الشهاب : هذه ذخائر من « خیابا الزوايا فیما فی الرجال بمن البایا » وقد سار علیها هذا الاسم ایضاً ، وهی تراجم أدبية واسعة لشعراء القرن الحادی عشر وأدبائه وعلماؤه فی مصر والشام والین والحجاز والمغرب . قسمها عدة أقسام : فالقسم الأول فی تراجم أهل الشام ونواحيها ، والقسم الثاني فی تراجم المصريين من أهل المغرب وما والاها ، والقسم الثالث فی تراجم مكة ومن بجوارها ، ذکر فیه الدولة الحسینیة ومن بها من بقیة العلماء والشعراء والأعیان ، والقسم الرابع فی ترجمة أهل الین بمن بلدة خبزہ فی هذا الزمان ومن بقى بها من الفضلاء والشعراء . وكان قریب المهد والقسم الخامس فی الترجمة لأدباء وعلماء مصر ، والقسم السادس فی الترجمة لنفسه . وقد أنهى علیها کل العلماء ورجال الأدب ، ویقول فیها ابن موصوم : « أهدى إلى مكة المشرقة کتاب ریحانة الألیا تألیف الملامة التحریر شهاب الدین الخفاجی ، وهو الشهاب القی أعضاء نور فضله فی هذا الزمن الداجی ، فرأيت قد أجاد فیما أنف وتكفل بالمقصود ما تكلف ، فله کتابه من ریحانة تنفست فی لیلها البارد ، وهطرت معاطس السماع بطیب نشرها الوارد ، حتى خاطبها کل كلف بالأدب راح لمرئها منتشراً الخ » (١) وقد بنى الخفاجی الریحانة علی التراجم ، ولكنه توسع فی تراجم الشعراء نشرح أقوالهم وتدد ما یصحق البتة منها وهو کتاب

- أدب وتاريخ جليل القائد (١) وقد ذيلها المحيى صاحب خلاصة الأثر م ١١١١هـ بكتاب سماه « نعمة الرعيانة » وطبعت الرعيانة في مصر عام ١٢٩٤هـ في ٣١٨ صفحة . وهذه الطبعة المذكورة هي التي نقلت عنها عن الشهاب ثم طبعته مرة أخرى سنة ١٣٠٦هـ في ٣١٨ صفحة .
- ٢ — حديقة السمر ، أشار إليه الشهاب في الرعيانة (٢) .
- (٣) الفصول القصار ، أشار إليه الشهاب في الرعيانة (٣) .
- ٤ — الشهب السائرة (٤) .
- (٥) طراز المجالس كتاب أدب ولغة بناء على خمسين مجلسا (أى درساً) . فيه كثير من موضوعات البلاغة والنقد واللغة والتفسير والحديث والتاريخ وسواها ، وقد طبع في القاهرة عام ١٢٨٤هـ وطبع بطبعات أخرى وقد أشار إليه الشهاب في الرعيانة (٥) .
- ٦ — خبايا الزوايا في الرجال من البتايا ، وهو من كتب الأدب وليكنه مقصود تراجم من أهل عصره فيهم شيوخه وشيوخ ابنه . وعديدهم يزيد على سبعين ، ومنه علق تصحيفه بدار الكتب (٦) ، وهو خمسة أقسام خاتمة : الأول في رجال الشام ، والثاني في رجال الحجاز ، والثالث في رجال
- (١) ٢١٠ : ٢٨٥ : ٢٦٧ (٢) راجع ص ٢٨٥ و ٢٦٧ (٣) راجع ص ٢٨١ و ٢٧٦ (٤) راجع ص ٢٨٢ (٥) راجع ص ٢٨٢ (٦) ٢١٠ : ٢٨٥ : ٢٦٧ (٧) راجع ص ٢٨١ و ٢٧٦

معصر والرابع في رجال المغرب ، والخامس في رجال الروم (١) .

٧ — شفاء الليل بما في كلام العرب من الدخيل ، صدره بمقدمة في التعريب وشروطه ثم أورد الكلمات المعرية مرتبة على حروف المعجم وغير أصلها في لغاتها الأولى ، وكان يأتي بين هذه الأناط بكثير من الحروف والمواد مع الإشارة إلى أصلها ، والكتاب ثامن عظيم الفائدة في ما به (٢) وقد طبع الشفاء في معصر عام ١٢٨٣ هـ .

٨ — شرح حرة النواص : ورد عليه بحجج وشواهد قوية . وقد طبع هذا الكتاب في مطبعة الجوانب بالقسطنطينية من عدة كبيرة (٣) .
٩ — حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي سماها « حفاة التاضى وكفاة الراوى على تفسير البيضاوى » طبعت في ثمانية أجزاء . ببولاق عام ١٢٧٣ هـ . فالجزء الأول والثاني في تفسير البقرة ، والثالث والرابع إلى آخر القوبة . والخامس والسادس إلى آخر الفرقان ، والسادس إلى آخر الزخرف . والثامن هو نهاية هذا الكتاب وقد طبع بتصحيح الشيخ محمد الصباغ في عهد العديوى إسماعيل عام ١٢٨٣ هـ وفي آخر الجزء الثامن قصيدة للسيد عبد الهادى نجا تقرظا للكتاب وفي مقدمة الجزء الأول منه تقرظ للشيخ محمد الهمبورى .

(١) والخاتمة في نظم المؤلف وشعره ، وقد فرغ من تأليفه في ٢٥ ربيع الثانى عام ١٠٤٢ هـ ويليها ترجمة المؤلف وقصيدة نبوية عارض بها معلقة زهير .

(٢) راجع ٣٠٨ : ٣ ، الأدب العربى لعمود مصطفى .

(٣) للأولى ٢ : ١٢٧٠ هـ مفتى بغداد كتاب على الذرة سماه كشف الطرة عن الغرة أخذ فيه كثيراً من شرح الخفاجى ووافقه في كثير من نقده للحريزى .

١٠ — وللخفاجي شرح للشفاء سماه « نسيم الرياض في شرح شفاء

القاضي عياض » وقد طبع في أربعة أجزاء في القمصطنطينية سنة ١٢٦٧ هـ

١١ — ومن مؤلفاته : كتاب الرحلة ، وكتاب العوائج (١) وكتاب

حديقة السحر ، وكتاب الرسائل الأربعون . وكتاب حاشية شرح القرائن ؛
وكتاب حواشي الرضى والجلال مما ذكرناه سابقاً .

١٢ — وللخفاجي ديوان شعر ، وله عدة مقامات ورسائل أوردناها في

الريانة وذكر جورجى زيدان أن في الطراثة القيصرية نسخة من ديوان
الشهاب بخط المؤلف على الأرجح . وله قصائد مختلفة في برلين ..

(١) ومنه نسخة خطية بمكتبة الأزهر (بمصر ١٥٣٠) خصوصية أدب) ،

وفي المكتبة أيضاً نسخة خطية من ديوانه (بمصر ٥٠٥) خصوصية أدب) .

فهرس الكتاب

| الموضوع | الصفحة |
|---|--------|
| القسم الأول : عصر المماليك | ٤ |
| تمهيد | ٥ |
| الحياة السواسية والاجتماعية ، والثقافية | ١٨ |
| الأدب | ٢١ |
| اللغة العربية | ٢٤ |
| عوامل أثرت في اللغة والأدب . | ٢٦ |
| المسند | ٢٦ |
| التأليف والمؤلفون | ٣٨ |
| الإمام السهول | ٦٧ |
| الكتابة وأشهر الكتاب | ٩٣ |
| الشعر والشعراء | ١١٤ |
| ابن نباتة شاعر العصر المملوكي | ١٥١ |
| الغوري وأثره في الأدب | ١٨١ |
| القسم الثاني : الحياة الأدبية في العصر العثماني | ١٩٥ |
| تمهيد | ١٩٦ |
| الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية | ١٢٠ |

